كولن ولسون

راسبوتين وسقوط القياصرة

ترجمة: مالك فاضل البديري

الأهلية

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الأهلية
للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان - وسط البلد
[illegible] ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف [illegible]
فاكس [illegible]

كولن ولسون

راسبوتين وسقوط القياصرة

ترجمة: مالك فاضل البديري

الأهلية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

بزغت اسطورة راسبوتين مع قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧. فقد عاد (ايليدور) حشيث الخطى الى روسيا وطبع كتابه (الشيطان المقدس). وفيه وصف راسبوتين بالسكير المحتال الذي غلبت سطوته التزارينا الهستيرية والقيصر الضعيف. ثم أصدر (جارلس اوميسا) كتابه عام ١٩١٨ الذي هو معلومات مختلفة من ألفها الى يائها وفيه يقول أنه التقى شخصاً مقرباً لراسبوتين أعطاه جميع التفاصيل السرية للمغامرات الشيقة لهذا الدون جوان الصوفي الفظ والذي قال فيه أحد المرضى العصابيين أنه تواق ليغدو مازارين (وهو الكاردينال جول مازارين، رجل دولة فرنسي (١٦٠٢- ١٦٦١) له الفضل في انهاء حرب الثلاثين عاماً والحصول على مقاطعة (الفروند) وفرض معاهدة البيرينيه على اسبانيا). ان محط الثقة في كتاب اوميسا قد جاءت في الفصل الثالث منه وفيه يقول أن عاشق التزارينا الأمير او قد تلقى أمراً من جون من الكرونستادت بمغادرة البلاد ثم وُجد بعدئذ ميتاً في فندق القاهرة. وأعمال كهذه هي انها سبب لخلق اسطورة راسبوتين. وكثير من رموز التاريخ الحديث قد طلتها أسطورتها وخير من لنا فيه آية (تي. اي. لورنس).

وفي بريطانيا والولايات المتحدة، تصدر قائمة المجرمين (سيد الغموض) ويليام لي كوكس الذي أعاث في استغلاله شخصية راسبوتين وأصدر بعد مقتله ثلاثة كتب في ثلاث سنوات افضلها افتقر الى ما يمكن أن نسميه بـ (الحقيقة). ثم آثر أن يشبع رغبة العالم المتعطشة لمعرفة شيء عن راسبوتين فأصدر رواية أوسمها بـ (الراسبوتينية في لندن) وهي عرض لحركة شهوانية ابتدعها راسبوتين.

وقد كتب (الدوس هكسلي)- وهو أحد أعضاء الكونغرس الامريكي- بعد قراءته كتاب (فولوب ميلر) الموسوم بـ (الشيطان المقدس) مقالة قارن فيها بطريقة مستهجنة بين القديس (فرانسيس) من آسيا وبين راسبوتين. وفيها يقول: «ان راسبوتين قد نهج في افعاله ما تنادي به المبادىء الخليستية المرتبطة بالوصية السابعة». بيد أن راسبوتين افتقر لعزة النفس التي جعلت من فرانسيس شديد التمسك بمبادىء المسيحية فنأى بنفسه (اي فرانسيس) عن قول أنه فاعل ما لا يفعله سواه البشر ودعا لذلك للنجاة عن طريق الخطيئة.

ان السؤال الأكثر الحاحاً عن راسبوتين هو السؤال الذي لا يستطيع أحد الجواب عليه. فهو انتماء للتاريخ الروسي الذي يمنح امتداده المتأمل بعض الشرعية. فذاك غارجييف قد أدرك مرة أن أغلب الرجال يفتقرون للمصير لأنهم يفتقرون للحقيقة العميقة فباتوا عرضة لقوانين الصدفة. والانسان بحاجة لجهد جبار كي يبلور جوهر ما سيكون مصيره. وبقراءتنا مسيرة حياة راسبوتين سندرك أنه امتلك ذلك الجوهر فيا وقع القيصر وعائلته ضحية لقوانين الصدفة.

ان ما نسميه اليوم بـ (ثورة اكتوبر) هي اعتلاء البلاشفة منصة الحكم بعد

أن طردوا منها الرومانوفيين. فالأمر اذاً ليس الا تغييراً في الوجوه. فالثورة الفعلية قد تمت بذورها مذ أصدر ستوليبين مرسوم (الارض) عام١٩٠٦ وسواء ظل نيقولا في عرشه أم ولاه كانت شروط المرسوم ستكتمل بحلول عام ١٩٢٠. وكما يقول شارك: «لم يكن للبلاشفة دوراً في اسقاط القياصرة» ويقول مالانيستا: «ان تغيير الحكم هو أن تغير ربطة عنق الرجل الذي تقف لك جيبك». لقد وجد الشعب الروسي الثمن على حسابه أن غير نيقولا بـ (ستالين). فالثورة لم تكن وجهاً جديداً لسفر التأريخ الروسي بل وصلة مستمرة للالثمائة سنة خلت.

أسأل الله أن أكون قد وفقت في عملي الترجمي لرواية وجدتها تستحق نقلها للقارىء العربي لما احتوته بين سطورها من غزارة معلومة فكرية وتأريخية وأدبية...

والله ولي التوفيق.

المترجم

مالك فاضل البديري

ابطال الكتاب

برنفس اندرونيكوف: متآمر شاذ جنسيا اصبح لفترة وجيزة ضابط العلاقات العامة لراسبوتين.

بارناي او فارنافا: رفيق راسبوتين في شبابه، اصبح بعدها اسقفا لتوبولسك.

بيليتسكي: رئيس الشرطة تحت امرة هفوستوف (ابن الأخ)

اليزابيث: الغراندوقة وهي شقيقة - التزارينا-

كليارد: معلم التزارفيتش

الكولوفوتيين: الام والبنت كن تلميذات لراسبوتين

كورميكن: رجعي تافه اصبح رئيسا للوزراء مرتين

كوشكوف: رئيس سابق للدوما كانت التزارينا تبغضه

هيرموجن: اسقف ساراتوف وهو احد اخوان راسبوتين في البداية ثم اصبح فيما بعد عدوه اللدود.

هفوستوف: (ابن الأخ): المتملق، الذليل لراسبوتين اصبح بعدها وزيرا للداخلية

ايليودور: قسا اصبح لاحقا الد اعداء راسبوتين

جون من الكرونستارت: قس مقدس وهو احد اعوان راسبوتين في بداية حياته في بطرسبورغ

كرينسكي: عضو يساري في الدوما اصبح بعدها قائدا للحكومة بعد الثورة في اذار ١٩١٧.

كوكوفيستيف: وزير المالية اصبح بعدها رئيسا للوزراء وهو عدوا لراسبوتين.

اولغا لوكتين: تلميذة راسبوتين عرفت لتعليمها اياه القراءة والكتابة.

ماناسفيتش مانيلوف: مبتز وعميل سري وهو مستشار راسبوتين في اعماله.

المونتكريات: الغراندوقة ميليتسا واناستازيا (واناستازيا هي ستانا ولا يجب خلطها مع الإبنة الصغرى التزار): وهن المسؤولات عن احضار راسبوتين لمدينة القديس بطرسبورغ.

ادميرال نيلوف: موظف في البلاط وهو صديق لراسبوتين

الغراندوق نيقولا: زوج اناستازيا (اقرأ الصفحات الخاصة بالمونتكريات) واصبح لاحقا القائد الأعلى للقوات المسلحة في الجيش وهو عدو لراسبوتين.

الغراندوق بيتر: زوج ميليتسا.

الطبيب فيليب (وكنيته فاخوت من تيزير): وهو اسمه جلبته ميليتسا لمدينة بطرسبورغ.

بلهيف: رئيس الشرطة ووزير الداخلية.

بوليانوف: وزير للحرب بعد طرد سوخومالينوف

بروتوبوبوف: شخص تافه جعله راسبوتين وزيرا للداخلية.

بوريشكفيش: عضو يساري في الدوما وهو عدو راسبوتين وقاتله في النهاية.

ماريا راسبوتين: ابنة راسبوتين مولودة في عام ١٨٩٨.

رودزيانكو: رئيس الدوما وهو الد اعداء راسبوتين

الغراندوق سيرجيوس: محافظ قاس لموسكو وهو زوج اليزابيث قتل بقنبلة.

سيمانوفيش: مدير اعمال راسبوتين وسكرتيره.

ستورمر: متآمر رجعي اصبح لاحقا رئيسا للوزراء بفضل راسبوتين ومانيلوف.

سوخومالينوف: وزير الحرب طرد من منصبه عام ١٩١٥ لعدم كفاءته.

الأسقف يشوفان: احد اعوان راسبوتين في البداية.

التزار: نيقولا الثاني

التزارينا: اليكسترا، وهي المانية المولد وحفيدة الملكة فكتوريا، واليكسا سابقة لهيس - دارمستادت.

التزارفيتش: اليكس (ويختصر اسمه عادة لاليكسي) ابن التزار وزوجته ولد في آب من عام ١٩٠٤ واغتيل في تموز من عام ١٩١٨ وقد كان يعاني من نزف الدم الوراثي.

(اولغا، تاتيانا، ماري، اناستازيا) بناتها وهن دوقات عظميات.

انا فيروبوف: موضع ثقة واعتزاز التزارينا منذ عام ١٩٠٥.

ميرجيبوسوت: اول رئيس للوزراء اصبح لاحقا صديقا لراسبوتين.

برنس يوسبوف: شاب ثري لعوب وهو قاتل راسبوتين.

تمهيد

عجزت أغلب رموز التاريخ الحديث أن تثير عن شخصها هذا الكم الهائل من الأدب الحسي واللاواقعي كما أثاره كريكوري راسبوتين. لقد كتب عنه أكثر من مائة كتاب ولكنها لم ترتق جميعاً الى مستوى القبول كعرض سليم لشخصيته.

يقول السيد الن موريهين في احدى كتاباته: «لقد تعرض كريكوري ييفيموتش راسبوتين للتشويه واللاتقييم في الاربعين سنة التي تلت وفاته حتى بات الاحساس به كما ينبغي امراً عسيراً وهو نظير التشويه الذي تعرض له ريتشارد انجلترا الثالث وقيصر بوركيا الايطالي. فلقد عد شريراً بل هو الخلاصة الخالصة للوقاحة ونسبت اليه حيلة (اياكو) وقوة (كاليبان). ليس فيه من حسنات الخصال شيئاً فكان قليل الاغتسال كريه الرائحة واذا ما جلس أمام المائدة تجده وقد غطس يديه في طبق حساء السمك المفضل لديه، كان سكيراً او عليه السكر لحطم الذي أمامه، بذيء اللسان ماجناً وفسوقه بربرياً حوله الى وحش كاسر أكثر منه انساناً». يقول رودزيانكو- احد أعيان (دوما): «في جعبتي كم كبير لرسائل ارسلتها امهات فتيات تعرض لهتك العرض على يد هذا الساقط الصلف».

إن السيد مورهيد كاتب تاريخي واقعي غير متحيز لكنه هنا وبعد اعترافه بأن راسبوتين الحقيقي قد اخفته اسطورته بين جوانحها، يعمل على اعادة تنظيم عناصر هذه الاسطورة. فليس من رواية غير قابلة للنقاش: لقد أورد بعض الكتاب شغف راسبوتين بالحمام البخاري فليس من المعقول اذا ان يكون كريه الرائحة. أما وصفه راسبوتين غاطساً يديه في طبق حساء السمك فقد ورد اصلاً

في كتاب غير موثوق بصحته لسيمانوفيتش، اذ تكرر ذكر هذا الوصف مراراً بيد أننا لم نجد انطباعاً أن أحداً لم يتناول قط حساءه بهذه الطريقة. أما بقية وصفه انما هو صورة مزيفة وغير صحيحة البتة عن راسبوتين على أنه سكيراً، بربرياً ومغتصباً: لقد سجلت ابنته ماريا التي عاشت معه في شارع بطرسبورغ سني ابداعه الاعظم قائلة أن ابيها قد اسرف في الشرب في آخر سنة من حياته فقط ولم يقرب الفودكا المرة لكنه كان مغرماً في شرب الخمر المحلي ولقد كان في سني شبابه الاولى قادراً على شرب كميات كبيرة من هذا الشراب دون أن يتجلى عليه شيئاً. كان مولعاً بالجنس رغم أنه لم يتعثر في ايجاد رفقة من سيدات لامعات وعشلات يقاسمنه فراشه. كان رودزيانكو أحد أعداء راسبوتين وهذا يفسر أن الأمهات ربما كتبن رسائل تحكي فقدان شرف بناتهن بتحريض منه. ربما كان راسبوتين قد أغوى فتيات صغيرات وربما لا ولكن في كل الاحوال لا يمكن الأخذ بكلام رودزيانكو كدليل قاطع على ذلك.

تلك هي العقبة الكأداء التي تواجه كل من يحاول الكتابة عن راسبوتين فنحن نملك بين أيدينا كمّاً هائلاً من دلائل عنه، بيد أن التلفيق والتضليل قد طغى على أغلبها بينما يبقى المرجع المادي الأساسي ضئيل. فقد جاءت الثورة بعد وفاته بقليل وانهمك مؤرخو الحكومة السوفياتية في اماطة اللثام عن عيوب نيقولا الثاني أكثر من اهتمامهم بالبحث عن الأمانة التاريخية بينما افتقرت معظم الكتب التي تناولت سيرة حياته والمطبوعة خارج روسيا الى الاستقلالية في الرأي وكانت عبارة عن مذكرات رخيصة مثيرة. استهلت دار تي فوجل جورجنسن اصداراتها (راسبوتين)، (المدمر)، (عاشق الملذات)، (المتآمر) والتي طبعت بعد وفاته بالعبارة التالية: «لم يكن راسبوتين اسمه الحقيقي: بل هو أصلاً كريكوري يفيموفتش. ولد في قرية تدعى بيتروتوفيسكوي..». وثمة ملاحظة تذيل الصفحة تبين أن كلمة (الراسبوتينية) تعني الفجور أو الخلاعة. بيد أن ابنته تنفي ذلك مشيرة أن راسبوتين كان اسمه الحقيقي، فقد أشارت ابنته ان كلمة راسبوتين لا تعني سوى (مفترق طرق) أو (شوكة طعام) وأن أكثر من نصف سكان قريته يحملون نفس الاسم لأن القرية تقع على مفترق بين (توبولسك) و (تيومين) وكما هو معروف لدى كل قارىء للأدب الروسي أن (يفيموفتش) هو بالطبع اسم العائلة وليس اسمه الاول، وأخيراً فإن قرية راسبوتين كانت تسمى (بوكرفيسكو) وليس (بوكروفيسكوي). ويتضح جلياً جداً، حتى لكاتب مذكرات حسي بأن (جورجنسن) هذا قد استطاع ان يكدس عدداً هائلاً من المغالطات المتعمدة في جمله الاولى، وهو برغم ذلك لم يكن سوى خدش بسيط مقارنة مع الكتب الاخرى التي ظهرت.

فالكتاب الذي يحمل بين طياته سطوراً تملؤها الكلمة الصادقة لم يظهر بعد، وعمل كهذا لا بد وأن تطرز سطوره ريشة كاتب يتكلم الروسية ليصبح باستطاعته البحث في كم الوثائق الاصلية واليوميات ورسائل العائلة الملكية والوثائق الارشيفية للبوليس السري وأن يسافر الى سيبيريا الشمالية باحثاً عن معلومات تخص حياة راسبوتين المبكرة.

أما الكتاب الذي بين ايدينا فهو محاولة لاعادة تقييم شخصية راسبوتين، بيد أن ذلك لا يعني أنني قد وضعت نصب عيني نية مسبقة في الدفاع عنه لأنني أشكك حتى في أهمية اخراج مثل هذه الكتب، سيما وأن محاولات عديدة سابقة لتبرئة ساحته قد ظهرت لكنها لم تنل من الأهمية مكاناً. إن وجه الاعتراض الوحيد للراهب الفاجر (مكراباكو) هو كونه لم يصل الى نصف ما يستحق راسبوتين من اهتمام ذلك الرجل الذي فكر أن يكون راهباً ولما يزل في السادسة عشرة من عمره والذي اصبح واعظاً جوالاً تحصنه قوى شافية غريبة حتى ظن

في نفسه صورة جديدة للمسيح. واذا ما حاول القارىء أن يجد امامه راسبوتين الحقيقي الذي غاب بين ظلال الكتب التي تحدثت عنه، نراه سرعان ما يدرك أن المشكلة تكمن في اقتناص الجزء الجوهري من حياته، جزء ابعد من أن يوصف.. . انه جزء الانسان الحي. ونعلم جميعاً ايضاً أن كبار الكتاب لم يعتبروا أن يخلقوا وراءهم تجاربهم الحية. وأمامنا شيلي الذي اذا ما شئنا تحويل شعره الى سيرة ذاتية فلن نضيف سوى النزر القليل لحقيقته الواقعية المعروفة لدينا مسبقاً. لكن راسبوتين لم يكن كاتباً عظيماً.. . ولم تكن مذكراته سوى شيء يشبه الغضين الخارجي لبصلة (بيركينت) حيث ينتاب المرء الشعور المزعج أن لبها مفقود.

انه سوء الطالع الذي انسيه التاريخ، وفوق ذلك للتاريخ المثير لاواخر الملوك القياصرة. انه شخصية مثيرة حقاً وأكثر منها اثارة جذوره التاريخية. ان للتاريخ اسلوبه في أن يحط بالرجال الى الحضيض.. . الى صورة ذات بعدين فقط. انه عدو للموضوعية فحق لستيفن ديدالوس أن يصفه: «الكابوس الذي احاول ان افيق منه.. .». واذا نظرنا الى (كيركجارد)[1] و (نيتشه)[2] و (هولديرلين)[3] نراهم يقفون وحيدين خارج حدود التاريخ، لقد برزوا بفاعليتهم الشديدة بينما

(١) كيركغارد (سورن) Kierkegoard (١٨١٣ - ١٨٥٥).
فيلسوف ولاهوتي دانماركي وجودي. وهو أول الفلاسفة الوجوديين المعاصرين الخارجين على هيجل، وقد علل الوجود في شيء من التشاؤمية. تستند فلسفته على الايمان والفكر والحقيقة، وهو يقول أن الارادة الانسانية ذات الشفرة الحادة هي التي تقرر علاقة الانسان الذاتية بالله.
(٢) نيتشه (فردريش) Nietzshe (١٨٤٤ - ١٩٠٠).
فيلسوف الماني أخذ بمذهب التطور وبشر بالانسان الاعلى (السوبرمان) قائلاً أن الانسان الاعلى يجب بلوغه وأن البقاء للأصلح، وهو أحد مؤسسي العرقية الجرمانية، ومن كتبه التي يتلخص فيهما ما يدعى بـ (ارادة القوة): «نشأة المأساة وروح الموسيقى»، «هكذا تكلم زرادشت»، «المسافر وظله»، «ارادة القوة».
(٣) هولدرلين (فريدريش) Holderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣).
شاعر الماني صاحب رواية (هيبريون) وأناشيد رائعة رفعت الوحي الرومانطيقي الى درجة التصوف.

ظلت الأصول غارقة في الظلام. لقد دخلوا التاريخ ولم يكونوا جزءاً منه. في هؤلاء الرجال شيء ما ضد التاريخ، فهم عرضة للزمن، للحادث والموت، لكن فاعليتهم الشديدة كانت تمثل مقاومتهم له، لذلك فقد اسميتهم في كتاب غير هذا بـ (اللامنتمين) لانهم يحاولون الوقوف خارج التاريخ الذي يعرف الانسانية في اطار عجزها وقصورها وليس في اطار الاحتمالية.

ان الدين بطبيعته نقيض التاريخ: لقد كان راسبوتين رجلاً مأخوذاً بالدين وكان ايمانه الذاتي بالمسيح الباعث الأقوى لديه لا الانغماس الجنسي او الرغبة بارتقاء السلطة. بيد أن روسيا تحمل التاريخ كله- فيها الحروب والمجازر والقتل والثورات والاعدامات. كتب ار. دي. شارك قائلاً: «لقد طاردت (نيمسز) (الهة الانتقام لدى الاغريق) الثلاث وعشرين عاماً الاخيرة من حكم آخر القياصرة الرومانوفيين، ولن يستطيع اي قارىء للتاريخ أنى كان دقيقاً ان يشبع خياله سواء لهذه الحقبة من الزمن او لغيرها من حقب الماضي». هنا يعبر شارك عن هذا الشعور الذي ينتاب الفرد وهو يقرأ تاريخ روسيا، فهناك لحظات يبدو المرء فيها وكأنه (يتقمص روح التاريخ) ساحباً خيوطه لتحرك الشخوص كما يفعل الأراجوز. لكن راسبوتين يمتلك ميزة اللامنتمي الثائر ضد تأطير نفسه بروح الزمن الذي يفصل الانسان عن واقعه. ان جوهر ميزة اللامنتمي تتجسد عند نيتشه في عبارته: «كيف يصبح الانسان ما هو عليه». لقد جاهد راسبوتين طوال الاربعين سنة الاولى من حياته لينال هذه الصيغة من الواقعية الداخلية فجنى بجهاده هذا قوى متميزة، نوعاً من الزخم الباطني اتاح له مقاومة تيار التاريخ.

بعدها قدم شارع بطرسبورغ ليجد نفسه في اعنف دوامة لهذا التيار جرفته نحو مسقط المياه حيث تطارد نيمسز القياصرة. لقد خدمته قوته الداخلية كثيراً لكنه لم يكن قوياً للدرجة التي تمكنه من انقاذ القياصرة او انقاذ نفسه من الموت.

كانت الملكة تدرك حقيقة الموقف فراسبوتين لم يكن فلاحاً احتضنته العائلة المالكة بل كان قديسهم وهذا ما يفسر قدرة راسبوتين على توبيخ القيصر وجعله مطيعاً كطفل وديع، وهو ما يفسر ايضاً رسائل الملكة اليه المفعمة بالتوسل وشعور بالخنوع:

«معلمي الحبيب الابدي، ايها المنقذ والناصح المخلص. . . أي ظلمة أعيشها بعيداً عنك، لقد تمنيت سكون الروح واسترخاء الجسد في دفء جليسك. دعني أقبل يديك وألقي برأسي على كتفيك المباركتين. آه كم تغمرني السعادة حينها، إنني لا أنشد من الحياة غير أن أنام ابداً على صدرك وبين ذراعيك. . . اي غبطة أعيشها وأنت قربي. اين انت؟ اين ذهبت؟ عجّل الي بخطوك فما عيل صبري، وسلواي أني أرقب خطاك. . .».

تبدو هذه الكلمات كأنها رسالة حب لكن تأثير راسبوتين عليها كان اقوى من وقع الحبيب على عشيقته فالجنس لن يكون سوى مضعفاً لهذه الهيمنة. لقد كان راسبوتين هو الواهب في تلك العلاقة، ولم يكن لديهم شيئاً ليهبوه اياه. كان يعلم انهم يبغون منه النصيحة، وكان مطلبهم ذا وجهين: الاول يخص ضعفهم والآخر ملوكيتهم، وربما كان الاول قوياً جداً بيد ان راسبوتين كان قروياً يؤمن بالحق الالهي للملوك وهو ما جعل الرفض لديه مستحيلاً. اذ انتفضت حيويته مرات عديدة ضد التضحية بالنفس. . . كان يفر منها لمرات عديدة وكان يعود بعد كل مرة ليعيد الكرّة، وبعد عام ١٩١٠ تقريباً انبرى لدى شخصية راسبوتين عنصر جديد ليس من اليسير تحديد معالمه وربما يكون من الافضل التعبير عنه بالصمت بدلاً من الكلمات. . . لقد قبل ان يدور في فلك هذا العنصر حتى نهاية المطاف وهذا يعني انه قبل بتدمير الذات. لقد اتضحت لديه معالم من الازدواجية منحته احياناً سلاماً مضطرباً، سلام انسان يدرك انه وافق على

ارتكاب ابشع جريمة بحق نفسه. لم يتأكد قط هل يحتم عليه كيانه الباطني ان ينفصل عن القياصرة ويتركهم يتخبطون بفاجعة التاريخ الذي تورطوا فيه. انها الشفقة وشعور الواجب قد منعاه ان يفعل ذلك. هنا تجلت شخصية اخرى بالكاد المبهمة العميقة في نفسه: ماكرة وعنيفة، موسومة عليها بصمات الماسوشية (تعذيب الذات). كان كمن ذهب الى دائن يرهن لديه اثمن كنوزه لا لشيء سوى ليرفضها. لقد انعكس تقليله من قدر نفسه على نفسه حيث تستحيل هنا الشفقة الجريحة الى نوع من الماسوشية لديه. كان يدرك جيداً انه ذاهب الى حتفه وهذا ما تكشفه رسالته الاخيرة، وكان يعلم ايضاً ان نهايته مرتبطة بنهاية القياصرة، اذ اخبر القيصر ان موته سيعني سقوط العرش. لقد ذكرت ابنته أن اباها أمسى وبعد عام ١٩١٤ عصبياً، مشدوداً وبدأ يشرب الخمر وعندما اعترضته اجابها: «ولم لا افعل؟ انا رجل كباقي الرجال». ان راسبوتين الذي اعدم في باحة قصر يوسيوف ليس براسبوتين الذي قدم شارع بطرسبورغ سنة ١٩٠٥. . ذلك الـ (راسبوتين) الذي كان مدركاً بانه رجل ليس كباقي الرجال، راسبوتين الذي تعرفون بدأ يموت بالسم البطيء منذ عام ١٩١٠. ربما لاجل هذا لم يؤثر سيانيد يوسيوف فيه فاضطروا للقضاء عليه باسلحتهم النارية.

اذن لم تكن حياة راسبوتين «تاريخاً» بل هي نزاع التاريخ نوطره الموضوعية. كان راسبوتين في سنيه التي امضاها في شارع بطرسبورغ (الاوكولا) صنعه التاريخ. لكن جميع من كتب عن راسبوتين كان إما مؤرخاً أو صحفياً شعبياً. فليس من العجيب اذن ان يظهر راسبوتين في تلك الكتب (كبصلة بركينت) الخالية اللب. . . كان كيدق بحركة التاريخ، ويطرز المكر قوته القائدة له. ان جوهر راسبوتين الحقيقي يكمن في ولعه بالدين وهذا هو المنفذ الوحيد للولوج الى دواخله.

ليس عسيراً اجراء مقارنة (على سبيل المثال) بين ت. اي. لورنس[1] وراسبوتين، فقد كان لورنس رجلاً لامتحياً ايضاً اوقع به التاريخ، وربما يكون كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) الوثيقة الاساسية الوحيدة لمثل هذا الصراع. وهو كراسبوتين قد جعل من نفسه رجلاً عظيماً قبل أن يصبح قائداً للثورة العربية (ربما يكون الاثنان قد التقيا في فلسطين قبل الحرب لأنهما كانا هناك في نفس الوقت). كان هاجسه الزهد وفكرة الحج وساوره شعور ايضاً انه اذا ما خدم التاريخ فسيكون كمن يخون نفسه. ولم ينجح قط في استعادة الموضوعية التي كان قد فقدها اثناء الحرب. لقد طغى على كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) شعوره بالنفور من التاريخ.... هو نوع من التمرد المرتبك وهو محاولة للخلاص من القبضة التي امسكت به. عندما عرض (اريك كينجتون) الكتاب على منجم مجوز لا يفقه شيئاً عن لورنس قال المنجم: «لقد جعلتني قراءة هذا الكتاب العلب. ان كاتبه اعظم رجل عرفته لا محالة...» لكن هذا المنجم نفسه أحس باستسلام لورنس للتاريخ... احساس بلا حقيقية الوجود «انك لا تشعر به حياً فيا يفعل.. انه مجرد طيف تجري من خلاله الحياة...».

وبعد، وبرغم العفة المطلقة وعظمة لورنس الجليتين في (اعمدة الحكمة السبعة) لم يتوار ريتشارد اولدنكتون ان يكشف في سيرة حياة لورنس الذاتية طلاوة الزيف الذي غطاها ليبرهن أن منبع حياة لورنس هو ولعه بالكذب. الا ان الاحتيال ما زال قائماً أن تجد حتى في اعمدة الحكمة السبعة لورنس الحقيقي (لب المسألة). وهنا تصل تحت هذه الظروف الى البديهية التالية: لا عجب اذا لم نجد كتاباً واحداً عن راسبوتين استهله مؤلفه بذكر الحقيقة فقط لا غير. ان

(1) لورنس (توماس) Lowrence (١٨٨٨- ١٩٣٥).
ضابط وكاتب انجليزي، التقى الشريف حسين وشجع ثورة العرب ضد الاتراك ١٩١٦- ١٩١٨. لقب بلورنس العرب.

المغالطة بحق راسبوتين لا تكمن في الحقيقة التاريخية فحسب برغم جتها بل في كيفية التوصل اليها، ومن ثم ادراك السبب وراء اختيار راسبوتين لذلك النمط من الحياة. وبادىء ذي بدء نقول: ان راسبوتين كان روسياً والقلة ممن كتبوا عن سيرته الذاتية كانوا من الروس او ممن يدركوا ماذا يعني ان يكون المرء روسياً. اما من كتب عنه من الروس فكان معظمهم شيوعياً أو انهم كتبوا من وجهة النظر الماركسية.

فالروسي رجل المتناقضات مثله في ذلك مثل لورنس العرب. انه كرجل ينقصه قوة الارادة في اطار الاصرار على غايته. بيد انه يملك- من جانب اخر- قوى مشلولة تتمثل في القدرة على تحمل الصعوبات وتجاوزها. ان أغلب المتناقضات في الشخصية الروسية ليست سوى ردود فعل لهذه الصفات من الكسل واللافاعلية. كتب (بيرديايف) قائلاً: «لقد كان هناك عنصر قوة رهيب لدى الشعب الروسي مقرون بضعف نسبي في الصيغة» او بمعنى آخر ان الروسي يمتلك قوة لكنه يجهل السبيل ليفعل منها شيئاً. ان من المستحيل فهم التاريخ الروسي اذا ما حكمنا على (ايفان المريع) و (بيتر العظيم) وحتى ستالين على انهم رجال انجليز. ولو ارتكب اوروبي غربي مثل ما ارتكبوه من وحشية لأصابه جنون الاضطهاد والارتياب من الآخرين، لكن الأمر ليس كذلك لروسيا. فهي ارض الغموض والبلادة والعجز ونقصان الهدف. ان عنف التاريخ الروسي هو رد فعل حتمي لهذه الصفات... رد فعل رجال يحاولون تحقيق شيء ما.

لقد قيل ان كسل الروسي انما هو جزء من موروثه الأسيوي. وهنا كتب (جون كنشر) قائلاً: «تقع على المغوليين مسؤولية العديد من الصفات التي نعتبرها شرقية او اسيوية في روسيا اليوم كالخشونة والاستسلام للقدر والكسل. ربما لا تكون بلادة الروسي وعجزه جزأين من معالم الشخصية القومية الاصلية

بل هما حصيلتين للتخلف. فهناك بلدان لا يمت احدهما للآخر بصلة، مثل ايرلندا والهند، يتقاسمان هذه الصفات والتي بدأت بالزوال بعد قيام الثورة الصناعية، وسيشهد القرن الحالي، ربما، اختفاءها من روسيا. إن الخرافة الدينية هي سمة لعالم تخلف البلدان وربما هي رد فعل للكسل: انه التوق المليء بالايمان العميق ضد حالة الخمول في هذه البلدان. وهنا نجد روسيا اقرب الى آسيا منها الى اوروبا، فمسيحيتها الاغريقية الأرثذوكسية لها نفحة بوذية. اذ يلقب من يقرر ترك عائلته في البلدان البوذية ليصبح متسولاً دينياً بالـ (تاتهاجاتا)، وفي روسيا يدعى (ستارتيز) اي (حاجا). لقد اصبح راسبوتين (ستارتيزا) عندما بلغ الثلاثين من العمر.

ثمة ميزة اخرى في الروسي علينا ادراكها جيداً: فهو اذا ما امسى رجل دين فانه سلّم بوجود الله. الله قوة خارجية. أما نظرية (جورج فوكس) القائلة أن الله هو (الضياء الداخلي) فهي نظرية دخيلة تماماً على الروسي. لقد تطلب الاعتياد، في اوروبا، على رؤية جديدة لله ثلاثة قرون بعد الثورة العلمانية لنيوتن وغاليلو. لقد علم نيوتن الرجل الاوروبي أن يثق بعقله فقط فخلق بذرة ثورة لامرئية. ونيتشه أعلن موت الرب بعد ثلاثة قرون من ولادة هذه الفكرة في اوروبا. لكن الرجل الروسي لم يكتسب بتاتاً الثقة المطلقة بالعقل و (الضياء الداخلي). فهو يرى في الله سؤالاً ملحاً ما حيا. وفي هذا الاطار يروي (بيردياييف) كيفية انتمائه الى فريق من المفكرين اعتاد الاجتماع في شارع بطرسبورغ في بداية هذا القرن. اذا اقترح احدهم أثناء احدى النقاشات حول (ما وراء الطبيعة) الذهاب الى منازلهم بعد أن أسدل الليل سدوله لكن آخر أجابه قائلاً: «لا... لا يمكن أن نذهب الآن فنحن لم نقرر بعد فيما اذا كان الله موجوداً!».

انه لمن المستحيل أن نتصور روسياً يقول غير مبال كزرادشت: «أو لم يسمع هذا بعد أن الله قد مات؟»، او أن يراهن بالحاديته بطريقة سارتر[١]. ان ستافرون عند دستوفسكي في (الشياطين) هو زرادشت روسيا ومزيد من الثقافة لنا أن نقارنه بنظيره الالماني. فستافرون شاب غني اكتشف موت الرب لكن هذا الاكتشاف لم يحقق لحريته الاحتفال (الدايونيسي) - نسبة الى دايونيس اله الخمر عند الاغريق -، انه يجد العالم مفرغاً مجرداً والرب غائب عنه ويرتكب الجرائم لا لشيء سوى ليصدم ذاته ويحدث رد فعل اخلاقي، انه عاطفة تحطمت حتى عظمه ولا ينال من عقله اية متعة، ومن المستحيل ايضاً تصوره مغرقاً نفسه، كشيلي، في دراسة الكيمياء او الاقتصاد السياسي. فاذا غاب الرب غدا العالم تفاهة، ما من جدوى للبحث في داخله عن معنى فعالمه الداخلي قد مات. وما الحياة له إلا مفترق طريق: اما قوة العاطفة أو أنها ليست بشيء. والقوة تنجم عن حافز خارجي ولا يمكن له قط تصورها تنشأ من الداخل. ان رد فعله لموت الرب هو الانتحار.

لا مندوحة هنا من ادراك هذا لفهم ماهية الدين لدى راسبوتين. ان دين راسبوتين لو قورن مع اي من رموز الدين الاوروبية العظيمة الشأن امثال باسكال[٢]، وليم لو، نيومان[٣] وكيركجارد لتجلّ غير عقلاني بطريقة غريبة وهو

(١) سارتر (جان بول) Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠). فيلسوف وناقد وكاتب فرنسي. تأثر بظواهر هوسرل وهايدغر وغدا من أبرز رواد الوجودية المتشائمة. وهو يقول أن الوجود متقدم على الذات وأن الانسان مطلق الحرية في الاختيار. ابرز أعماله «الكائن والعدم»، «طرق الحرية»، «الجدار»، و «الايدي القذرة». انحاز فيما بعد الى بعض افكار ماركس.

(٢) باسكال (بليز) Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢). فيلسوف وأديب ورياضي وفيزيائي فرنسي. وضع الخطوط الرئيس لكتاب (الخواطر) في الدفاع عن الدين المسيحي.

(٣) نيومان (جون هنري) Newman (١٨٠١ - ١٩٨٠). قس بروتستاني انجليزي. أحد زعماء حركة اكسفورد للتوعية المسيحية. انضم الى الكنيسة الكاثوليكية واصبح كاردينالاً.

واقعي وموضوعي بطريقة غريبة ايضاً. وهذه مسألة ليس من اليسير على الاوروبي ادراكها لأن راسبوتين ابعد من أن يكون غير عقلاني. لقد اعتمد على نفسه على نحو جلي لكنه لم يكن ذلك الاعتداد العقلاني للذات على نفسها الموجود لدى نيتشه، فهو (راسبوتين) لو زرع اصغر ذرة شك من شكوكية زرادشت في عقله لتهاوت شخصيته بكامل بناءها. لقد لقب القيصر راسبوتين بالمجدد- اي الرجل الجديد- لكنه لم يكن بالرجل الجديد بل هو من الناحية الفكرية آخر (المؤمنين القدماء) وسيكون أوفر حظاً لو كان قد مات قبل الثورة البلشفية (ثورة اكتوبر). وبقي أن نقول هنا كلمة يجب قولها: ان الكتب التي تناولت راسبوتين تنتسب الى ثلاث صنوف:- الموثوق بها بشكل أو بآخر، والموثوق بها ذات المعلومات القليلة، وغير الموثوق بها تماماً. ومن المؤسف حقاً أن تنتمي معظم الكتب الى الصنف الأخير.

يعد كتاب (برنارد بيرس) والموسوم بـ (سقوط المملكة الروسية) أفضل كتاب عالج هذه الحقبة من الزمن بأسرها لكنه اهتم، شأنه في ذلك شأن معظم المؤرخين الذين عالجوا هذه الفترة، بتأثير راسبوتين في بلاط القيصر ولم يبذل جهداً جهيداً لينصفه حقه.

إن المثال النموذجي للوصف المنحاز جداً لحياة البلاط في تلك الفترة قد ورد في كتاب نجهل اسم مؤلفه والموسوم بـ (سقوط القياصرة) الذي يحمل العنوان الثانوي (كيف تسببت الملكة وراسبوتين في قيام الثورة الروسية)، ومن الواضح أن مؤلفه أحد أعضاء البلاط ممن يحملون كرهاً شخصياً للملكة. فهو يصف الملكة بالهستيرية وراسبوتين بالمحتال السوقي. كما يعتبر كتاب فولوب ميللر (الشيطان المقدس) من أهم الكتب التي تناولت راسبوتين وهو الأضخم بلا شك. وقد أوجز بيرس الاخطاء التي وردت فيه فيقول: «برغم ان الكتاب

يعد عملاً كادحاً لكن الاسلوب الصحفي قد طغى، ولسوء الحظ، على أغلبه فجاءت حوادث القصة الرئيسية في غير مواضعها تماماً بل وتحولت حتى بعض أجزاء التاريخ الى محادثات خيالية تقع على الكاتب وحده مسؤولية كتابتها». ويعرض فولوب ميللر ايضاً تواريخاً ضئيلة ولا يكترث بذكر المصادر التي اعتمد عليها.

ظهرت العديد من الكتب ألفها أشخاص عرفوا راسبوتين يأتي في مقدمتها كتاب يوسبوف عن محاولة الاغتيال، والسيرتين الذاتية من تأليف ابنته، وكتاب سيمانوفيتش (سكرتير راسبوتين).

وجميع هذه الكتب موثوق بصحتها اذا ما تحدثت عن علاقة المؤلف الشخصية براسبوتين ولكنها فقيرة المعلومة في جميع النواحي الاخرى. فكتاب (سيمانوفيتش) يشبه بالتحديد عموداً صحفياً ماكراً يعطي الانطباع بأن غاية المؤلف الوحيدة هي منح القراء قيمة ما دفعوه ثمناً للكتاب. ويوحي كتاب يوسبوف بالنزاهة لكنه يصب اهتمامه تماماً بتبرير محاولة الاغتيال بعرضه راسبوتين مجرداً من أية خصلة متوازنة.

أما كتابا ماري راسبوتين القصيران فربما يمثلان الصورة الاكثر واقعية لراسبوتين، بيد أنهما لا يحتويان الا على معلومات قليلة جداً من بين عشرات الأمور التي كان مفروضاً أن تكون ابنته حسنة الاطلاع عليها. وهما لا يخلوان من التناقضات أيضاً، فهي تذكر أن راسبوتين رأى تجلي الذات الالهية لعذراء (كازان) ولما بلغ الثلاثين من عمره لكنها ذكرت قبل ذلك وفي نفس الصفحة بأن ذلك حدث عندما فقد ابنه البكر بعد سنة من زواجه وكان حينها في العشرين من العمر، وهي تقول في غير هذا الموضع انه قد تزوج في التاسعة عشر من

العمر.

ثم ظهر في السنة التي تلت مقتل راسبوتين كتيبان قصيران عنه، كتب أحدهما ي. بي. فوجل جورجنسن، وكتب الآخر جورج اوميا. يعترف فوجل جورجنسن بصراحة انه انتقى معظم معلوماته من الصحف الروسية، وعليه فان الكتاب برغم الاخطاء الجسيمة التي يتوقع أن تغص بها معظم صفحاته يكون قد خط لنا في اقل تقدير صورة واقعية لرد فعل الصحافة الروسية حيال راسبوتين. اما كتاب اوميا فهو أول دراسة غير دقيقة تصل حد الوقاحة واللااخلاقية تجاه راسبوتين، فهو يبدأ بالادعاء ان الملكة استهلت فترة حكمها بتورطها بعلاقة غرامية ورويداً رويداً يستمر يطلق لخياله العنان فيصل الى ذكر تواريخ محددة ومقتطفات مما نشرته الصحف لاسناد ادعاءاته.

كتب الروائي وليم لوكوكس ثلاث كتب عن راسبوتين غير جديرة بالثقة ستالي مني الشرح في الفصل الخاص بملحمة راسبوتين.

في عام ١٩٥٧ كتب هيتس ليبهان احدث كتاب صدر عن راسبوتين بعنوان (راسبوتين. .. أقديس أم شيطان؟) والجأ نفس الأسلوب الصحفي لفيلوب ميللر وأقل واقعية، يبدأ الكتاب بالقول: «إن هذا العمل ليبطل كل ما نشر سابقاً عن راسبوتين باعتماده على مطبوعات مركز التوثيق التاريخي في موسكو»، ويظهر في واقع الامر أن معظم معلوماته كانت من بنات افكاره. فهو يصف بالتفصيل كيف ضرب فلاحو القرية الثائرون والد راسبوتين حتى الموت وكان حينها راسبوتين في السابعة عشر من العمر، بينما تذكر ماريا راسبوتين بأن جدها زار شارع بطرسبورغ أثناء اقامة والدها هناك اي عندما تجاوز راسبوتين الاربعين من العمر. وعموماً يجب وضع كتاب ليبهان على كف المساواة مع كتاب اوميا.

ومع ذلك تراني استشهد به بين الحين والآخر وحيثما تطلب الأمر مقارنة معلوماته بمعلومات مصدر آخر، وأخيراً أشير الى احدى النوادر الأدبية عن راسبوتين والتي هي آنذاك مقالاً عن قدرته في ابداع الاساطير، انه كتاب (جورج ساقاس) تحت عنوان (راسبوتين يتحدث) والذي يدعي فيه مؤلفه أن روح راسبوتين قد املت عليه الكتاب من شفاه وسيط روحي وكان ذلك عام ١٩٤٠. وفيه تظهر روح راسبوتين وكأنها قرأت كتاب فولوب ميللر فهو يردد الكثير من القصص حرفياً تقريباً كما يردد أيضاً بعض مغالطاته. وفي الجزء الثاني من كتاب ساقاس تبرز روح راسبوتين لتتنبأ وعلى المدى الطويل بمستقبل روسيا (والتي أثبتت فيما بعد صحتها الى حد بعيد). وفي الختام يكفي مجرد ذكر عناوين بعض الكتب عن راسبوتين للدلالة على شخصيته:-

راسبوتين . . . العوبة اليهود، رودلف كومر.

راسبوتين والنساء، رينيه فولوب ميللر.

سيد الشيطان- التاريخ السري لخيانة راسبوتين لروسيا، وليم لوكوكس.

الراسبوتينية في لندن، لكوكس (لم يذهب راسبوتين ابداً الى لندن).

راسبوتين، الراهب والداعر والمجرم، اوكتست ليكاليه.

راسبوتين والفجر الدموي، برنيس مورات.

راسبوتين، القروي القوي، اي. سيانوفيتش.

وهكذا سيدرك القارئ، ان الكتابة عن راسبوتين ما برحت تجد حيزاً لها برغم هذا الكم الهائل من المطبوعات التي تناولت حياته.

الفصل الاول

الامكاني

كتب نيقولا بيردياييف قائلاً:[1] «تخفي الأرض الروسية بين تضاريسها شيئاً ما يتوافق مع رحابة وغموض وابدية ارضها. وسيبريا... تلك الأرض الخافية خلف جبال الاورال هي الجزء من أرضها التي تكحلت بهذه الصفات. فهي ارض الأنهار العظيمة: اللينا، الأمور، الينيس والاوب، انهار قد تتلاشى أمامك حدود شواطئها ولا تقف في عرضها، وهي طريق ملاحي لصيادي سمك المحيطات. شتاؤها قارس قد تصل درجة الحرارة فيه الى اقل من الثلاثين تحت الصفر، بيد أن هواءه الجاف والساكن يجعل منه شتاءً مطاقاً. وصيفها قاسٍ يحرق الأرض بلهيب حرارته حتى تبدو فيه الستيب (سهوب سيبريا) احياناً صحراء لاقحة لأرض قاحلة.

وشرقها عبارة عن مناطق جبلية أما شمالها- حيث ولد راسبوتين- فسهول متموجة ابقة بنبات التندرا ومساحات منبسطة مغطاة بطحلب الرنة ونبات حزاز الصخر.

ليس مؤكداً بعد متى ولد راسبوتين، لكن الآراء تتفق انه جاء اواخر عام ١٨٦٠ في بوكروفسكو وهي مدينة صغيرة واقعة في مقاطعة (تيومين) قرب (توبولسك). ظلت سيبريا- منذ زمن (بطرس الكبير)- معتقلاً ومنفىً ويؤكد أحد الكتاب أن بوكروفسكو قد اسسها المعتقلون ممن أطلق سراحهم في سنة

---

(١) الفكر الروسي، منشورات جيوفري بليس المحدودة، ١٩٤٧.

١٨٢٠ - وإن صح هذا القول فإن المؤسسين قد نجحوا دون ريب في اختيار أرضهم فهي كما وصفها (يرتس يوسبوف):-

«تمتد قرية بوكروفسكو بموازاة ضفتي نهر تورا المرتفعتين العاريتين. ومن القلة الواقعة في قلبها وحيث تشمخ كنيستها تتفرع طرقاتها في كل اتجاه. انها طرق مستقيمة تقع على حدودها أكواخ الفلاحين الفسيحة. كل شيء فيها يبشر خيراً، فالطيور تملأ شوارعها وتغص الفنية مزارعها بالأبقار والأغنام والخنازير. أما المهور المحلية فتبدو كأنها صقلت بالفولاذ، وشرفات الأكواخ نظيفة تتلألأ شبابيكها العريضة بالزهور.

لو غادرت القرية ووقفت برهة على ضفاف التورا فانك ستقف لتواجه رحابة سيبريا التي لن تتراءى أمامك رحابة مثلها ما حييت. وعلى امتداد البصر تستقبلك مروج وسهوب تشخصها بساتين البتولا وتمتد خلفها (الأورمان) وغابة مترامية الأطراف مليئة بأشجار الصنوبر والتوب»[1].

كان والد راسبوتين فلاحاً أجاد مهنته وحوذياً ومالك جياد، وقد اتهموه، كابنه، بسرقة الجياد. وهي تهمة يمكن الأخذ بها لأنه أمضى عاماً في السجن. وقد وصفوه بأنه فلاح كادح وسكير مدمن وكلتا الصفتين تنطبقان عليه كثيراً. وما تأكد لدينا أنه بدأ الافراط في الشرب بعد زواجه مباشرة عندما كان سائقاً في البريد الامبراطوري الروسي، لكن السنة التي قضاها في السجن- بعد خسارته أحد جياده- جعلته يغير من أسلوب حياته[2]. ففي عام ١٨٦٠ نزح شرقاً ووجد منطقة جميلة في ملتقى نهري (التورا) و (التوبول) حيث يوجد شلال يصل

(١) راسبوتين... نفوذه الماكر والخياله، ص٢٨.
(٢) هينز ليبيان، راسبوتين،... قديس أم شيطان؟.

ارتفاعه الى مائة قدم. وهناك أقام يفيمي راسبوتين منزله بين عدد قليل من الأكواخ كوّنت فيما بعد قرية بوكروفسكو. وقد كدح كثيراً في زراعة أرضه حتى غدت جنة معروشة زاهية فانتخبوه زعيماً للقرية وفي هذه الفترة بالذات ولد له ابنه الثاني كريكوري.

أمضى راسبوتين طفولة سعيدة كان فيها محباً للخيول ومولعاً بالسهول الخضراء الواسعة. لم ينل من التعليم الا قليلاً برغم أن والده علمه مبادئ القراءة فقط لأنه لم يجد في تعليمه الكتابة ضرورة تذكر، فنشأ راسبوتين كارهاً للانضباط مفضلاً السباحة وصيد السمك على الانكباب على قراءة الكتب، وهو لم يتعلم الكتابة بطريقة صحيحة ومحاولاته في كتابة بعض الرسائل لم تكن سوى محاولات طفل عقيمة مترددة، لكن الحرية التي تمتع بها في طفولته ورحابة السهول أمامه قد أرستا أمامه أسس قوة ظل محتفظاً بها طوال حياته ولم تستطع كل مؤامرات ومكائد حياة البلاط أن تقوضها إلا بنزر قليل. كتب (بريخت) شعراً جاء في أحد ابياته: «سأشعر ببرد الغابات ما دمت حياً». انه البرد الذي مكن راسبوتين ايضاً بصحبة تفاؤل كان يخاص طفولة تجردت من الخشونة والفظاظة الى حد كبير.

امتلك راسبوتين منذ نعومة أظفاره خصلة سما بها فوق أتراب قريته، انها البصيرة الثاقبة فطرياً وفراسة لا مثيل لها وهنا استشهدت ابنته بقول ابيها: «لم اكن اجرؤ على سرقة أو اختلاس شيئاً ما مهما كان صغيراً لاعتقادي أن الجميع سيكتشفون في الحال اني سرقت ذلك الشيء لأنني أنا نفسي أعرف بالفطرة بأمر السرقة اذا ما قام بها أحد زملائي حتى لو كنت في مكان بعيد عني والشيء المسروق مخبأ، فأنا استطيع رؤية ذلك الشيء ورائه». ولتأكيد هذه الفراسة لديه تذكر ابنته حادثة جرت في شارع بطرسبورغ ذات يوم عندما جاءت الى راسبوتين

امرأة مجهولة حاملة موقّة(1)، انتزع راسبوتين منها الموقة حال دخولها وقال لها: «ارمي ذلك» وعلى الفور سقط منها مسدس وأغمي على المرأة وهي في حالة هستيرية.

ارتبطت احدى مآثر راسبوتين الخالدة في طفولته بحصان مسروق من مخزن حبوب فلاح فقير. اذ اجتمع أهل القرية لمناقشة الامر في بيت زعيمهم يفمي راسبوتين، وكان كريكوري حينها مريضاً بالحمّى ونائماً على فراش او أريكة في نفس غرفة المجتمعين. وفجأة نهض من فراشه وأشار الى أحد الفلاحين قائلاً: «هذا هو السارق». احتقن الرجل الذي كان أحد أثرياء الفلاحين واضطر والد راسبوتين لاسترضائه موضحاً أن الطفل قد غلبته الحمى ولا يمكن أن نحمله مسؤولية قوله. لكن الشك ساور اثنين من الفلاحين لرد فعل الرجل على اتهام كريكوري له فحملهما الفضول وحب الاستطلاع على ملاحقة الرجل حتى منزله فشاهداه من مكانهما الخفي المظلم في مخزن الحبوب وهو يقود الجواد المسروق خارجاً ليطلق سراحه لكن الفلاحان أمسكا بالسارق وضرباه بشدة وأعادا الجواد لصاحبه.

حلت الرزايا ولما بلغ راسبوتين الثانية عشرة من العمر بعائلته فتوفيت والدته وأكلت النيران معظم منزله. وذات يوم خرج راسبوتين برفقة شقيقه ليلعبا على ضفة النهر فسقط شقيقه الى النهر وجرفه التيار. عندها غطس كريكوري لانقاذه ونجح في إبقاء رأس أخيه فوق سطح الماء حتى أنقذهما فلاح عابر، لكن ميشيل أسلم الروح في اليوم التالي اما بسبب التهاب رئوي او بسبب تهشم في الجمجمة. تلا ذلك بزمن قصير سقوط شقيقته المصابة بالصرع (كإبن

(1) الموقة: غطاء انبوبي طويل مكسو بالفراء لتدفئة اليدين.

راسبوتين لاحقاً) في النهر عندما كانت تغسل الثياب وغرقت هي الأخرى ولم يبق في المزرعة إلا راسبوتين وأباه.

حصل كريكوري في تلك الفترة على عمل كسائق عربة لمتعهد في (توبولسك) - من الواضح أن أموال العائلة قد تناقصت كثيراً ولم يعد يفمي راسبوتين مالكاً للجياد. اشتمل عمل راسبوتين على نقل البضائع والمسافرين أحياناً في جميع أنحاء سيبيريا. فيما أجبره السفر على البقاء أياماً عديدة بعيداً عن المنزل نائماً تحت عربته أو في محطة بريد صغيرة ليلاً. واكتشف آنذاك ولما يبلغ السادسة عشر بعد، أنه جذاب للنساء، فقد أجمع كل من كتب عن سيرته الذاتية على براعته الجنسية في صباه.

كتب السير برنارد بيرس قائلاً: «من المؤكد أن خيبة الأمل عمت القرية بأسرها للحرية الجنسية التي أجازها راسبوتين لنفسه». لقد اعتاد راسبوتين الا يشرع في عمل الا ويكمله، وفيه مسحة غرور لازمته طوال حياته وربما أراد لسمعته أن تكتسب صفتي القسوة والمجون فالأهم لديه ان يغدو معروفاً يشار اليه بالبنان. لكن الشك يشوب نجاحه في أغلب محاولاته تلك ان لم تكن جميعها. يضاف لذلك أنه افتقر الى التهذيب في اساليبه كما شهدت على ذلك سيدات شارع بطرسبورغ، فحالما يعجب بامرأة ما يبدأ في محاولة الامساك بها وتقبيلها ثم يشرع في فتح أزرارها. وقد ظل أسلوبه هكذا مثيراً للاشمئزاز والتقزز حتى في فترات حياته التي تلت ذلك. كان مدركاً بأن له هيئة قروي فيلسوف. وهو لم يكن ضعيف البنية وقد التقى بلا شك بكثير من القرويات في محطات بريد بعيدة واللاتي لم يكن ميالات لزجره.

لم يكن سعيداً راضياً برغم أن بوكروفسكو قرية جميلة امتلكت صفات

الجبال التي تمنح لساكنها السعادة وبرغم إحساسه بالجاذبية لكونه سمكة كبيرة في بركة صغيرة، وهو شعور يعزى لنظرة الآخرين له على انه شخصية مريبة (تصفه أحد الأراء بأنه كان (رعب القرية))، لكنه كان ابن زعيم القرية فمن غير المعقول أن يكون الرفض الاجتماعي سبباً لنفوره منها. وكان ذا شخصية مزدوجة، فبعضه كان فلاحاً روسياً لديه رغبة غير معقدة في المتعة والطعام، أما الجزء الآخر فمشمئز من حبه للظهور ومن الكره الذي يعانيه من أكثر الفلاحين هيبة ووقاراً ويشعر في أحايين أخرى بأنهم ليسوا بذوي شأن حتى يكرهوه، كانت تقوده ارادة القوة المكبوتة في بوكروفسكو.

جالت في رأسه فكرة واحدة مرات ومرات: أن يطلق ساقيه ويطوف العالم ويعيش جوالاً. لقد شاهد في مناسبات عديدة حجاجاً يمرون عبر قريته في طريقهم الى دير بعيد. لكن طبيعة عمله كسائق عربة وفرت له كمّاً لا بأس به من الحرية وربما كان راغباً عن هجر والده الذي بدت عليه تصرفات لا أخلاقية منذ وفاة زوجته وطفليه.

اضطلع راسبوتين في سن السادسة عشرة بتوصيل شاب متصوف يدعى ميليتي سابوريفسكي الى دير (فيرخوتور) على بعد مئة ميل تقريباً.(1) لقد تحدث الشاب الى راسبوتين وتأثر به، اذ كان راسبوتين منفتحاً بشوشاً ومتحدثاً لبقاً في أيام رحلاته العائلي فبيا كان والده متديناً متعمقاً في الدين أمضى أمسيات طويلة في قراءة (الكتاب المقدس) على عائلته والذي ابتاعه مع كتب أخرى قليلة مثل (حياة القديسين) وربما حياة (القس العربي افاكيوم)، وهو أول كتاب كلاسيكي

(1) أظن أنه كان في السادسة عشرة حينها رغم أن معظم الكتاب قد اجمعوا على سن أكبر من ذلك بالنسبة لكونه في الدير- لأن ابنته قد ذكرت بأنه زار فيرخوتور لاول مرة عندما كان في السادسة عشرة.

من الأدب الروسي كتبه (المعذبون القدامى). كان راسبوتين عارفاً بتلك الكتب لكنه لم يكن بطبعه متديناً. وبرغم ذلك تظل حياة القديسين والشهداء دائماً محط الهام شاب يشعر بالكبت في جوه الاسري. تحدث معه سابوريفسكي عن الدين حينها انتاب راسبوتين اهتمام وجداني تحول الى إثارة. ودون ريب أنه قص على سابوريفسكي شيئاً عن حياته وعن مغامراته الجنسية وربما عن بعض الاتفاقات السرية التي كان يتمكن بواسطتها من الحصول على دخل اضافي. وعليه حثه سابوروفسكي على البقاء بالدير ليقر بخطاياه وليفكر جدياً أن يصبح ناسكاً. وظلا هكذا حتى وصلا فيرخوتور بعد عدة أيام من المناقشات الحامية التي تأثر بها راسبوتين. يقع الدير على تلة فوق نهر (التورا) وهو عبارة عن بناء أبيض في وسط خضرة الغابات والى اسفله تقع القرية المحيطة بالكنيسة التي تضم عظام القديس (سيمون العادل). إن أسطورة القديس سيمون لها تقارب مع قصة القديس (فرانسز). فقد كان سيمون شاباً غنياً تخلى عن منصبه ليصبح راهباً، ويعتقد أغلب الناس أن عظام القديس (سيمون) لها قدرة على الشفاء فقصدوه حجاجاً زرافات زرافات.

ربما يكون النظام الرهباني الصارم قد أثار اشمئزاز راسبوتين الا أن دير فيرخوتور كان أشبه في أكثر جوانبه بيت في مزرعة، وحيث أن الكنيسة تقع وسط القرية فقد اختلط القساوسة بحياة العامة اليومية، فهم زرعوا الأرض وساعدوا الناس في الريف المجاور، لقد انقسموا الى مجتمعين كان أحدهما أقرب الى السجان للآخر مما حدا براسبوتين العدول عن أن يصبح راهباً. وتلك هي أكثر النقاط التي شدت راسبوتين اليها. لقد اتضح لديه أن فيرخوتر كانت معقلاً لأعضاء بعض الطوائف الهرطقية التي كانت روسيا مرتعاً لها. وأبرز تلك الطوائف هي الخليستية والسكوبتزية (اللتان سنتحدث عنهما لاحقاً باسهاب).

يعتبر هذا أول تماس لراسبوتين مع تلك الطوائف الهرطقية التي حركت سواكنه كثيراً. والتي شكل أتباع الطائفة الخليستية الغالبية العظمى منها في (فيرخوتور) والذين يلقبون أيضاً بالجلادين وهم أناس آمنوا بامكانية بلوغ ملكوت الرب على الأرض عن طريق الانتحاب. وقد تحدث اليهم راسبوتين ووجد ذاته أقرب الى دينهم في نواحي عديدة من الكنيسة الارثوذكسية. فهو قد وجد هناك– في أقل تقدير– العاطفة والايمان الحقيقيين.

اتخذ راسبوتين في فيرخوتور صديقاً آخر مع سابوريفسكي يدعى ماكاري وهو ناسك كبير معروف عاش في كوخ في طرف الغابات. ويجد قراء (الاخوة كارامازوف) لدستوفيسكي شخصية شديدة القرب من شخصية ماكاري وهي شخصية الأب (فيرابونت) الراهب الذي يعيش بمعزل عن الآخرين في كوخ متوحد والذي نادراً ما يتحدث الى أحد، اضافة الى ذلك هو غير مطالب بتطبيق قواعد الدير. ويضيف ديستوفسكي قائلاً: «اعتبره الكثير من الزوار قديساً عظيماً وزاهداً برغم يقينهم انه مجنون... بل ان جنونه هو الذي شدهم اليه».

لم يكن الناسك (ماكاري) مجنوناً لكنه كان يتمتع بنفس المكانة التي تمتع بها الاب فيرابونت. فقد كان أغلب الحجاج الآتين للصلاة على العظام المقدسة للقديس سيمون يطلبون منه البركة. وتأثر الناسك ماكاري هو الآخر بشيء ما في شخصية راسبوتين ونصحه بتعلم الكتابة وتطوير قراءاته.

غادر راسبوتين الدير بعد أربعة أشهر مكثها هناك وترك خلالها تأثيره الكبير على كثير من الناس– نستطيع افتراض هذا من مبالغ المال الكبيرة التي اهديت اليه بعد مغادرته. وصل راسبوتين، في خاتمة رحلته الى الدير، الى القناعة التامة أن حياة الدير ليست بالبديل الأمثل لحياته في القرية. لقد كان تواقاً

التجربة والتغيير. لذا غادره والاسى يملؤه وصديقيه سابوروفيسكي والناسك ماكاري وعاد أدراجه الى القرية الأم حيث يرقب والده قدومه بشوق ولهفة. وبعدها استأنف راسبوتين عمله القديم كسائق عربة بعد أن جنى بذور بقائه في الدير أن أدرك ان لا مكانة للرهبنة في حياته وعاود مطاردته لبنات القرية ومزاولة اي نشاط غير قانوني تسمح له به ظروف عمله.

لكن تغييراً ما قد حدث دون أن يدرك راسبوتين ما حدث. فحياة قريته الأم بوكروفسكو لم تعد تشبع رغباته، فهي قرية صغيرة وأسلوب أفقر من أن يتسع لعالمه. ويقدم لنا الأدب الروسي للقرن التاسع عشر آيات لنمط حياة تلك القرى جسدها (سيمكي) و (تشيخوف) و (سخرفذ) و (تولستوي) ولاحقاً عند كوركي وسولوكب الذي قدم أكثر الصور قوة في كتابيه (ميلكي بيس) و (شيطان التفاهة) واللذان يوجزان باسميهما اسلوب حياة مثل تلك الأماكن. ان الصفات التي اتفقوا عليها جميعاً هي:– الغباء المطبق المنطوي على الحقد والمكر اللذين يكونان أهم عناصر الطبيعة الانسانية، ونوع من الفظاظة والوحشية واخيراً خموداً لامعقولاً مدمراً للروح. ولا بد أن دستوفسكي، الذي ناشد (الموجيك)[1] لينقذ روسيا، نسي ان الفلاحين هم الذين قتلوا اباه بسحق خصيتيه (لئلا يتركوا آثاراً على جسده) وتركوه ليموت.

ربما أصلح الدين من الوحشية والافق الضيق لكن الفلاح الروسي ليس متديناً بطبعه، برغم ما قاله ديستوفسكي فيه. يقول المؤرخ كوستماروف: «لا نجد في المملكة المسيحية ارضاً أقل من روسيا ميلاً للحركات الدينية وأقل استعداداً لها ذلك أن هذه الحركات لا تنسجم مع الطبع البارد للروسيين في

(١) الموجيك: الفلاح الروسي.

هكذا أمور، وفي تاريخنا شواهد كثيرة على ذلك. فنحن لا نسمع إلا الشكوى من اختلال عقل العاملين في الكنيسة، فضلاً عن لامبالاتهم. . . وآخر ما يتوقعه المرء هو أن تسود اللامبالاة الدينية والانشقاق بين من يملكون زمام القيادة في الكنيسة.[1] أشار ستشابوف في كتابه عن الانشقاق الروسي أيضاً بقوله: «لقد بلغت اللامبالاة الروسية حيال الدين حداً اضطر معه القيصران (ميشيل) و (اليكسز) على إجبار الناس على الذهاب الى الكنيسة بمرسوم قضائي».

كما شهد كتاب آخرون باللامبالاة الروسية حيال الدين. فلروسيا اديرتها وأماكن حججها ورجالها المقدسين، لكن اهتمام الفلاح الروسي البسيط بالدين لا يعلو بمثقال ذرة مقدار اهتمامه بالرياضيات.

لم يشغل الجو الديني في فيرخوتر حيز الاهتمام لدى راسبوتين، فوالده كان قارئاً للكتب المقدسة. بل انها الصراحة والصداقة والذكاء التي لم يكن قد عاشها من قبل وها هي الآن تسرق لبه.

إن كلمة (اللامنتمي) ليست بالمفردة الأمثل لوصف طباع راسبوتين، فقولها انما يصح على ضعيف الشخصية وعلى من هو عاجز عن التعايش مع الآخرين وكذلك على من يغدو تحت ظروف معينة وغدا لا يقل حقارة عن الذين يراهم هو وتحت ظروف أخرى أوغادا. أما راسبوتين فما كان قط انطوائياً، بل ان قدرته على التعبير الذاتي لم تجد لها متنفساً في قريته. وهنا اقترح (روبرت مرسيل) مفردة أخرى تتجلى أكثر ملاءمة لنمط الرجال أمثال راسبوتين الا وهي « امكاني ». فحياة الانسان تقتضي القبول بمسلمات معينة، وحتى أشد الثوار تمرداً سيضع لحياته القبول والتوازن ركنين اساسيين. فإن تعاظمت ثائرته

١) ذكرت في (المنشقين الروس) للمؤلف فريدريك. سي. كونيبير دراسات هارفارد النظرية ١٩١٢.

أسس أكثر حاجة لركيزة صلبة يقوم عليها في هدي عمله. وان تجرد من مثل هكذا دعامة فهو لا يعدو أن يكون سفاحاً. بيد أن بعداً آخر للمسألة لما يزل أمامنا. فكثير من بني البشر قد أحسنوا تكيفاً للمجتمع الذين هم فيه وقبلوا العالم كما وجدوه، ونمط حياتهم ليس بحاجة الا للنزر اليسير من ذلك التكيف. وهم لا يجدون في البحث في احتماليات الحياة ضالتهم فانتسبوا لذلك لصف الأغبياء والمتوحشين من بني الأرض.

لقد ترعرع راسبوتين وسط أمثال ذلك الجمع من الناس ووجد في فيرخوتر وحياً له، حتى غدا بين عشية وضحاها « امكانياً » ومعه أضحى هذا الرفض المبهم سؤالاً ملحاً كان فاتحة رغبة عارمة لسلخ كامل الشخصيه القديمة.

بيد أن كثيراً من تلك الشخصية ما انفكت تلازمه بعد مكوثه الأول في فيرخوتر. اذ سرعان ما تورط مع الشرطة نتيجة اختفاء أحد جياد العربة التي يعمل عليها بعد مغادرته الدير بوقت قصير. وأثناء التحقيق وجدت الشرطة لديه بعد التفتيش واحداً وعشرين روبلاً وهو مبلغ كبير ليافع في سن السادس عشرة. لقد أوضح راسبوتين الأمر للشرطة بقوله أن المال الذي بحوزته هو هدية الدير اليه وأن الجواد قد فلت من طُوله[1] ليلاً وانزلق في نهر عميق وغرق. فاعفي من التهمة المنسوبة اليه لعدم كفاية الادلة.

لكن الحظ غادره في واقعة تالية عندما سرقوا من عربته حمل فراء وادعى ان قطاع طرق هاجموه وسرقوا منه الفراء، حتى تجلى بعد التحقيق أن السرقة تمت عندما ترك راسبوتين عربته في فترة القيلولة. وعليه حكموه بالجلد والحبس فترة قصيرة. كان هذا في مدينة توبولسك في الرابع عشر من شباط عام ١٨٩١.

(١) الطُول: حبل يشد الى وتد ويطول للدابة فترعى مقيدة به.

حضر راسبوتين لما بلغ التاسع عشرة احتفالاً دينياً في دير (ابالاكسك) قرب بوكروفسكو. فهو ممن يستمتعون بالاحتفالات الدينية وأمضى طيلة حياته محباً للرقص والغناء. وقد روى زواره في شارع بطرسبورغ أيام نفوذه أنه كان يسرح أثناء حديثه في الدين وفجأة ينطلق بالغناء ويعدها بالرقص. وربما التقى راسبوتين (براسكوفي فيدوروفنا دوبروفين) عندما كان يرقص في دير (ابالاكسك). وبراسكوفي فتاة من القرية المجاورة شقراء ونحيفة القوام وكانت تكبره بأربع سنوات. ويرى أحد الكتاب أن راسبوتين قرر الزواج منها لأنها رفضت أن تهبه نفسها وهذا رأي لا ينسجم وشخصية راسبوتين. أما الاحتمال الأوفر حظاً فهو أن شخصية الفتاة كانت نقيضاً تاماً لشخصيته فوجد فيها الزوجة المثالية. وعلى العموم، تتصف فتيات الريف الروسي بالبدانة والسمرة، أما هي فكانت شقراء ونحيفة القوام وشديدة الاعجاب بزوجها وذات شخصية طيعة. وسواء أكانت قد وهبت نفسها له- وعلى الأغلب أنها فعلت ذلك- أم لا، فقد أحس راسبوتين أنها ليست من اللاتي يسهل هجرهن فتزوجها عام ١٨٩٠- في أرجح تقدير-.

لم يضف الزواج بادىء الأمر شيئاً جديداً على شخصية راسبوتين فيما أتاح له عمله كسائق عربة الالتقاء بكثير من فتيات القرية. كما بدأ يمضي وقتاً أطول في شرب الخمر بصحبة اثنين من أقرب أصدقائه وهما (بيجركين) وآخر يسمى يدعى (بارناباي) الذي أصبح فيما بعد وبفضل نفوذ راسبوتين اسقفاً لتوبولسك. لم يكن راسبوتين مدمناً على الخمر، لكن حيويته المفرطة كانت بحاجة لنوع من التعبير الذاتي. لقد تقبلت زوجته مغامراته النسائية باستسلام وطواعية وهو قبول قد يعزى سببه يقينها العميق أنه لن يهجرها لامرأة أخرى. فهي سيدة بيت رائعة استطاعت، بزمن قياسي، ادارة شؤون المزرعة بمساعدة والده الذي سر ناظريه

وجود امرأة في المنزل مرة أخرى سيما وانه عجل في الشيب والرفط في الشرب.

شهدت أواخر عام ١٨٩٠ حدثاً غير مجرى حياة راسبوتين. فقد أصبح أباً لطفل سماه له ووهبه حنانه الابوي أنّى استطاع ذلك. غير أن الرضيع مات بعد شهره السادس تاركاً الأب مكسر الجوانح ومحطم القلب. لقد عاش راسبوتين مأساة الفراق مسبقاً، لكنه لم يتذوق آنذاك المرارة التي تذوقها مع رحيل نجله لأنها جاءت وببساطة في خاتمة طفولة سعيدة. كان وقع هذه الرزية أثقل وطأة ارغمته أن يتخبط في مصير قد يكون مجهولاً كمصير والده، وراح يتساءل ان كان الحدث إيماءة الهية (وما يجعلنا نقول هكذا أنه قرر الذهاب فوراً الى الناسك ماكاري ليسأله عن معنى الموت) فأهداه الكاهن الطمأنينة وأعاده الى بيته. بيد أن القلق ما برح يلازمه وأمضى ذلك الشتاء برده منكباً على قراءة المخطوطات المقدسة وشرع يصلي راكعاً على ركبتيه ساعات طوال. ها هنا أدرك القرويون شخصيته الجديدة وغالباً ما تحدثوا اليه حول زياراته للدير. من هنا نال سمعة (الباحث عن الرب) وهو ما أثار حفيظة قس القرية (الاب بيتر) سيما وأن الناس قد أخذوا يتجمعون حول بيته وشرع يتلوا عليهم المخطوطات المقدسة فخاله القس أنه يبتدع سبيلاً جديدة للخطيئة. لقد خبر القس راسبوتين منذ سنوات عديدة كان يراه فيها ناقماً وماجناً وأي شيء سيفعله ذكر (فيرخوتور) ليغير من كاثوليكية القس حياله، فهي ليست سوى معقلاً للخليسة التي لا تخلو شعائرها مما كان شائعاً آنذاك، من اللهو والعربدة الجنسية. وهذا شك يعني أن راسبوتين لن يتخذ الدين إلا مسلكاً لاغواء بنات القرية. غير ان الأب بيتر لم يحرك- برغم ذلك- ساكناً. ثم حدث في ربيع تلك السنة شيء عجيب، لقد رأى راسبوتين وهو يحرث أرضه صورة العذراء معلقة في السماء، وتومي اليه بيدها، فوضع صليباً حيث رآها ورجع يخبر أهله بما رأى، وقال انها لم تكن ترتدي الملابس

التي اعتاد أن يراها عليها في الايقونات واحس أنها كانت تحاول الحديث اليه. لقد ترك الحديث في زوجته أثراً فيما لم يكن له وقع على أبيه الذي قال (ان غريغوري بات رحالاً في سبيل الله بفضل كسله)، فقرر راسبوتين الذهاب واستشارة ماكاري ثانية.

لم يكن جوهر الموضوع تلك الرؤيا التي قد تكون مجرد هلوسة، فهو قد قضى الشتاء بطوله يصلي وينهل من الدين ثقافة وهو رجل قوي الاعصاب عظيم الطاقة وذو قدرة على أن يخلق المتعة لمن أراد أو أن يحيل الجو حزناً متى شاء. لقد أغاظه نهجه في الحياة فشعر بالحاجة للانقلاب الجذري وهكذا بدأ يبحث عن حجة ليهجر بيته. كما آمن أيضاً أن الرؤيا، برغم شكوكيتنا حول صحتها او انها حيلة اصطاده فيها عقله اللاواعي، هي ايماءة من السماء. ويبدو أن الكاهن ماكاري شاطره الرأي اذ أخبره «أن الرب قد اختارك لهدف جليل فاذهب وصلي للعذراء في دير (آفون) لتشد من عزم قواك الروحية». عاد راسبوتين ليخبر زوجته أنه قرر السفر في حج.

هكذا بدأ راسبوتين في يوم ما من عام ١٨٩١ بصحبة صديقه (بيجركين) رحلة الالفي ميل صوب اليونان، وفيها ارتدى كلاهما ملابس الحج وكانا يطرقان أبواب أكواخ الفلاحين ليلاً يسألان عن ركن في فناء الكوخ يسلخا الليل فيه وظلا هكذا لثلاثة أشهر في أقل تقدير- وهي فترة الرحلة-. كان انطباع راسبوتين الاول عن جبل (آثوس) باعثاً للأمل وكانت المجموعة التي تقطن دير (آفون) من أقدم المجاميع الزهدية في اوروبا وقانونها شديد القسوة وهذا ما حدا بصديقه بيجركين أن يغتدو متصوفاً في الحال. فيما أسعفت راسبوتين تجربته في دير فيرخوتور فكان أكثر حيطة من رفيقيه. لقد خدمه حذره، اذ سرعان ما اكتشف فضيحة أخلاقية داخل الدير قلبت واقع الحال لديه عاليه سافله كانت

تتعلق- في أغلب الظن- بعلاقات لوطية بين الرهبان طالما أن النساء محرم عليهن دخول جبل آثوس. وعليه قرر راسبوتين وقد قطع صوب الجنوب دهراً أن يتجه الى الأرض المقدسة التي ينطوي الوصول اليها ركوب رحلة لا تقل مسافتها عن الف ميل عبر الاراضي التركية.

لم تقع بين ايدينا لشديد الاسف تفاصيل اولى زياراته لسوريا والاردن. لكن زيارة لاحقة له عام ١٩١٢ تركت لنا العديد من الملاحظات تنجلي من خلالها بصمات زيارة الحج عليه. لقد كتب راسبوتين:-

يا لوقع كالكوتا. في معبد القيامة تشمخ ملكة النعيم وثمة صرح أجوف تطلعت منه والدة الرب صوب تل كلكوثا تذرف الدموع حين سمّروا مليكنا على الصليب. وانك اذا نظرت الى الموقع لأمطرت عيناك دموعاً وكأن المشهد أبداً يدور أمام ناظريك تارة أخرى.

يا رب! اي صنيع قد اقترفوا! لقد نهبوا جسده وألقوه أرضاً. أي حزن ستشعر وأي عويل تسمع وأنت في المكان الذي أنزلوا عليه الجسد. يا الهي... لم حدث الذي حدث؟ لقد كان في عذابك خلاصاً لنا فهل جئتنا من الاثم المزيد!

كتب راسبوتين تلك الملاحظات وهو يدرك ما كتب وقد عثر عليها بعد رحيله، وهي ملاحظات واقعية تماماً لا يشوبها اي تزويق وهي دلالة ايضاً أن راسبوتين وبرغم حدة ذكائه وقوة أعصابه ليس الا قروياً عادياً مؤمناً بالخرافات وذا قدرة على التعبير (لقد هبطت الرحمة الالهية على عمود فقدم اليه تركي وبصق عليه وعضه بأسنانه فاذا به لاصقاً على العمود فجعل منه الرب آية للعالمين أن هذا عاقبة الكافرين).

عاد راسبوتين أدراجه لقريته ومارا في طريق العودة بـ (كازان) حيث شاهد في كاتدرائيتها صورة العذراء مرتدية الملابس ذاتها التي رآها فيها في الرؤيا فظن بها أن الحج كانت مطلب السماء منه. (لقد أهدته زوجة القيصر فيما بعد ايقونة لعذراء كازان ليحتفي دوماً بذكرى الرؤيا).

استغرقت رحلة راسبوتين أكثر من سنتين تغيرت فيها ملامحه كثيراً لدرجة أن فشلت حتى زوجته في التعرف اليه أول وهلة. كما قرر راسبوتين أن يفاجأها بأن تظاهر أنه تاجر جوال، غير أن عينيه وصوته فضحا سره. عمّ خبر وصوله القرية فخرج أهليها للحديث الى (الحاج) الذي بدا أن رحلاته في الأرض المقدسة قد أكسبته شذى القداسة. اذ قطع في غضون سنتين أكثر من عشرة آلاف ميل وهو أمر لم يعتاده سكان القرية الذين ما غادروا حدود قريتهم قط. انهم لمسوا فيه تغييرا هذا. لقد كان دوماً مسموعاً في حديثه وذا هبة أن يجعل في أدائه صدى. أما الآن فقد كسبت عيناه نظرة ثاقبة زرعت في الناس الريبة أنه انما يقرأ دواخلهم. وقد أكد تلك الحقيقة كل من النقاد، فيما ذكرت ابنته أن أباها كان قادراً أن يبعث الحزن أو الغبطة عند المقابل أنى شاء ذلك. ليس هذا فحسب بل انه اكتشف في ذاته قدرة على التنويم المغناطيسي بجانب القدرة على الفراسة وهما خصلتان مضافتان حدثتا، مع باقي خصاله الاخرى، بغلامي قريته أن يكونوا أول تابعيه لانه- اولاً وقبل كل شيء- قد نشأ وترعرع بينهم وهم الأدرى بمغامراته الجنسية وفترته التي أمضاها في السجن.

لم يزاول راسبوتين الزراعة بعد عودته الثانية وأقام له بدلاً من ذلك مصلى وأخذ يصلي على ركبتيه لساعات طوال يومياً، لكنه لم يصبح راهباً بمعنى الرهبنة الحقيقي. وأثناء غيابه، أنجبت له زوجته طفلاً (عانى من نوبات صرع) وهي حامل الآن بابنته الكبرى (ماريا) ثم أنجبت له بعد سنتين ابنة اخرى.

شرع راسبوتين بعقد جلسات الصلاة في منزله ما ان يخيم الظلام وقد سمع الأب بيتر بهذا الأمر فتنامت شكوكه حول خليستية راسبوتين. فهو لم يجد لمباس القرويين مبرراً. بيد أن حضور جلساته ضم الرجال والنساء وهو ما قطع دابر الشك أن راسبوتين كان يستوظف سمعته كرجل دين لاغواء النساء. إلا أن حضور الرجال كان يعني أيضاً أن الجميع قد اشترك في شعائر اللهو والعربدة سرياً على المذهب الخليستي، وعليه تقدم الاب بيتر بشكوى لأسقف توبولسك مدعياً فيها أن راسبوتين هو أحد أعضاء الخليستية.

الانشقاق الروسي:-

التقى راسبوتين خلال ترحاله في ربوع روسيا بطوائف هرطقية (بدعية) ذات أصول روسية. وعليه فان من الأهمية بمكان الحديث عنها لفهم روسيا راسبوتين وكذلك روسيا آخر القياصرة.

كنت قد ذكرت في غير هذا الموضع أن الفلاح الروسي لم يكن بالفطرة دينياً، غير أنه لحديث دستوفسكي عن (علاقة الرب بالانسان الروسي) الذي هو مجرد تفكير تأملي. كان هذا واقع الحال حتى القرن السابع عشر حين أشعل البطريرك (نيكون) فتيل التعصب النائم في الشخصية الروسية ومفتتحاً بذلك بداية تاريخ الانشقاق الروسي الذي لم تكن نتيجته حركة دينية كحركتي (الكويكرز او الصحابيون) و (الشيوعيون او المنهجيون)، بل انه أسفر عن حركة اقرب في مقارنتها الى حركة جمهورية ايرلندا التي تراكمت في سني اراقة الدماء والفوضى في عشرينات هذا القرن.

كان (نيكون مورودوف) فلاحاً كراسبوتين تحول الى رجل دين عقب وفاة أولاده الثلاثة وتعرف الى القيصر (الكسي) أثناء زيارته لموسكو عام ١٦٤٥، ثم

بات الرجل الأول والأقوى في الدولة الروسية. وعين بطريركاً عام ١٦٥٢ وعمل أثناء انشغال القيصر بحروب خارجية كوصي على العرش وحكم روسيا.

تميز نيكون بتعصبه وجبروته وقرر اجراء اصلاحات عديدة بالقوة على الكنيسة الروسية التي عانت آنذاك من الاهمال والتي كان لقسها بين الجموع مكاناً متردياً أعطى لسكان القرية الحق أن يأمروه بما شاءوا. وعليه عامل نيكون القسة بقلب غليظ وطلب منهم التبجيل له وطاعته واذا ما ظن أنهم أهملوا في واجباتهم أمر بتعذيبهم وسجنهم. كما قرر إعادة النظر في خدمة الكنيسة الروسية وفي كتاب صلاتها وكان هذا مجرد سفاهة، نذكر منها أنه أمر بتغيير طفيف في تهجئة (المسيح) وأصدر مرسوماً يقضي بإشارة المؤمنين بالصليب على صدورهم بثلاثة أصابع بدلاً من اصبعين، بالاضافة الى تغييرات عشوائية اخرى في كتب الصلاة بأن غير كلمة (المعبد) الى (كنيسة) والعكس صحيح.

لم تكن التغييرات التي اقترحها سبباً لولادة المقاومة الكبرى ضده، بل لأنهم مقتوا أن يستأسد عليهم من كان يوماً غبية. وقد أطلق المعارضون له على أنفسهم لقب (المؤمنون القدامى). وبعد اثني عشر عاماً، فقد نيكون وبسبب سطوته تلك تقدير القيصر له والذي استدعى (افاكيوم)- ألد أعداء نيكون- من منفاه في سيبريا ليأخذ مكانه. إلا أن مكسباً لم يصب المؤمنون القدامى من هذا التغيير فاستمر الصراع تتفاقم مآسيه بقية سنوات القرن وانتحر كثير من المؤمنين القدامى كان انتحار بعضهم في أحايين معينة جماعياً برمي أنفسهم في أتون نار سعيرة (ويمثل هذا المشهد تنتهي اوبرا «ميسورجسكي» المسماة «فانتشينا»).

تمخض عن هذا الصراع الدامي نزوات عنيفة لم تكن بالضرورة نزوات دينية. لقد تداخل حابل الدين بنابل السياسة في روسيا، فباتت أقرب الى

انجلترا تلك الحقبة. ومع هذا ما زال الموت والاعدام الجماعيين والقسوة الشديدة جاثمة على صدر روسيا ولدت معها معتقدات لم تكن موجودة في سابق عهدها. من هنا باتت الأرض الروسية بلاداً يشكل فيها الدين قضية أساسية وذات شكل واحد من المسيحية في الوقت عينه الذي كانت فيه الارثوذوكسية اليونانية القديمة هي الشائعة. واذن، فقد ولد الانشقاق في الكنيسة الروسية أثراً لا يقل بشيء عن أثر الاصلاح في اوروبا، وظهرت بين عشية وضحاها طوائف كانت من بينها طائفتان شديدتي الارتباط ببعضهما البعض وهما الخليستية والسكرتيزية أو (المتسوطون) و (المشوهون).

لقد شيع أن الخليستية قد نشأت قبل عام ١٣٦٣ بوقت طويل، وهذا احتمال قائم. لكن الانشقاق الكنسي الجديد قد أعطاها زخماً شديداً. وثمة نقاط شبه بينها وبين الطائفة المانوية[1] القديمة التي تقسم العالم الى قسمين هما الروح والجسد، وتؤمن أن الروح هي الخير وأن الجسد يمثل منبع الشر. إلا أن أكثر خصائصها أهمية اعتقادها أن المسيح يبقى يعود الى الأرض كانسان وهي تفهم (بعث المسيح) أن يبقى جسد المسيح في لحده بينما تسكن روحه جسداً آخر وتظل تنتقل من جسد لآخر على مدى القرون. وكان (افيرزهان) واحداً من اولئك (المسيح) الذين عادوا للأرض وقد صلبه (ديمتري دوفسكوي) في ساحة معركة كوليكوفو[2] عام ١٣٨٠. أما (المسيح) الآخر فكان (يميلجان) الذي قاسى العذاب تحت سطوة (ايفان المرعب) استناداً الى ما جاء في كتاب (كارل جراس) الموسوم بـ (الطوائف الروسية). لكن أهم (مسيح) جاء هو (دانيال فيليوف) الذي كان لدّ نيكون، فهو فلاح من قرية كوستموزا، ترك الجيش وساند قضية (المؤمنون

(١) المانوية: طائفة دينية أسسها (ماني) الفارسي (٢٢١٦ - ٢٢٧٦ ب. م) وهي تدعو الى الايمان بعقيدة وثنية قوامها الصراع بين النور والظلام.
(٢) معركة كوليكوفو: هي معركة هاستنجز والتي هزم فيها ديمتري المغوليين.

القدامى). وهبطت عليه أحد الايام «روح الله» عندما كان واقفاً على تل (كولودينا) في (فولوست ستاروديوب) في (فلاديمير) على هيئة الاله (زيباتوث) برفقة موكب ملائكي ودخل جسد فيلويوف. تطلق الخليستية على ذلك بـ (الحلول الثاني) وتؤرخه بعام ١٦٤٥ (وهذا، استناداً الى فردريك كونيبير)، يتناقض والاعتقاد أن دانيال كان أحد (المؤمنون القدامى)).

استهل دانيال دعواته التبشيرية في قرية (ستارايا) التي لها في الموروث الخليستي أهمية لا تقل عن منزلة (المدينة) في الدين المحمدي[1]. ثم انتقل الى كوستروما التي هي (مكة) الخليستية. وهناك أخرج انجيله الموسوم بـ(كتاب دوف) الذي يوعظ فيه أن الزواج وشرب الخمر والقسم محرمات على الرجال وأن عليهم البحث وراء الشهادة. فاذا كان من بين أتباعه متزوجاً فعليه أن يهجر زوجته وأن يسمي أطفاله (ذنوباً) وأحل له أن يتخذ بدلاً عنها (زوجة روحية) عضواً في الطائفة الخليستية أي زوجة ينام معها على نفس فراش زوجته السابقة دون أن تكون بينهما علاقة جنسية.

يبدو واضحاً التشابه الموجود بين هذه الطائفة مع الطائفتين الهندوسية والمانوية. فهي تؤمن كالهندوسية بالتجسيد المستمر للرب او في (الفارناس) وتؤمن كالمانوية أن الجسد منبع الشر (يعد المانويون جرائم القتل او الانتحار غير قانونية، لكنهم يعتبرون ايضاً من أصابه منهم مرض محظوظاً فيحاولوا عندئذ مساعدته بالتجويع والاهمال).

إن أكثر القصص تردداً عند الخليستية هي تلك المتعلقة بطرائقهم في

(١) الدين المحمدي: هكذا أوردها المؤلف برغم معرفته انه ليس في الاسلام عبارة (الدين المحمدي).

التعبيد. فهي تقام بسرية تامة وفيها يرتدي المحتفلون ملابس بيضاء ويرقصون حول شعلة نار او حوض ماء متشحين بترانيلهم. وقد قال يوسيوف في شعائرهم:-

«يبلغ افراد هذه الطائفة التجمع الالهي عبر أكثر الطقوس وحشية. فهي ليست سوى مزيج غير سوي من مبادىء الدين المسيحي مع الشعائر الوثنية والخرافات البدائية. وتجتمع جماعة المؤمنين منهم ليلاً في كوخ او في غابة خالية الاشجار تضاء بمئات الشموع. أما هدف هذه (الراديني) او المناسك فهو خلق نشوة دينية واهتياج جنسي. ثم تشكل جماعة المؤمنين بعد الانتهاء من قراءة الابتهال الديني والتراتيل حلقة ما ويأخذون بالتهايل وفق ايقاع معين ثم يدورون ويدورون بسرعة متزايدة. ويحق لسيد هذه المراسيم جلد كل راقص يضعف نشاطه من أجل(خلق حالة من الشعور بالدوار الضروري لحدوث (التدفق الالهي). وتنتهي (الراديني) بطقوس عربيدة شنيعة.. . فالجميع يتلوى على الأرض في حالة نشوة او تشنج مبشرين ان من تملكه الروح لا يملك نفسه بل هو ينتسب الى تلك الروح المهيمنة عليه والمسؤولة عن كل صنيع فعله او اثم اقترفه. وأخيراً يختتم المجتمعون شعائرهم باطفاء الشموع ويتجامع العباد بطريقة غالباً ما تكون نتيجتها- وفق لما أورده أحد الكتاب- سفاح القربى»

لا يحق لنا الأخذ بهذا التعليق برغم المتعة التي يحملها، فتلك أمور تحدث استثناءً لكنها ليست بالقاعدة. أما وصف (كونيبير) فأقل اثارة من سابقه:-

«يرقص المحتفلون حول حوض ماء (يبدأ بالغليان ويتصاعد منه بخار ذهبي)، ويجلد المحتفلون بعضهم بعضاً بينما يرددون تراتيلهم ويطلق أغلبهم زعقات يفترضونها (الروح المقدسة). ويطوس بعضهم ليعلن أن عدداً (غراباً

اسـود» أو أمـاً وطفلاً سيتصاعدان من بخار الحوض. وأخيراً ينهار الجمع بعد أن يستنزف أفراده طاقاتهم ثم يخلدوا للنوم ساعات طوال. وهذه الطقوس غالباً ما تفضي الى اللـهـو المعربد بحلول الظلام». وهكذا تستذكر (وليام سرجنت) وشرحه في كتابه (معركة من أجل العقل) بطقوس للطوائف الحديثة الخاصة بمعالجة الأفعى في امريكا الجنوبية حين قال:

«يتجلى هبوط الشيخ المقدس في تلك الاجتماعات المحظور على البيض حضورها بحدوث الاثارة المسعورة والارتعاشات الجسدية ثم الارهاق النهائي فالانهيار. وتستحث مثل هذه الحالات الهستيرية عن طريق الغناء الايقاعي والتصفيق اليدوي والامساك بثعابين سامة حقيقة... ويبلغ العديد من الزوار- على نحو غير متوقع- حالة الانهيار والانقلاب الداخلي. ويحضر بين الجمع شاب يافع له هدف مبيت هو اغواء فتيات ثم (انقاذهن) تواً. والحقيقة هي أن الكبت المتحفظ يفضي الى انكسار في الشخصية السوية تاركاً العقل عرضة لأنماط جديدة في السلوكية. وتحوي الطائفة الخليستية دون ريب كماً هائلاً من مثل هذه الاشياء».

لو اتفقنا الرأي أن الخليستية ترجع في نشأتها الى بواكير القرن الرابع عشر فهي اذاً فرع من صوفية فوضوية تطورت في المانيا خلال النصف الأخير من القرون الوسطى، والتي هي في الأساس ثورة ضد عقلانية وزهد الكنيسة. ويطلق أتباعها على أنفسهم اسم (اخوان الروح الحرة) ويبشروا ان كل انسان هو (الله) وأن كل حافز عنيف هو (وحي). فاذا ما تجامع رجل وامرأة في مذبح فهما ساجدان لله كما لو انهما يصليان أو يأخذان (القربان المقدس). لقد أكلت روما قرنين من الزمن لقمع هذه العقيدة أن لجأت الى القتل والتعذيب لأتباعها وربما ترشحت أصولها عندئذ الى البلاد الروسية لأن في الشخصية الروسية حافزاً

صوفياً عنيفاً.

أما (السكوبتزية) فهي تطور عن الخليستية وحري بنا الحديث عنها الآن لاكمال خلفية صورة الانشقاق الديني الروسي. لقد حكمت الخليستية على (مسيحية) الانسان على أساس قدرته على تحمل الألم الجسدي. فقد صلب دانيال فيليبوف مرتين (استناداً الى موروثها التقليدي)، فيما صلبوا ابنه وخليفته (ايفان سوسلوف) ثلاث مرات (سواء بأمر اليكسز أو بأمر بطرس الكبير). وعذبوه بالحديد الحار حتى سلخوا منه جلده (نجحت هذه المرة عذراء في حل جلده وسلمته اياه بعد قيامه من صلبه المرة الثالثة). توفي فيليبوف سنة ١٧٠٠ وصعد جسده نحو السماء. أما سوسلوف الذي حمل لواء دعوة سلفه الى موسكو وأقام حقه هناك بأن رفض البقاء ميتاً، فقد توفي بعد ثلاثة أعوام.

عرفت الخليستية بعد سبعين سنة سيدة جليلة تدعى (اكولينا ايفانوفنا) والمعرفة باسم (أم الاله). أدركت هذه السيدة أن (المسيحية) تتوسم في رجل اسمه (ايفانوف) ويحمل باسم (كوندراتي سيليفانوف) وبات هو مؤسس السكوبتزية. لقد ذهب سيليفانوف في تنسكه أبعد من الخليستية كثيراً معلناً أن على الرجال تخصية أنفسهم وعلى النساء قطع نهودهن (ان استطعن تحمل ذلك) وتشويه أعضاءهن التناسلية. فأخصى نفسه بالحديد الحار في بواكير عقده الخامس أي بعد وقت قصير من اعتراف (أم الاله) به (ابنها الروحي). ثم ادعى أنه قد أخصى نفسه وعمره اربعة عشر عاماً وهو ادعاء رفضه حتى أتباعه... في ذلك الوقت كان من يتربع على عرش روسيا (كاترين العظيمة) التي قتلت أو تآمرت على قتل زوجها (بيتر الثالث) وهذا ما أوقعها في مأزق كبير. اذ ادعى سيليفانوف انه بيتر الثالث تلاه (بوكاشيف) ولم يفصله عن النجاح في تمرده إلا خيطاً رفيعاً أوقعه في الأسر واقتادوه الى موسكو حيث نفذوا فيه حكم الاعدام

بوحشية بالغة بعد أن قطعوا أطرافه الأربعة وقسموا جسده حياً[1]. وأخيراً نجح مغامر صربي سنة ١٧٦٨ في أن يجعل من نفسه بيتر الثالث وتولى حكم امارة (مونتنغرو) المعروفة الآن باسم يوغسلافيا.

لا يبدو أن ادعاء سيليفانوف انه بيتر الثالث قد آلت الى ارتداد عنيف فاكتفوا به سجيناً ووضعوه في مصحة عقلية حتى أطلق (الكسندر الاول) بتربعه العرش سراحه عام ١٨٠١ بعد أن كون (أي سيليفانوف) لنفسه من رجال المال والنفوذ جمعاً غفيراً أحضروه أن يعلن دينه جهاراً. كما ألف سيليفانوف كتابه (الرغبة) الذي تلقفه القراء دون أناة، وأخصى بيديه مئات البالغين وهنا وفي هذا الوقت تحديداً غير اسمه من (ايفانوف) الى (سيليفانوف). وواصل بعدها ادعاءه أنه بيتر الثالث وحمل أتباعه عملة نقش عليها صورة الملك (قد تشبه صورة سيليفانوف) واحتفظ الكثيرون بصورة الأمير لظنهم اياها أيقونة فالقوا صلاتهم أمامها. توفي سيليفانوف سنة ١٨٣٠ عن عمر تجاوز المائة عام وبعد أن قضى سنواته العشر الأخيرة معتقلاً في دير (سوزداك) دون أن يحد ذلك من أتباعه الذين اتخذوا من الدير مكاناً يحجون اليه. لقد آمن أتباعه الذين بقي منهم الالاف بمجيء ثورة اكتوبر أنه سيقوم ثانية بجوار (ايركتسك) حيث بلغ عدد تابعيه نحواً من (١٤٤٠٠٠) شخص ليفتتح بقيامه يوم القيامة. هذا العدد يتولى بجمعه نساء ورجال أما الطفل الذي ولد لهذه الطائفة فينشأ وهو يعلم مسبقاً أنه سيخصى ببلوغه سن الرشد وأن مصير من يحاول الهرب هو القتل. وقطع العضو التناسلي للنساء ليس اجبارياً - كما ورد ذلك على لسان (كوينتر)- وقد يكتفى بازالة الحلمة فقط.

(١) روى (بوشكين) قصة هذا التمرد ووصفها أيضاً في روايته القصيرة (ابنة الكابتن) علق فيها حربة العقاب لشاعة ووحشية بوكاشيف وتابعيه اللذين كثيراً ما علقوا عوائل مالكي الأرض حتى الموت.

اورد (ماشفوريل) في روايته (رحلة رومانية) حدثاً مثالياً عن السكوبتزية وقع في العام ١٨٦٨ في مدينة تومبوف ويتعلق بتاجر ثري من مدينة (مورشانسك) اسمه (بلوتستاين). (كان الاعتقاد السائد آنذاك لدى الأغلبية أن سيليفانوف ما زال حياً برغم مرور (٣٨) سنة على وفاته). ألقت الشرطة القبض على بعض خدم بولتستاين لعدم دفعهم الضرائب. لكن سيدهم لم يألوا جهداً لاطلاق سراحهم وهو ما أثار شكوكية الشرطة التي طلبت تفتيش منزله. وفيه وجدوا مستعمرة ضمت ما يربو على أربعين سكوبتزياً وصفت معظمهم بـ (الفتيات الفاتنات). فيما غلبت الليونة الرجال الذين بدوا لاجسادهم وركاً كورك النساء. ولا تتميز نساؤهم اللواتي أجرين العملية عن رجالهم. لقد حاكمت الشرطة الجميع وأرسلتهم معتقلين الى سيبيريا.

قد يستشف القارىء أول وهلة أن السكوبتزية ظاهرة الليل من تهم المزيدات الجنسية التي أخذت عليها. بيد أن الحقيقة ليست فيما يشاع من قول. فالنساء شوهن أعضاءهن التناسلية بشكل ظاهري جعل منهن بعدئذ بائعات هوى يحصلن مقابل هذا الكنز المشاع على المال الوفير. وأجرى كثير من الرجال عملية التخصية بأنفسهم على أنفسهم وأوقفوا قبل تمامها. ويعرف أعضاء هذه المجموعة باسم (الختم الادنى) تمييزاً لهم عن أعضاء الفئة الأخرى من السكوبتزية التامة الخصي والمعروفين باسم (الختم الأعظم). وهكذا أمسى الاحتيال قائماً بضلوع السكوبتزية في العربدة الجنسية[1]؟!

ليست الخليستية والسكوبتزية بالطائفتين الوحيدتين الغريبتين اللتين التقاهما راسبوتين خلال رحلاته في ربوع روسيا. فثمة طائفة أخرى هي (المداهيون او

(١) جاء هذا في كتاب (النار المقدسة) لمؤلفه (ب. ز كولدبيرج)- مطبوعات الكتب الجامعية: نيويورك.

التكلر) وفيها يدغدغ الرجال النساء بهدف احداث نشوة دينية قد تسبب أحياناً حالة اجهاد قصوى تنتهي بالموت. ويعد من مات في حال كهذا محظوظاً لأنه بلغ (الخلاص). وهنا يذكر (ب. ز. كولدبيرج) العديد من الطوائف التي تفشت فيها حالات الانتحار والتي يبدو أنها ذات صلة بالسكوبتزية. فقد أسس- إبان حكم الكسندر الثاني- (شودكين) فرقة مماثلة وقاد أتباعه الى كهف حيث بدأوا عملية التشويه. فأصاب الذعر امرأتين وانهارتا قبل اتمام العملية، بعدها نادى شودكين على أتباعه أن يقتل أحدهما الآخر قبل وصول الشرطة. بدأوا بقتل الاطفال أولاً ثم النساء ولم تجد الشرطة حين وصولها سوى شودكين واثنين من أتباعه أحياء. قد تبدو هذه الاقاصيص متناقضة والرأي المزعوم أن الروسي غير متدين بالفطرة. لكنها في واقع الأمر ليست سوى واحدة من المفارقات التي تزخر بها الشخصية الروسية.

ولا يبدو أن الفلاح الروسي الذي جسده (تشيخوف وكوركي وسولوكب) بقادر على الايمان العميق- شأنه في هذا شأن الفلاح النورمندي[1] الذي جسده (موباسان)[2] حتى ليتساءل المرء أن جميع دوافعهم قد ملكتها المادة. وهذا هو السبب الذي يكمن وراء تصديقهم بالمذاهب المتطرفة. فروحيتهم

(١) نورمان Normands: أهل الشمال، اسم اطلق على غزاة الفيكنغ القادمين بالبحر من سكاندينافيا والذين تدفقوا على اوروبا منذ القرن الثامن. احتل منهم السويديون وادي دنيبر وسمولنك وكييف. بلغوا القسطنطينية في القرن التاسع. استعمر النرويجيون شمال اسكتلندا وايرلندا. واستقر الداناركيون في شمال شرق انجلترا. ثم انتظموا على شكل عصابات من القراصنة وشكلوا اساطيل مبعثرة من زوارق كبيرة. تسللوا من مداخل الأنهر الى مملكة الافرنج. وبموجب معاهدة ٩١١ تخلى لهم (شارل الثالث) من المقاطعة التي حملت اسمهم (نورماندا) في شمال غربي فرنسا على الاطلسي. اعتنقوا المسيحية واعترفوا بسلطة شارل الثالث ثم فتحوا انجلترا في القرن الحادي عشر.

(٢) موباسان (غي دو) Maupassant: (١٨٥٠ - ١٨٩٣٠). أديب فرنسي له روايات واقعية تصف حياة القرويين منها (كرة الشحم) و (الآنسة فيفي).

ليست سوى رد فعل عنيف لضيق أفق حياتهم.

وراسبوتين واحد من هذه المفارقات. فاعتقاده الديني كان كاملاً ومخلصاً ومع هذا نجد روحيته تتناقض مع الروحية الروسية التقليدية. فهي لا تملك النشوة للاستسلام ولا الرغبة الجارفة للاستشهاد والتي كانت آنذاك الفكرة السائدة لدى القديس الروسي بدءاً من ثيودوسيوز. لقد آمن بمملكة الروح تمام الايمان لكنه لم يهجر العالم وهذا أمر يصعب على الغربي فهمه لأنه يضع العالم والروح في مقصورتين مختلفتين. فهنا يقف (روبرت بيرنر) بينما يقف على الجانب الآخر القديس فرانسز من «اسيس» (في ايطاليا) يتوسطهما الغربي غير مصدق ان الاثنين سيحتلان جسداً واحداً. أما فهم راسبوتين فيستند شرطاً على الاعتراف انه يملك عناصر كلا الطرفين ولن يجد صعوبة في الجمع بينهما.

تعليق:-

قد تؤكد الملاحظات التالية التي اوردها (جوهانز تول) في كتابه (الموت الاسود) الافتراض ان الخليستية ربما نشأت عن « اخوان الروح الحرة »:-

تمثل الراحة النفسية الوضيعة، في الكنائس الفرنسية، المشاهد الجنسية. فنجد لوحة جصية في كاتدرائية (البي) تصور لوطيين في حالة اتصال جنسي. اذ كانت اللواطة منتشرة في أجزاء من ألمانيا ايضاً استناداً الى سجلات محاكمات (البيكراديين والبيكينيين) في القرن الرابع عشر لا سيما في اعترافات اخوان (جوهانز واليوت) من (بون) والمحفوظة في مخطوطات كريفسوالد. تشير هذه الاعترافات بالدليل القاطع الى أن طائفة (اخوان العقل الحر) لم تعتبر اللواطة اثماً

يعاقب عليه بتاتاً. فاذا ما رغب أحد الاخوان بممارسة اللواطة مع رجل آخر فلا حرج عليه من ذلك، بل هو لن يكون (اخاً) حقيقياً ان لم يفعل ذلك.

ونقرأ في مخطوطة (مشية) (نسبة الى عاصمة) :-

« عندما يذهب أفراد هذه الطائفة للاعتراف وسماع المواعظ، فان الواعظ سيختار من بينهم أجمل فتاة ويفعل فيها ما يشاء ثم تطفأ الأنوار ويقع بعضهم على بعض، رجل يختار رجلاً وامرأة تختار امرأة وكيفما اتفقوا. وتؤمن هذه الطائفة أن على الرجال أجمعين رؤية كيف تغتصب زوجته وابنته بأم عينيه لظنها أن لا أحد قادر على ارتكاب الاثم قبل أن يراه في خاصته.

وثمة مذاهب أخرى تبيح سفاح القربى حتى لو حدث ذلك في المذبح، وليس من حق أحد الاعتراض على حقيقة أن المسيح مارس الجنس، عندما قام من الموت، مع مريم المجدلية.... وكل ذلك أدلة على فساد وانحلال الأفكار والخلق الناجم عن البلايا العظيمة سيما تلك التي حدثت عام ١٣٤٨. (يؤكد التراث الروسي ان اول ظهور لطائفة الخليستية في روسيا كان في ذلك العام البغيض).

الفصل الثاني

«الجوال»

كانت دعوة (راسبوتين) ان الاثم ضروري للخلاص من أكثر القصص متداولة بين الكتب. هذه الدعوة نقلها ايضا (جورج سافا) في كتابه (راسبوتين يتحدث) الذي يقول فيه : «ان ما احدثكم به انما هو نقل صادق لكلمات تنمها شيخ راسبوتين :-

اعظم من تجسد فيه المسيح من اتباع الطائفة الخليستية هو (راديف) الذي اعترف قائلا:- «كنت مدركا تماما انني اخرق شريعة الإنسان بيد انني اعمل ما اوحاني به الإله، وعليه فإن من زنت معي من النساء لأشد إرضاء للرب من سواهن اللاتي قاومن اغرائي. لقد تجلى الرب في واخذ جسدي وهو الذي ارتكب خطيئة الجسد فهو إذن من سيغفر الذنب. وسيقبل الرب توبة من حط من شأنه عبر خطيئته وانا اذللت اولئك النسوة اللاتي ضحين بطهارتهن من اجلي حتى لا يتعالين بتفاهة عفتهن واي شيء يأتيك به الاثم سيجعل من العزة ذلة ومهانة».

اخذ راسبوتين استنادا الى قول سافا من هذا المبدأ مذهبا له :-

«قال القساوسة والرهبان تدفعهم غيرتهم على سلطانهم التي تدرعت

بالعبادة الإلهية لأقيم العربدة الشيطانية في الغابات. لقد اكدوا ان الفتيات (ومن شقيقاتي) قد استسلمن لغازلتي فأضرمن النيران من اغصان الأشجار ورقصن حولها متغنيات بالتراتيل. انه وقد بلغت في قولي هذا الحد اصابوا الحقيقة، بيد انهم تناسوا صرختي في الجمع من فوق ألسن النيران :-«انسحط خطاياكم من شأنكم اولم تجربوا اجسادكم وتقتلوا تباهيكم بما سيصيبكم من خزي؟».

ويبدو ان روح راسبوتين قد نست أن له شقيقة واحدة وانها غرقت قبل بلوغه سن الرشد.

ان الإنجيل الذي بشر به راسبوتين في قريته بوكروفسو كان وبلا ريب، اقل اثارة من هذا. فليس هناك من مصدر واقعي موثوق به يذكر ان راسبوتين ايد انقاذ الروح من خلال الخطيئة. ومن الواضح ان مخترع حكاية العربدات الجنسية هو قس القرية الأب بيتر الذي قدم شكوى لأسقف توبولسك وطلب من الشرطة التحقيق في اجتماعات راسبوتين للصلاة. وتأكد بعض ممثلي الأسقف، الذي اعجب بتقوى راسبوتين، من صحة الشكوى ووجدوا مبادىء ملحيه أحصن من أن يعلوها الشك. وشنت الشرطة ايضا غارتين مفاجئتين على اجتماعاته تلك ساعية الى مباغتة شعائر علينية لكنها عادت خائبة الظن -ربما لان رجل الشرطة الخاص بالقرية كان احد المعجبين براسبوتين وكان ينذره قبل ساعة الصفر.

لم يمكث راسبوتين في بوروفسكو اكثر من شهور قليلة في كل مرة يأتيها. وربما قضى فيها الشتاء بطوله ليحزم حقائبه ويشد ترحاله بحلول الربيع. لكننا لا نملك اية معلومات تفصيلية عما حدث في الأعوام بين سنة ١٨٩٤ (عندما قدم الأب بيتر شكواه) وسنة ١٩٠٠- سوى ولادة ابنه ديمتري في عام ١٨٩٥

وابنته ماريا عام ١٨٩٨ وابنته الأخرى فارفارا عام ١٩٠٠. استمر راسبوتين في طوافه ودعوته، وطرقت حكايات شهرته المتزايدة مسامع اهل بوكروفسكو. كما بزغ نجمه بملكته في التنبؤ وفراسة نأى بها من محاولات الآخرين لخداعه وقدرة على شفاء الناس من عللهم بوضع يديه على موطن الداء فحسب (سوف نستعرض قدرته هذه في فصل قادم). وعرف ايضا بكرمه فقد اهداه الكثيرون من اتباعه هدايا او نقودا او تحفا كان يمنحها في الحال للمحتاجين وكان يبعث بمال لأهل بيته في فترات منتظمة. لقد استعد الكثيرون لإعتباره قديسا، لكن الإشعاعات ما انفكت تدور حول قابلية (الستارتيز)على اغواء اتباعه من النساء، فلو طرقن بابه لسماع مواعظه لأصابهن الارتباك أحياناً حين يضمهن المبشر لصدره او يقترح عليهن نزع بعض ثيابهن. وتارة أخرى يعجز المرء أن يفقه قط بما سيحدث مع راسبوتين، فسلوكه يتغير بين الفين والآخر لذا تراه يكبح شهوته ويصبح واعظا روحيا اذا ما بدا على بعض من يقابلهن بوادر عصبية. وهنا علقت امرأة أدركت كلا الجانبين من شخصية راسبوتين انها لا تدري ان كان راسبوتين قديسا ام شيطانا.

وأرجح جواب لكلا الوصفين هو النفي، فطبيعة راسبوتين على طرفي النقيض مع طبيعة غيره من «الرجال المقدسين» الآخرين آنذاك أمثال الأسقف ثيوفان والراهب (ايليودور) او الأب (جون) في «الكرونستادت». ان خصلة القديس الروسي هي الزهد، وعليه لا يتجلى راسبوتين في هذا الأمر روسياً قلباً وقالباً. فبرغم انه كان باعتراف الجميع نباتيا وغالبا ما صام وتجنب شرب الفودكا، إلا أن طبيعته كانت أقرب من ناحية اخرى لطبيعة القديس الهندوسي راماكريشنا او الشاعر الأمريكي (وايتمان) حيث نلاحظ جوانب وايتمانية في يوميات سفره كوصف البحر لديه مثلا:-

أنّى لي ان اصف هذا السكون الجليل؟ لقد تخطيت «الوديــا» على البحر الأسود وتلمست البحر وديعاً.. .وقاسمه الحديث روحي وغفت بين موجاته الهادئة... فأدركت حينها ان للروح، كما للبحر، قوة متلاشية الحدود...».

تأتي الصفحات التالية، لهذا الوصف، لعقل القاري، كتاب وايتهان «اندفاع البحر» او بعض صفحات نيتشه في «هكذا تكلم زرادشت». اذ وقع راسبوتين في شباك قصور عقل الإنسان فهو يقول: «استيقظت روحي من غفوتها عندما بدأت امواج البحر تتلاطم... ها هنا يفقد الإنسان سياء صوابه ويمشي في جادة الضباب. ان للبر دوارا اشد من دوار البحر». وثمة نفحة وثنية جلية في يوميات سفره لكن من كتبها ليس دجالا. فهو قد ينحدر الى توافه الأمور لكنه ليس من طراز الرجال اللذين يحتفظون ببريقهم في عيون الناس دوما. هو أقدر على العيش وحيداً بل انه يطوف في زوايا نفســه اكثر وهو في خلوته. وسيطفق شعور صادق اننا امام شاعر حقيقي. وسيتجلى ايضا انه وبرغم من عمق تأثره بالإيقونات المسيحية والرمزية وثنيا او بتعبير ابسط انسان استغرق في الذات الإلهية فبات أشبه بالقديس الهندوسي (راماكريشنا) الذي نستذكره لدى قراءة ما ورد من تعليقات عن راسبوتين كتعليق ابنته هنا: «... يفرق أبي بين الدين والمتعة، فهـو يبلغ ذروة نشاطه وحيوته النفسية في الملذات الوقتيــة واذ خاله الآخرون اخرقا او سخيفا تسلل لروحه ابتهاج عنيف..... لا يحجز بينه وبين وقد الصلاة في روحه». وحتى (يوسبوف) يصف، وهو الشاهد المعادي لراسبوتين، الحماسة والمرح والإبتهاج الذي ينتاب راسبوتين وهو يتحدث عن «الملاحظات الدينية البسيطة». ملك راسبوتين الغلة والطفولية احيانا كثيرة، وكان موقفه من الآخرين واثقاً ومؤثراً، وقد عبّر عن حماسته الدينية بالغناء والرقص وهو في هذا شبيهها بـ(راماكريشنا). كتبت ابنته قائلة:

«كان مولعا بالرقص كأغلب الروسيين... فهو سينساق معها لشعوره باليقظة مع أنغام الموسيقى ولا تنفصل الى حد بعيد نشوة الإيقاع في روحه عن الطرب الديني الذي كان قادرا على الإحساس به في الماضي». لقد كان متدينا لأن فعاليته عبرت عن نفسها حباً وثقة لا لحاجته (للإنقاذ). فـ(راسبوتين وراماكريشنا كلاهما أن جميع المؤمنين سواسية وما اختلافهم إلا في طرائق عبادتهم للرب.

ان من الصعب علينا، ونحن نقرأ عن الفترة التي امضاها في شارع بطرسبورغ، التصديق أنه لم يكن إلا نذلا غرّاً. فقد شهد شاهد أنه كان يستقبل طوابير المتضرعين، وقدم اليه ذات مرة رجل ثري طالباً مساعدته في الحصول على امتياز لإنشاء خط سكة حديد وعارضا عليه رزمة ثقيلة من المال دسها راسبوتين في جيبه دون حتى النظر اليها واعدا الرجل بالمعونة. ثم جاءته بعد ذاك الرجل امرأة فقدت حيلتها للعيش فسلمها راسبوتين الرزمة دون ان يفحصها ايضا وانتقل الى المحتاج الآخر.

وان بلغ الحديث الجنس أضحى راسبوتين اقرب لوايتهان منه الى راماكريشنا. فهو يراه كالرقص تعبيراً صحياً فعالاً. وهو يعكس معاصره اندرياف، مؤلف مسرحية اناثيا التي حرّمها راسبوتين، لا تستهويه من الجنس مظاهره القذرة، فبيوت الدعارة تثير اشمئزازه حتى يذكر أنه قاطع صديقاً ثرياً له عدة ايام بعد أن اصطحبه وصحبه في عربة الى أحد تلك البيوت. إلا أن موقفه من الجنس وثنياً لتفهيه أن ممارسة الجنس مع بعض تابعاته المحجبات خطيئة يحاسب عليها الرب. ومن ذلك نخرج بالتالي من الاستنتاج:-

كان الجنس نقطة ضعف راسبوتين فوهب به لأعدائه، للأسف الشديد،

سيفهم عليه. وهو لم يكن ساتيراً[1] وما كان الجنس بأعمق حاجة في طبيعته الإنسانية. وربما افضل الكتاب الذين تناولوا لهو راسبوتين الدايونيسي[2] المعربد مع تابعاته أنه اقرب في ذلك الى زرادشت نيتشه من قربه الى معظم القديسين المسيحيين.

ما اطل عام ١٩٠٠ حتى ترددت اصداء شهرة راسبوتين في انحاء سيبيريا. كان قد أوشك أن يلج منتصف الثلاثينات عمره... رجل نحيف متوسط الطول ذو اكتاف عريضة[3]، ولحية خفيفة بنية اللون يمكن من خلالها رؤية حدود ذقنه بوضوح. كانت يداه برغم خشونتها وصلابتها طويلتان أخذتا شكلاً مقبولاً، وعيناه تكحلتا بلون أزرق ممزوج بلون رمادي تسللتا بنظرتيها لأعماق المقابل. لكن التعبير العام لوجهه طيبا يشوشا هون من حدتها. وكانت له صلعة خفيفة في اعلى جبينه عليها ما يشبه الندبة، زعم يوسيوف انها نتجت عن لكمة تعرض لها عندما اتهم بسرقة الخيول. ربما كان على حق فيما زعم، برغم ان راسبوتين اودع في السجن بتهمة الحنث باليمين فقط. اما شعره الطويل البني فكان مقسوما بخط وسطي. كان سلوكه دمثاً مفعما بالحيوية الكريمة ويغدو وجهه راضيا باسما كالطفل عندما يرى احدا يحبه مما اكسبه شعبية بين القرويين الذين محت قسوة الحياة التي يعيشونها التعبير الطبيعي الحميم عن وجوههم. لقد طفقت شهرته الواسعة كمعالج للمرضى من خلال قدرته على التنويم المغناطيسي، ومن نزعته لعمل الخير، والتي شكلت في حقيقة الأمر الجزء الأهم من قدرته على التنويم المغناطيسي لما لها من سحر على مقاومة المريض

---

(١) ساتيرا: نسبة الى ساتير الذي هو اله من الهة الغابات عند الاغريق، كان يتميز بولوعه الشديد بالقصف المربد وانغماسه في الملذات.

(٢) دايونيسي: نسبة الى دايونيس اله الخمر عند الاغريق.

(٣) لم يكن طويلاً وضخم الجثة كما اكد أغلب كتاب سيرته الذاتية.

وزرع شعور الثقة فيه. ولا تبدو عليه مسحة الخطر البتة بل هو النقيض التام لنوع الرجل الذي وصفه كتاب سيرته الأولين في كتاباتهم... ذلك النوع المخيف، النافذ البصر، المهيب الجانب من الرجال. إن من ضمر له الحقد والكره من الرجال هم اولئك الذين آثروا تبجحهم وليس سواه أو من اولوا اهتمامهم لعبارات الاعجاب اليهم والذين وجدوا في طرازه تحديا وفي سحره مكراً واتقاداً. لقد شعروا فيه ممثلاً تطلعوا الى قابليته على تغيير نبرة صوته ليغدو مقنعا قادرا على اخضاع الآخرين لأفكاره برغم لهجته السيبيرية الثقيلة وكيف أنه تفادى زرع الانطباع أنه سلس البيان بتردده في الكلام بل وبتلعثمه قليلا.

حاول راسبوتين جاهدا البقاء بمنأى عن الشرطة بعد «تحوله» لكنه تورط من جديد في ايلول سنة ١٩٠٠ مع قسم شرطة حي فيركنا في توبولسك حين ادعت راقصة متجولة تدعى «اليزافيتا نيكولايفتايل» أن راسبوتين اراد قتلها عندما رآته صدفة، وهي على جادة طريق بين «فاكاست» و «كازان» في الحادي والثلاثين من آب، وهو يحاول اغتصاب طفلتين في مزرعة قريبة فلاحظها عبر الحقول لكنه عزف في النهاية عن مطاردتها عندما حل الظلام. لقد كانت واثقة تمام الثقة بانه كان ينوي قتلها، وتحملت مشقة السفر ثلاثة ايام لتصل لتوبولسك في الثاني من ايلول.

حاصر الشك الشرطة. فالمرأة تعمل راقصة جوالة مع فرق سيرك وفرق مسرحية تطوف بين المدن. وربما استجوبتها الشرطة عن سبب قطعها سبعمائة ميل عن مسرح الحادث لتصل توبولسك بينما كانت «كازان» على بعد اربعين ميلاً، وعن كيفية قطعها كل تلك الأميال في ثلاثة ايام فقط.

وعلى اية حال لم يتم الوصول الى راسبوتين، ولا غرابة في ذلك، ولم تثبت

اداته بالجرم المزعوم. وعندما امكن لاحقا مقابلة راسبوتين لم تستطع الشرطة ايجاد المرأة التي كانت ربما ترقص في الجانب الآخر من سيبيريا، فادرجت الشكوى في ارشيف «اوكرانا». كانت الشرطة بلا شك محقة في شكوكها حول صحة وقوع الحادث حيث لم تردها اية تقارير عن حوادث اغتصاب اطفال وانحصرت القضية بين شكوى المرأة ودفاع راسبوتين. فإن كان هدف الإدعاء تشويه سمعة راسبوتين المتصاعدة كرجل مقدس لضحية تضمرها المرأة فحسب (لظنها أن التهمة ستظل عالقة به ولو برئت ساحته) فان الهدف لم يحقق غايته.

ظل راسبوتين طيلة عشر سنوات سائحا جوالا لا يأوي بيته الا في فترات متباعدة. ولا نملك أية معلومات عن أحداثه في تلك الأعوام او اسماء الأماكن التي زارها، إلا أن الواضح انه ترك أحسن الأثر في مدينة «كازان» التي كانت عاصمة «الكولدن هورد»[1] والتي كانت اقرب للطابع الشرقي منها للطابع الروسي. يستهل احد كتاب سيرته حديثه بوصف مفعم بالحياة لـ « كازان » ولراسبوتين محاطا بجمع من المتوسلين ومعظمهم من المرضى الذين قدموا للعلاج. وهناك مشهد يشفي فيه راسبوتين مشلولا أن أوعز له بالنهوض والمشي فقط[2]. ولهذه الواقعة أساس من الصحة فهي تؤكد في أقل تقدير شهرة راسبوتين كطبيب في «كازان»، حيث أقام هناك صداقة مع عائلة كاتكوف التي مكثت معها ابنته ماريا سنة ١٩٠٨.

تحكي ماريا اولى ذكرياتها عن ابيها حين شاهدت ومعها شقيقها ديمتري رجلاً غريباً طويل القامة ذو لحية بنية طويلة وعينين غريبتين باصرتين مودعتين في وجه رسم عليه الاجهاد ملامحه... وحاملاً حقيبة وكان يمشي منهكاً. كان

١) القبيلة الذهبية.
٢) كتاب هينز ليبان: راسبوتين... تقييم جديد.

يبدو كأحد السواح الرحالين او المغنين الذين يقصدون قرية بوكروفسكو عند هبوط الظلام ليبيتوا الليل عند الفلاحين...». لقد فشلت حتى زوجته في التعرف عليه حينها وسألته: -«ماذا تريد ايها الرجل الطيب؟» وتلك دلالة ان سفراته سلخت من الزمن دهراً طويلاً لم تتوقع فيه زوجته أن تراه ثانية.

تضيف ماريا راسبوتين انهم دخلوا بعدها كوخهم، ولكن الصورة التي بحوزتنا عن منزل راسبوتين في بوكروفسكو تظهر لنا بناءا متداعيا لا يمكن وصفه بالكوخ وهذا ما يدعو الى القول أن شهرة راسبوتين كطبيب لم تأت عليه بالوفير من المال. ثم انتقلت العائلة بعد عام ١٩٠٣ بوقت قصير الى البيت الواسع ذي الحديقة والفناء في شارع بوكروفسكو الرئيسي، وهو قول يعني ان عام ١٩٠٣ كان نقطة تحول في حياة راسبوتين ففيه بلغت شهرته طبقة النبلاء بعد أن كانت مقتصرة على الفلاحين فقط.

لا نعرف تحديداً من المسؤول عن قدوم راسبوتين شارع بطرسبورغ، بيد أن ادعاء بعض كتاب سيرته يقول ان ارملة ثرية من كازان تدعى «باشيا كوفا» اكرمته واتت به بطرسبورغ دون أن يعرف أحد عنها شيئا.

يبدو محتملاً ان الفضل في «اكتشاف» راسبوتين يعود الى الغراندوقة (ميليتسا) وهي احدى أختين والدهما الملك (نيكيتا) ملك (مونتنكرو) (الواقعة في يوغسلافيا الآن) (تدعى البنت الأخرى اناستازيا). وقد اقترنتا بغراندوقين (هما بتر نيكولايفتش ونيقولا نيكولايفتش)[1]. كانتا تعتبران نفسيهما، شأنهما في ذلك شأن جميع نساء الطبقة الراقية في شارع بطرسبورغ، « متصوفات » حيث كانتا مهتمتين بالدين، بالسحر، بالروحانيات وبالتنويم المغناطيسي. وقد كان لميليتسا

(١) الغراندوق أو الغراندوقة لقب يعطى لأشقاء وشقيقات وأبناء وأحفاد القيصر.

عظيم الأثر على زوجة القيصر التي دأبت على حضور جلسات تحضير الأرواح لفترة من الزمن لكنها اقلعت عن ذلك بعد ان قال لها مستشاروها الروحيين ان هذا من عمل الشيطان، وقطعت بذلك علاقتها «بالمونتنكريات». ويذكر ان ميليتسا هي المسؤولة عن تعريف مشعوذ غريب اسمه فيليب نيزير -فاتحرت بزوجة القيصر (والذي سنتحدث عنه لاحقا).

يقول السير برنارد بيرس المطلع على اسرار «الغراندوقة» أن ميليتسا هي التي اكتشفت راسبوتين في «كييف» حينما كان ينشر الخشب في فناء دير على الاغلب. ودعته لزيارتها في شارع بطرسبورغ.[1] ومن هنا، حسبما تذكر ابنته ماريا، بدأت شهرته بالإزدياد وغدا مجيئه لبوكروفسكو نادرا جدا.

من المؤكد ايضاً ان اول زيارة لراسبوتين لشارع بطرسبورغ جاءت في عام ١٩٠٣. وفيه التقاه الحظ حين أثار اعجاب الأب جون من «كرونستادت»[2] وهو المستشار الروحي لزوجة القيصر.

كان الأب جون سيرجييف قديسا عبقريا مشهورا بقدرته على التنبوء، عين قسا لكرونستادت سنة ١٨٥٥ واصبحت كنيسته خلال عقد من السنوات تقريبا مكان حج مقصود، ثم غدا القس الخاص باعترافات اليكسندر الثالث قبل ان يصبح الرجل الأقرب للقيصر نيقولا. امتلك الأب جون جميع سمات الدليل الروحي للقيصر فهو من الناحية السياسية رجعي من الدرجة الأولى،

(١) يقدم هينز ليبمان رواية تختلف عن هذه، فهو يدعي أن البوليس السري اكتشف راسبوتين في بداية عام ١٩٠٢ وأن الأمير بيراكوف، أحد قادة (اتحاد روسيا المخلصين) وجد فيه امكانية الانتفاع بابطال تأثير مختلف المشعوذين و (مخترعي المعجزات) في البلاط القيصري. لكن ليبمان لم يشرح لنا الكيفية التي التقى بها الأمير بيراكوف براسبوتين في كازان.

(٢) كرونستادت: مدينة صغيرة محصنة قريبة من بطرسبورغ.

يؤمن بمطلقية الحكم الامبراطوري، وهو ميال من الناحية الإجتماعية لآراء القرون الوسطى لكنه كان روحانيا حيث توجت كتاباته كاحدى تقاليد الروحانية الروسية وما زال الكثير من الورعين في روسيا يعدونه في قائمة القديسين. اشتهر الأب جون بقوة وحماسة صلاته وقد حقق نجاحا كبيرا في شفاء المرضى بفضل صلواته الطويلة الملحة قرب أسرّتهم. واقام الأب جون ايضا نظاما مدهشا في الإعتراف الجماعي حيث اقترح وجوب اعتراف المخطيء بذنوبه بصوت عالٍ بين جميع المعترفين طالباً العفو (بسبب اكتظاظ كنيسته بحشود المعترفين المنتظرين موعد تناول القربان)، فيما درجت العادة في روسيا على وجوب اعتراف المذنب قبل تناول القربان. انه لمشهد عظيم الأثر ان ترى امامك مئات، بل آلاف الناس احيانا، يعترفون بآثامهم بصوت مدوٍ وهم يجهشون بالبكاء ويتهالون على مذابحهم بالضربات.

بلغ الأب جون في عام ١٩٠٣ سن الرابعة والسبعين عاش بعدها خمسة اعوام اخرى قضاها، وحين استطاع للذلك سبيلا، في كرونستادت لكنه قصد ايضاً كاتدرائية في شارع بطرسبورغ للإحتفال بقداس حيث التقى براسبوتين اول مرة.

تصف الرواية المتداولة طريقة لقاء الأب جون براسبوتين. اذ حمل الأب جون القرابين المقدسة وردد : «اقترب بدفعك ايمانك بالرب وخشيتك منه» وصرخ فجأة قائلا «قف» مشيرا الى حاج ملتح رث الثياب واقف في مؤخرة الكنيسة -وقد كان راسبوتين- وأمره بالإقتراب منه. ثم باركه وطلب منه، وسط دهشة الجميع، ان يبادله التبريك.

لم تكن هذه القصة حدثاً ملفقاً، لكنها لم تكن -وفق افتراض فولوب

ميلر - دليلا على تبصر الأب جون الروحاني. وحقيقة الأمر هي ان راسبوتين كان قد التقى القس في اليوم السابق ليوم القداس وربما زار الأب جون وزوجته في منزلهما في كرونستادت. وربما لم يعتمد تقييم القس لراسبوتين على ادراكه الحسي بروحية راسبوتين. لقد كان راسبوتين آنذاك رجعيا متزمتاً كالأب جون الذي لقبه معجبوه ب«العراف». فقد تطابقت وجهات نظرهما بالايمان بالسلطة المطلقة للملك ووقاحة الليبراليين (المتحررين) والتأثير المسموم لليهود. ان لراسبوتين العذر في افكاره هذه فهو، على النقيض من الأب جون، جاهل بالسياسة، وان من دواعي الفخر انه اصبح، بعد خوضه التجارب، خصما لمناهضة السامية[1] ومتعاطفا مع الليبراليين لكن وجهة نظره لم تتغير من ناحية القيصر ومطلقية حكمه.

استغرقت زيارة راسبوتين لشارع بطرسبورغ سنة ١٩٠٣ خمسة اشهر في أقل تقدير اي حتى اواخر شهر كانون الأول حسبما يذكر الناسك ايليودور، ومن المعلوم ايضا انه زار مدينة «ساروف» قرب «نيتي نوفكورود» اثناء مجيئه الى بطرسبورغ في اواخر شهر تموز، وقد قرر القيصر، في ذلك الحين، ضم ناسك يدعى «سيرافيم» لقائمة القديسين على امل ان يتشفع هذا الأخير الرب لولادة نجلٍ للقيصر يكون وريثا للعرش. وتعليقا على ذلك يقول مؤلف «سقوط الرومانوفيين» المعادي لراسبوتين:-

حضر راسبوتين، النبي» السمعة والمجهول الهوية لقادة الكنيسة، والذي بات فيما بعد محط اعجاب العامة، مراسيم اعلان القداسة بهيئة حاج رحال او (ستارتيز). لقد صلى طويلا امام المزار الفضي الذي يضم رفاتاً، وكان ورعه في

(١) ويعود له الفضل لاحقاً لمراسيم صدرت من القيصر لصالح اليهود.

السجود مقرونا بنشوة ما. ثم اعلن امام الجمع الحاشد بنبوته التي تبشر بمعجزة جديدة قريباً وان السنة لن تنقضي إلا ويولد وريث العرش الروسي الذي انتظرته البلاد كثيرا باعثا الفرح في قلوب الناس.

وصدقت نبوءة راسبوتين. فقد ولد الوريث، الذي سيلعب راسبوتين دورا كبيرا في حياته، في الثاني عشر من آب سنة ١٩٠٤. لكن الصبي ولد، ولسوء حظه، وهو يعاني من الهيموفيليا الوراثية.

أفضى لقاء راسبوتين بالأب جون الى قطع خطوة اخرى قربت راسبوتين أكثر نحو العرش. فقد ارسله الأب جون الى الأرشمندبت[1] تيوفان -مفتش الأكاديمية اللاهوتية في شارع بطرسبورغ. كان تيوفان شخصا مقرباً لزوجة القيصر، وهو روحاني الى ابعد الحدود ورجعي من الناحية السياسية، ويسرد فولوب ميلر قصة هي من بنات أفكاره تحكي ان القروي راسبوتين، الذي كان يقيم في مضيف الزوار في الأكاديمية، استمع الى نقاش دائر بين طلبة علم اللاهوت الذين دعوه للمشاركة في النقاش بقصد السخرية من منطقه والذين ادركوا، ما إن بدأ الحديث، ان بصيرته البسيطة والنافذة في المخطوطات المقدسة لأعمق مما درسوه في الكتب، فرحوا يجوبون في افكاره وغاب عنهم دخول الأرشمندبت تيرفان رئيس الأكاديمية الذي كان عجوزا صغير البنية ذا عينين زرقاوين حالمتين. استمع الأرشمندبت لنقاشهم لفترة وجيزة ثم بدأ يسأل راسبوتين بعض الأسئلة لا سيما تلك المتعلقة بمعنى الخطيئة، فاجابه الموجيك قائلا: «لقد شجب منقذنا والآباء المقدسون الخطيئة لانها من عمل الشيطان. . . لكن كيف يتسنى لك طرد الشيطان، ايها الأب، دون التوبة الصادقة النصوح؟

(١) الارشمندبت: كاهن في الكنيسة الشرقية يلي الاسقف بالرتبة.

وأنى لك ان تتوب توبة خالصة دون ان تأثم؟» ثم نوم راسبوتين الأرشمنديت تنويماً مغناطيسياً عندما حاول الأخير الإجابة. . . فلم تكن إلا «عيون راسبوتين المشرقة المتلألأة تضع النقاط على الحروف». امضى الرجل العجوز الليل مفكراً بما قاله راسبوتين وما أن انبلج الصبح إلا وتبلورت لديه القناعة أن راسبوتين محق فيما ذهب اليه واقترح أن يقابل راسبوتين الاسقف (هيرموجين) أسقف «ساراتوف» (والذي وصفته ماريا انه الرجل الأكثر شعبية في روسيا). ثم ارتأى كلا الأرشمنديين انضمام راسبوتين «لإتحاد الروسيين المخلصين» وتقديم يد العون لهم في طرد المشعوذين والدجالين خارج البلاط القيصري.

لقد ابتدع فولوب ميلرمسألة التنويم المغناطيسي لايضاح كيف بلغت القناعة بهذه اللامنطقية العبثية رجلاً له خصال تيوفان، (ولأجاب اي رجل كنيسة ارثذوكسي: كلنا نأثم طوال الوقت فلماذا نغالط انفسنا ونمعن في الاثم فنقول نحن لا نأثم؟) لكن ميلر لم يشرح لنا سر انخداع تيوفان براسبوتين حتى بعد انجلاء اثر التنويم المغناطيسي ولا الصدمة التي تعرض لها تيوفان، في سنوات لاحقة، عندما وصلته انباء نشاطات راسبوتين الجنسية المريعة.

يورد لنا برنارد بيرس رواية اخرى هي الأدق على الأغلب قائلا:-

ظهر راسبوتين في اكاديمية بطرسبورغ الدينية في التاسع والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٠٣ وكان قرويا ممتلىء الجسم متوسط القامة، ذا شعر قذر طويل ينسدل على كتفيه ولحية متشابكة وعينين رماديتين ثاقبتين غامضتين تحت حواجب كثة تغرقان في نور مميز لو أطال النظر على شيء»، تميزه رائحة قوية نافذة. بزغ أول الأمر رجلاً عظيم الآثام وأمسى الآن عظيم التوبة والندم قادراً على استنباط قوة جبارة من التجارب التي يمر بها وعلى هذا الحال قابل تيوفان.

ضمت الأكاديمية الدينية آنذاك شاباً فريد الخصال كان يتدرب على الرهبانية وعرف فيما بعد بالناسك ايليودور وهو الذي نقل لنا هذه التفاصيل عن قدوم راسبوتين للأكاديمية. كان متميزاً كراسبوتين لكنه اصغر سنا وهو يستحق منا اهتماما ودراسة اكثر. كان قروي الأصل واسمه الحقيقي سيرجي تروفانوف. اصبح قسا لتسارتسين[1] بعد سني دراسته في الأكاديمية تحت اشراف تيوفان. وسرعان ما ذاع صيته بفضل بلاغة وقوة مواعظه ثم اطلق على نفسه لقب سافانارولا. وتظهر لنا صورة التقطت له مع راسبوتين والأسقف هيروموجين رجلا هزيلا ذا وجه منغولي الملامح، ووجنتين عاليتي العظام وشفتين رقيقتين تعبران عن الحزم وعينين تنمان عن التطرف.

تميز ايليدور أيضاً بموقفه السياسي. فهو رجعي حد العظم، مقت اليهود والمفكرين، آمن بمطلقيه سلطة القيصر من جهة وصب جام غضبه على طبقة النبلاء، ونادى بشيوعية فلاحية يكون القيصر القائد الأعلى لها من جهة اخرى. تناولت معظم مواعظه مسألة فساد الأخلاق وانحطاطها -وذلك كان صحيحا الى حد بعيد- او قضية شجب المذهب الروحاني، وهاجم ايضا الإدارة واللاكفاءة التي تحلت بها الجهات الرسمية. كان شديد اللهجة في حديثه وغالباً ما ترجوه أن يكون معتدلاً لكنه كان في موقع الأقوى. اذ أحبه القيصر وحماه تيوفان وهيرموجن وأعجب به، بل تعبده، أغلب اتباعه. ودعا، متأثرا بدستوفسكي على الأغلب، الى تأييد الإتحاد السلافي[2] واعتقد ايضا بان للشعب الروسي «صلة الرب» وعليهم تجنب الغرب الفاسد.

وفكر بمشروع انشاء دير يسميه «ماونت تابور» ويكون مرفأ التقاء

(١) مدينة سوفياتية تقع على نهر الفولغا.
(٢) من سلافيا وهي مقاطعة في شمال يوغسلافيا.

الخالص. لقد درت عليه مواعظه المتقدة ارباحا طائلة لكنها لم تكن تكفي لإقامة الدير لذا دعا الجميع للتبرع بالعمل والمواد وشرع ببناءه بنفسه. يتميز هذا الدير ببرج مرتفع على تل كي يطرق صوته الواعظ الجمع الغفير... واوشك على تحقيق حلمه هذا لولا خلافه الأخير مع راسبوتين ولكنه آمن، مثل تيوفان، بطهارة راسبوتين فقد التقت فلسفة راسبوتين المتعلقة «بالندم من خلال الخطيئة» مع رفضه المثالي والقاسي لكل مساويء عصره. كانت بيوريتانيته[1] باغية فهو يزور المراقص وصالات القمار وبيوت الدعارة ثم يعتلي المنبر شاجبا لها ذاكرا روادها الآثمين بالأسماء، وكان يرفض المثول امام المجمع الكنسي المقدس لئلا يضطر للإجابة على اسئلتهم حول افعاله المتناقضة تلك، علاوة على ذلك كانت مشاعر العامة لصالحه لدرجة يصعب على السلطات معها اتخاذ اي اجراء قمعي ضده.

يروي فولوب ميلر قصة طريفة لا تملك ركيزة من الصحة حول اول لقاء يجمع راسبوتين وايليودور. فهو يقول ان تيوفان وهيرموجن اصطحبا راسبوتين للقاء ايليودور الذي كان ساجدا على ركبتيه يصلي فانتظر ضيوفه الثلاثة فراغه من الصلاة احتراما له لكنه استغرق في صلواته طويلا حتى ضاق راسبوتين ذرعا بالإنتظار فقاطعه قائلا له بلهجة عتيقة «انك تحسن في الصلاة ولكن كف عن مضايقة الرب بصلواتك فحتى هو يحتاج للراحة احيانا، هيا انهض فهذان الرجلان لديهما شيئا يقولانه لك». ذهل ايليودور ولم يعرف ماذا عساه أن يرد عليه. واستنادا لتحليل فولوب ميلر فقد اختلطت مشاعر الكاهن نحو راسبوتين بين الغضب والإمتعاض والعجز والخوف والإعجاب وظلت كذلك.

ان من الصعب تصديق هذه الرواية لأن ايليودور لم يكن حينها إلا طالبا اكاديمياً موهوبا باللاهوت فليس من المعقول ان يحدث مثل هذا التضارب بين

(١) البيوريتانية: التطهر، التزمت.

الشخصيتين.

والحقيقة الأرجح هي أن الاعجاب بشخص راسبوتين لا سيما بفكرته بالمجتمع الزاهد كان مسهلاً لعلاقة ايليدور به وبات من طالعها نصيره الأشد حماساً. لكنه اصبح بعد ذلك عدوه اللدود وتآمر على قتله ثم اعتنق الشيوعية وكتب كتابا شجب فيه راسبوتين وشوه سمعة العائلة الإمبراطورية.

قدم تيوفان وايليودور راسبوتين الى من هو اكثر نفوذا من كليهما وهو اسقف ساراتوف (هيرموجن) الذي وصفته ماريا بكونه «الرجل الأكثر شعبية في روسيا». كان هيرموجن لولب الحركة في «اتحاد الروسيين المخلصين» وهي حركة مؤيدة للإتحاد السلافي وتوعظ بمناهضة السامية والغربية وتؤيد السلطة المطلقة للقيصر وقد كان لها ايضا مناصرة قوية في البلاط الإمبراطوري -(من الملاحظ ان روسيا كانت دائما مهدا لحركات مناهضة السامية وشهدت مذابح منتظمة ضد أنصار السامية في كل حكم وربما تفوق القياصرة على هتلر بعدد اليهود الذين قتلوهم).

بهم راسبوتين بقوته وصدقه تأثيره على الاثنين. فقد كان قرويا يحمل بعض نبوءة دوستويفسكي التي تبشر بروحية متجددة تنبعث من الموجيك الروسي. وشاطرهما اراءهما السياسية حول اليهود والقيصر وحول الرسالة الإلهية التي يحملها الشعب الروسي. لم يكن كلاهما فطناً ليدرك طموح راسبوتين وان صدقه مقرون بدهائه القروي فهو لهما ليس بالرجل الموعود -يبدو ان زيارته «لساروف» ونبوءته حول ولادة ولي العهد ما هي إلا محاولة مبكرة لجذب انتباه القيصر وزوجته .

لم يكن راسبوتين طموحا بمعنى الطموح... فهو لا يهلك للمال ولا

يطمح نفوذاً سياسياً. كان متسلقاً اجتماعياً نشد الشهادة له بالعظمة من مجتمعه. وهو شخص أرخى الحبال لرغبته أن تقوده للسلطة وأدق منها للنفوذ الشخصي. فقد كان يدرك جيدا انه اقوى من خصومه أجمعين وأراد أن تشهد له روسيا بذلك، ولم تكن محاولاته الجاهدة في التقرب من السلطة إلا لأنه يرى ان قوته الشخصية يجب ان تقترن بقوة تماثلها وليس من قوة في روسيا اكبر من قوة القيصر السياسية. هذه الرغبة في السلطة هي سر بقاءه في شارع بطرسبورغ حتى عندما ادرك ان السلالة الحاكمة تتهاوى وانه سينتهي بنهايتها. لقد شعر أن بوسعه تغيير مجرى التاريخ ولم يشكك في هذه القدرة قط، حتى عندما لاح جليا منذ التاسع والعشرين من حزيران عام ١٩١٤ ان المستقبل لا ينوي أن يغير مجرى أحداثه.

كان لدى راسبوتين الإستعداد، بدءا من عام ١٩٠٣، للغوص في مجرى التاريخ الروسي. وضروري لفهم ما سيلي من احداث ان نلقي نظرة على القوى الفلاحية التي واجهها آنذاك.

الفصل الثالث

"تاريخ كالكابوس"

سقط من على صدر نيقولا الثاني ولما توج على عرش روسيا وسام رهبنة القديس أندرو، وهو أحد أوسمته العليا فظن به القيصر نذير شؤم سيحوم على حكمه. وما عمق شعور التشاؤم لديه سقوط بعض الالواح الخشبية المغطية لخنادق أعدت لأغراض التدريبات العسكرية في ساحة هودينكا، تحت وطأة ثقل الجمهور المحتشد الذي جاء لإستلام هدايا القيصر في يوم تتويجه، وهو ما تسبب في مصرع أكثر من ألفي مواطن سحقا تحت الأقدام. لم يعلم القيصر بهذه الحادثة بادىء الأمر وطلب من أحد موظفي البلاط أن يواصل المحتفلون إحتفالهم، لكن الذعر ملكه حين علم بالفاجعة فقرر الذهاب الى الدير للصلاة على أرواح مواطنيه الأبرياء، لكن مستشاريه ثنوه عن عزمه وأرشدوه أن يحضر بدلا من ذلك حفلة راقصة أقامها السفير الفرنسي بمناسبة التتويج. فلا غرابة إذن وتحت ظروف كهذه أن يخال لأغلب المؤرخين أن نهاية مأساوية لحكم نيقولا قد أمست أمرا مقضيا.

بيد أن تلك المأساة، سواء أكانت قدرا أم حادثا ما كان لها أن تقع لولا وجود راسبوتين وزوجة القيصر، فلولا وجود راسبوتين لربما ما كانت هناك ثورة أكتوبر، ولولا مزاج زوجة القيصر وأهواؤها لما كان راسبوتين الحاكم الفعلي لروسيا.

قد يتفرد هذا الحدث التاريخي بالدقة التي تم فيها وصف مسبباته، غير أن تفهم أسباب سقوط الملكية الروسية يتطلب تتبعا لمسبباته عبر قرون عديدة قد تمتد الى ما قبل إستلام سلالة رومانوف الحكم .

إن تاريخ القياصرة لمأساة اليزابيثية تمتد لثلاثة قرون. فجوهرها القسوة. . أو هي قسوة بربرية لا حد لها كانت وما تزال سمة بين دول الشرق والتي لم تظهر في أوروبا إلا حديثا إبان عهد هتلر. كان حكم «إيفان الرهيب » الذي عاصر الملكة إليزابيث باكورة تلك القسوة. فهو قد أسس فكرة (التزار)، وهي مفردة مشتقة من –سيزار– أي القيصر، بصفته السيد المطلق الذي لا طاقة لرعيته على نفوذه ولا حول. حين إعتلى «إيفان الرابع» العرش تسيد البويار (وهم طبقة النبلاء) مقاليد السلطة في روسيا شأنهم في ذلك شأن نبلاء إنجلترا في عهد الملك «جون». فيما كانت عائلة «الشويسكين» هم الأقوى بينهم. تميز أغلب البويار بالغطرسة وغلاظة القلب للدرجة التي أغشت فيها القساوة شبابهم وهم يرون كلابهم المسعورة تطارد رجال العامة في لعبتهم المفضلة (مطاردة الرجال) وتقطعهم إربا إربا. لذا إكتست طفولة إيفان بمرارة التقريع والإهانات من رجال كهؤلاء وقتلت أمه وهو في السابعة من عمره فأطلق العنان لوحشيته كي تتنامى في الستة أعوام اللاحقة. ثم حدث في أحد الأيام أن أمسك الشويسكيون بصديقه الحميم «فرونوستوف» وأذوه ضربا حتى كاد أن يلفظ أنفاسه بين أيديهم لولا توسلات إيفان، وبعدها نفي صديقه «فرونوستوف». وبعد ثلاثة أشهر أمسك رفاقه الأشداء بالأمير «أندروشويسكي»، ألد أعداء إيفان، ورموه طعما لكلاب الصيد ليغدو إيفان مذ حينها السيد المطاع.

لم تكن الأعوام الأربع التالية من حياة إيفان إلا مسلسلا مروعا، فقد أطلق العنان لحقده وقسوته ومزاجيته وخاصة في هواية صيد الرجال حيث كان

معظم ضحاياه من التجار وزوجاتهم وبناتهم اللاتي كن حريم إيفان الخاص. أعلن إيفان نفسه (تزارا) أي قيصرا في السابعة عشر من عمره فكان أول قيصر في روسيا بعد أن خشي جميع أسلافه أن يطلقوا على أنفسهم هذا اللقب. واختار إيفان لنفسه زوجة تدعى «أنستازيا رومانوف» من بين اللتي فتاة جمعن للمعاينة. وهو قد جهد في الأعوام العشرة التالية كي يغدو القائد المثالي، فقد أحاط نفسه بأكفياء المستشارين ينحدر أغلبهم من الطبقة الوضيعة وشرع بإجراء مختلف الإصلاحات. كما إفتتح عهد الغزوات أيضا حين طرد التار أو المنغوليين الذين ابتليت بهم روسيا لقرون عديدة، من كازان ثم تبعها بغزوات أخرى. لكن صفوة حياته تعكر وانقلبت شخصيته عندما أخذ القدر منه زوجته لدرجة أن بات من الإحسان عليه القول أنه أصيب بالجنون في سن السابعة والعشرين فمذ حينها وحتى وفاته أرخى الحبال لوحشيته لتقتاده حيث تشاء وساوره الشك بجميع من حوله وجرد جميع من في البلاط من حق إبداء رأي لا يتفق وقرار القيصر ومن تراءت عليه أي نزعة من هذا القبيل كان مصيره العقاب لظنهم به خائنا. وخلع إثنين من أفضل مستشاريه فيما هرب معظم معاونيه لبلدان أخرى بعد أن خالجهم أن الحياة أمست غير آمنه بين يدي هذا المعتوه. لكن فرار كربسكي، صديق طفولته، غرس جرحا عميقا في نفسه لدرجة أن شل قدمي الرسول الحامل لرسالة وداع صديقه وعذبه بعد أن أتم قراءتها.

أقدم إيفان في منتصف الثلاثينات من عمره على فعل غريب لا ينسجم إلا والطبيعة الروسية، حيث هام خارج العاصمة موسكو دون أن يحدد مقصده حتى حط به المقام في قرية «اليكاسندروف» الواقعة على بعد مائة ميل من موسكو. وبعد أن أمضى عدة أسابيع إكتنفها القلق والحيرة على مستقبل البلاط القيصري، أعلن إيفان تخليه عن العرش. لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك بعد

أن أرسلت العاصمة وفدا يناشده العودة لبلاطه. وبدا كأن الخوف والحذر قد شاع بعد إختفاءه عن البلاط. فهم قد أعدوه رغم قسوته شخصا ضروريا لا غنى لروسيا عنه. وهنا وضع إيفان شرطا لعودته ينص على وجوب تغاضي الكنيسة والبويار (طبقة النبلاء) عن جميع أفعاله وقبل الجميع ذلك وعليه بدأ دون أن يتهاون لحظة باستغلال هذه الصلاحية بحملات سرقة وقتل واسعة النطاق، ليس هذا فحسب بل قسم روسيا الى قسمين : ملكيته الشخصية والتي سماها (اوبرسبينا أي إرث الأرملة) و (زيمشينا) التي هي ملك النبلاء. وأسس لادارة «الأوبرسبينا» قوى أمنية وسياسية تولت مهمة التجسس على اعدائه والقضاء عليهم. وعليه يصح إعتبار إيفان مخترع نظام الشرطة في روسيا. لقد طاف هؤلاء بلباسهم الأسود أرجاء البلاد شبرا شبرا منفذين إنتقام القيصر الذي ما كان يعني سوى الحرق والتعذيب حسبما يشتهون.

لكن جنون عظمته بلغ الذروة عندما هدم أركان مدينة «نوفوكورد» حين جالت في رأسه فكرة مجنونة مفادها أن «نوفوكورد» تنوي الخيانة فسار اليها بجيش جرار حارقا ومغتصبا وناهبا على طول الطريق إليها حتى وصلها في أوائل عام ١٥٧٠ وبنى حولها سورا عاليا من الخشب ليمنع هروب أي من سكانها. ثم وعلى مدى خمسة أسابيع أغدق في القرية تعذيبا أهلك فيه يوميا آلاف من أهالي «نوفوكورد» أمام ناظريه وناظري ولده المنحرف إيفان وهو قد تفنن وجنوده في أشكال التعذيب إذ أجبر الأزواج والزوجات أن يرى أحدهم الآخر يخر من شدة الألم صريعاً وأجبر الأمهات أن يشاهدن أطفالهن يرقصون ألما قبل أن يحرقن أنفسهن أحياء أو يضربن حتى الموت. كانت نتيجة تلك المجازر مقتل أكثر من ستين ألف نسمة.

توجه القيصر بعدها الى «بسكوف» بغية إستكمال إستعراضه التعذيبي لكنه

عدل عن رأيه لسبب ما عندما وصلها[١]. فاستقبله سكانها راكعين مؤكدين له أن عطفه ورحمته لأعظم من أن تصدق.

آنذاك، أنزل الرب لعنته على روسيا بأن أحل فيها الأوبئة والمجاعات فأكل الفلاحين لحاء الأشجار، والتهموا الأطفال الصغار أنّى أمسكوا بهم. ومع ذلك، منع إيفان الناس من الترحال وعاقب العاصي بحرقه حيا، وأحرق موسكو عن بكرة أبيها.

لم يكن ما تبقى من حياة إيفان مختلفا عن شطرها الأول فقد إستمر على منواله في القتل والتعذيب ولم تفتر شهوته الجنسية البتة (وقد كان جنونه موضع شك أنه ناجم عن إصابته بمرض السفلس)، وعين كادرا إرهابيا، وغالبا ما كان يقتل على الخازوق[٢] السماسرة الذين كانوا يثيرون حفيظته. وحدث في أحد الأيام أن قتل في ثورة من ثورات غضبه إبنه الصغير وما كان ذلك بخسارة كبرى لروسيا فهذا الشبل من ذلك الأسد. بعدها تحدث إيفان بين الحين والآخر عن رغبته في أن يصبح راهباً، ووضع في أحد المرات تاجه على رأس أمير تتري من حاشيته مخاطباً اياه أنه أمسى قيصراً وحكم هذا الأمير لسنة كاملة. لقد فضل المئات من أهالي مدينة «ونلدن» في ليفونيا حرق أنفسهم في قلعة عالية بدلا من الموت على يد إيفان بعد أن اعلنوا تحديهم له. وكثيرا ما كان مستشاروه ومقربوه أول ضحاياه، لكن إحدى أكبر جرائمه وأبشعها حدثت حين علّق الأمير إيفان فسكوفاتي ورأسه الى الأسفل وقطّعه لشرائح حتى الموت ثم ذهب هو وإبنه منزل فسكوفاتي واغتصب إيفان الأرملة الحزينة المبتلاة بينما إغتصب إبنه الإبنة الكبرى.

(١) كتب ريمسكي كورساكوف اوبرا عن هذا الموضوع.
(٢) الخازوق: عمود طويل محدد الرأس يدخل في دبر المجرم فيموت عليه.

كان موت إيفان في عمر الرابعة والخمسين من عمره موتاً نموذجياً. فقد أصابه العجز الجنسي وشعر بالإرهاق والتعب والمرض، واستدعى عددا من العرافين ليلاطه فتنبأوا بموته يوم الثامن عشر من آذار سنة ١٥٨٤ ولا بد أن إيفان قد أبلغهم بحرقهم أحياء إذا ما بقي حيا بعد ذلك اليوم، جريا على عادته. وعشية اليوم الموعود أعاد اليهم وعده بحرقهم لو لم يمت صبيحة اليوم التالي فأشاروا اليه أن اليوم لا ينتهي إلا بغروب شمس يوم الثامن عشر. وفي اليوم التالي لعب إيفان الشطرنج مع بوريس كودنوف، احد سماسرته، لكنه ظل يخسر ثم سقط الى الخلف ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى فارق الدنيا.

كان إيفان أول القياصرة الذين وطدوا منهجا لم يتغير حتى سقوط آخر السلالات الحاكمة بعد أربعة قرون. . . . منهجا قائما على الفردية المطلقة والإضطهاد. ولا تدرك بعد لم لم يغتال أحد هذا الطاغية خلال سني حكمه الأول، فمن المستحيل تصور صبر روما على «كاليغولا»[1] أو «تيباريوس»[2] لأربعين سنة. والأغرب من ذلك أن حداداً عالياً وفعلياً أقيم على رحيله. لكن هذه الملاحظات الغريبة تلقي الضوء على بعض جوانب الشخصية الروسية. . . فهي قدرية، كسولة، فوضوية، عاجزة أشد العجز فيا يخص المثالية، طفولية وغير مسؤولة. ولم يقصد دويستوفسكي في كتابه «الباحث العظيم» بقوله على لسان الباحث ان الناس آثروا العبودية على الحرية، سوى الشخصية الروسية هذه. . . فالحرية عبء ثقيل جدا.

---

(١) كاليغولا: Caligula : امبراطور روماني (٣٧- ٤١). ابن اغريبينا وحفيد تيباريوس بالتبني. اشتهر بجنونه واستبداده. ثم اغتيل.

(٢) تيباريوس Tiberius : امبراطور روماني (١٤- ٣٧). خلف اوغسطس اباه بالتبني. اشتهر بحكمته السياسية وتنظيمه الاداري. تحول في آخر عهده الى التسلط والارهاب.

ولو صح الإفتراض القائل أن الأمة السعيدة هي الأمة التي لا تملك تاريخاً لأصبحت روسيا أتعس أمة بين الأمم لأنها عاشت تاريخاً مضطرباً دوماً وحكم «إيفان الرهيب» مثال على ذلك.

ترك ايفان روسيا منهكة القوى مشتتة الأقوام وأعقبت حكمه فترة من الاضطرابات والمشاكل أشبه بالسنين التالية لثورة اكتوبر سنة ١٩١٧. تولى الحكم بعده إبنه (فيودور) المختل عقليا واستمر حكمه سنوات قليلة، أمسك بعدها «بوريس كودنوف» زمام الحكم والمشتبه به في مقتل الأمير ديمتري -الوريث الشرعي للعرش- وقد لا يكون هذا سوى محض إفتراء فمن الظاهر أن بوريس كان رجلا مهذبا حصيف الرأي هادىء الطبع ويتمتع برباطة جأش وقوة شخصية فرضت إحترامها حتى على «إيفان الرهيب»، لكنه توفي بعد خمس سنوات وارتقى العرش بعده فورا رجل زعم أنه الأمير المفقود ديمتري. وبقيت هويته الحقيقية مجهولة دوماً وربما كان مأجورا للرومانوفيين، أعتى منافسي بوريس على العرش. لم يمكث في الحكم إلا فترة وجيزة اذ قتله بعض الرعاع الذين أرسلهم امير شويسكي أصبح قيصرا فور مقتل الأول والذي سرعان ما خلعته البلاد التي غطت في حالة فوضى عامة وعدم رضا. ظهر بعده اثنان زعم كلاهما أنه الأمير المفقود ديمتري- كان أحدهما عبداً شارداً اسمه «إيفان بولوتنيكوف». لقد قاد بولوتنيكوف تمردا فلاحيا لكن قسوته الشديدة مع مالكي الأراضي وعمالهم افقدته معونة أنصاره العسكريين. ولا نعلم على وجه الدقة ماذا حل به وهو أول فلاح قاد «حربا طبقية» وأقام منهج التمرد الذي أصبح شائعاً في روسيا من بعده. فيما لقب الآخر «بالسارق» وقد حاصر «شويسكي» في موسكو سنة ١٦٠٨ ثم قتله أحد أتباعه. حينها احتل العرش نجل ملك بولندي ممهّد الطريق أن يحتل البولنديون العاصمة موسكو وأغلب مدن روسيا

الجنوبية بينما احتل السويديون الذين دعاهم شويسكي لمساعدته ضد «السارق» مدينة (نوفوكورد). ولم يمض زمن طويل حتى ظهر مدع آخر في مدينة «بسكوف» غير أن الروس ملكوا الآن زمام الأمور وطردوا البولنديين من موسكو وشرعوا يبحثون عن قيصر جديد وجدوه في (ميشيل رومانوف)، وهو أحد أعضاء عائلة زوجة «ايفان» الأولى التي إختارها ايفان من بين الفي عائلة مرشحة تقريبا، لذا فان أربعة قرون من تاريخ روسيا قد اعتمدت على أختيار إيفان. لقد بدأ تاريخ الرومانوفيين بـ «أناستازيا» وانتهى بـ «أناستازيا» وهي الفتاة التي نجحت في الإفلات من رصاص الثوار في زنزانة «ريكاتيرنبيرج». وبين كلا الأناستازياتين كان هناك قتل واغتيالات ومؤامرات لا حصر لها وكثير من التمرد والعصيان كتمرد بولوتنيكوف. وظل شبح «إيفان الرهيب» جاثما على صدر التاريخ الروسي ليشيع القسوة وسفك الدماء ابد الدهر فيها.

غير مجدية محاولة ايجاز التاريخ الروسي للعقود الثلاثة التالية فهو تاريخ إضطهاد وتعذيب شمل أكبر قطاعات الشعب الروسي، بيد أن الميزة التي سيكون مستحيلاً تحجيم أهميتها هي القنانة[1] فمنذ هيمنة المنغوليين و ٩٥٪ من الشعب الروسي عبيدا في واقع الحال. فقد سن بوريس كودنوف عدة قوانين تربط الفلاح بمالك الأرض على أساس أنها قوانين طارئة أمدها خمسة أعوام يعتق بعدها الفلاح العبد. ثم مدد أول قيصرين رومانوفيين -وكان كلاهما واهنا- هذه المدة، حتى أبطلها اليكسيز سنة ١٦٤٩. وقد شهد العام الذي أعدم فيه شارل الأول في إنكلترا إحتضار الحرية في روسيا برغم المحاولة الواهنة والخائبة لإقامة حكومة نيابية في ظل حكم ميشيل.

(1) عبودية الأرض.

كان الرومانوفيون، عموماً، سلالة واهنة ما خلا بعض الإستثناءات أهمها «بطرس الكبير» إبن اليكسز. فقد أدخل بيتر النظام الأوروبي لروسيا وبنى شارع بطرسبورغ وأجرى كثيرا من الإصلاحات لكن الشيء الوحيد الذي لم يفعله هو ضمان قدر أكبر من الحرية للعبيد، وربما تذكر التمرد الشديد القسوة والعنف الذي قاده (ستينكا رازين)[1] والذي كان قاب قوسين أو ادنى من الاطاحة بعرش أبيه. ومع ذلك، يقول (ر. د. شارك) ان «بطرس الكبير» حكم روسيا «بعصا من حديد». لقد تعاطف العقل الغربي مع أجزاء من أسطورة «بطرس الكبير» الخاصة بحيويته وحماسه واهتمامه بالتكنولوجيا وتطوعه بالمشاركة في أي عمل يدوي. غير أنه إمتلك صفاتاً شرقية كصفات إيفان الرهيب. اذ قمع عصياناً عسكرياً بطريقة إيفان وقتل إبنه اليكسز، كما فعل إيفان بإبنه، ولكن ليس بفورة غضب بل بتعذيب مهد لمصرعه.

كان سيئول العرش بعد «بطرس الكبير» إبن اليكسز «بيتر» لكنه توفي بالجدري في صباه، فأمسى العرش لـ «آنا»، إبنة أخ «بطرس الكبير» والتي لم تتوان أن تكنّ نفسها بلقب «آنا الدموية». ولم تكن قسوتها فجائية وعنيفة كقسوة إيفان بل قسوة مسبوقة بحقد وغل طويلي العهد.

أصبح بعدها «بيتر الثالث»(احد احفاد «بطرس الكبير») قيصرا على روسيا. لقد كان جلفا، وحشيا وربما كان معتلاً عقلياً وعامل زوجته اليافعة -وهي فتاة المانية إسمها كاترين الذكية والمثالية- معاملة الخادمة فاتخذت لها عشاقاً كان أولهم (ساليتكوف) الذي قد يكون الأب الحقيقي لإبنها «بول». وهو ما يقود الى الافتراض أن أغلب القياصرة كانوا منذ حينها رومانوفيين بالإسم فقط. أما

(1) رازين: احد ابطال الأسطورة السوفياتية- خانه في النهاية أحد اتباعه وعذب عذاباً شنيعاً حتى الموت.

جورج اورلوف، وهو عشيق آخر، فقد أقدم على قتل زوجها في محاولة انقلاب لتصبح كاترين إمبراطورة روسيا. جلب حكمها الطويل الأمد كثيرا من المنفعة والإصلاحات لروسيا دون أن ينال منها الفلاحون بعضاً من الانعتاق. لقد خنق فيها تمرد بوكاتشيف (الذي سبق ذكره) المليء بالقسوة جميع ميولها الديموقراطية وزرع فيها انطباعاً أن الفلاح الروسي وحش بري لا يجب أن يخرج من قفصه الحديدي. فيما عمقت فيها الثورة الفرنسية هذا الإعتقاد وأغلقت حكمها في جو من الاضطهاد.

أعقب كاترين في الحكم مجنون آخر هو ابنها «بول» الذي لم تكن أعوام حكمه الأربعة إلا كابوساً أعاد لأذهان الشعب الروسي حكم «إيفان المريع». اتخذ جنونه طابعاً عسكرياً نذكر منه أنه أرسل ضابطاً الى منفى سيبيريا لارتدائه قبعته في زاوية خاطئة. لم ترد «كاترين العظيمة» أن يتولى «بول» العرش بل أرادت أن تتخطاه لصالح حفيدها الیكسندر الذي تولى الحكم بعد أن قتل بول في عام ١٨٠١ ومستهلاً بذلك «قرن الإصلاح»..... القرن الذي شهد دنو عهد آخر الرومانوفيين.

بدأ حكم «اليكسندر الأول» ميمونا للفلاح الروسي. فقد حلم بإقامة نوع من الحكومة النيابية وطلب من إبن قس قرية لامع إسمه سبيرانسكي وضع دستور لها. لكن حرب نابليون قلبت الأمر عاليه سافله وفقد سبيرانسكي مكانته فيما غدا اليكسندر مستبدا لا يقل عن بيتر أو كاترين ونادما على «ضلال عقله» أيام شبابه. كما أثقل كاهل الفلاحين بعبء جديد اذ فتح مستعمرات عسكرية يقوم نظامها على أساس عقوبات بربرية، ولم ينه حكمه إلا وأكثر من نصف مليون فلاح في تلك المستعمرات.

تحدث اليكسندر كثيراً عن نيته التخلي عن العرش ليصبح راهبا أو مواطنا بلا منصب في سويسرا. ويبدو أنه قرر تنفيذ ذلك في سن الثامنة والأربعين حيث ذهب الى تاكانروج وهناك أعلن أنه يعاني من مرض الملاريا. وقد ذكر طبيب يدعى «لي» أن جلالته كان يرفض بشدة أية مساعدة طبية، واستدعى قساً لإقامة «العشاء الرباني» لمرة واحدة فقط برغم أن اليكسندر «توفي» بعد أربعة أيام. وقد أجرى عشرة أطباء فحصاً عاماً على جثته وكتب طبيب البلاط الملكي (تارازوف) تقرير الوفاة. وجاء في مذكراته أنه إمتنع عن توقيع التقرير برغم أنه يحمل توقيعه، وهذا ما يدعو للاستنتاج أن تارازوف قد نسي أن يوقعه أو أن أحداً زور توقيعه. لقد بقي التقرير موضع شك فحالة الأعضاء الرئيسية لجسد اليكسندر لا تتطابق وحالة مريض مات بالملاريا فليس هناك تضخم في الطحال على سبيل المثال. تم دفن جسد اليكسندر باكفانه والقليل الذين أتيحت لهم مشاهدته قالوا أن شكل القيصر تغير الى حد بعيد. اذ كان لون ظهره وخاصرته احمراً أرجوانياً وهو شيء غريب لقيصر ابيض البشرة.

يفترض الرأي العام أن اليكسندر وضع جثة على جسده ليتسنى له الاختفاء. وبعد مضي أحد عشر عاماً، ظهر في سيبيريا راهب يدعى فيدور كسمش عده الناس قديساً وتوفي في سنة ١٨٦٤ عن عمر يناهز السابعة والثمانين -وهو نفس عمر اليكسندر لو بقي حياً-. لقد شيع في آخر سنة من حياة هذا الرجل الغامض أنه اليكسندر الأول بعينه وهي اشاعة قبلها المؤرخ (شيلدر) الذي كتب عن حكم اليكسندر. كما كتب (تولستوي) قصة عن الراهب «فيدور كسمش» أيد فيها فكرة أن مبدأ «الاختفاء» طرق عقل اليكسندر وهو يرقب مشهداً في تاكانروج يُجلد فيه رجل حتى الموت. وكان في الرجل شبه كبير بالقيصر، ومن الجدير بالذكر أن اليكسندر هو الذي سن قانون عقوبة الجلد

حتى الموت بواسطة تمرير جزء من الدرع على الجسد المحكوم في مستعمراته العسكرية. وهذا يفسر الكدمات التي على الجثة لكنه لا يفسر سر ذهاب القيصر الى ميناء منعزل منسي مثل تاكانروج، مما يرجح القول أن القيصر خطط لاختفائه مسبقا.

ثم في عام ١٨٦٥ ومرة أخرى خلال عشرينات هذا القرن فتح كفن اليكسندر فكان خاليا من جثة الرجل المكدم الذي كان يعاني من مرض السفلس (ومعروف أن اليكسندر كان معافى من هذا المرض) وربما حدث ذلك نتيجة تواطؤ الدكتور تارازوف.

يرى (موريس باليولوج)، الذي كتب سيرة حياة اليكسندر الأول، في فيدور كسمش ليس بالقيصر ويؤكد أن اليكسندر مات في دير في فلسطين. من هنا سنصل الى نتيجة مفادها أن «القيصر الغامض» - ناهيك عما حدث له - لم يمت في تاكانروج سنة ١٨٢٥.

لا تعدو قصة نهاية اليكسندر الأول أن تكون غير نموذج روسي اعتيادي، فذاك (ايفان الرهيب) مثلاً قد مات راهباً برغم أن مراسيم تحوله لراهب جرت وهو يحتضر في غيبوبة الموت. إن الروسي وليس سواه قادر أن يبدأ حياته كمصلح فرجعي تميزه قسوته ثم ينهيها كـ «ستاريتز» مجهول الهوية. ويبدو أيضاً أن الروس يشمون دائما ما يبدأون. جاء العرش بعده نيقولا، شقيق اليكسندر الأصغر وكانت أول مهامه قمع ضباط انتفاضة ديسمبر. وتولى بنفسه، كباقي القياصرة الرومانوفيين، استجواب قادة التآمر بلطف مبالغ به أوقع بهم جميعاً وأداتهم بقولهم وأمر بشنق خمسة من قادتهم. إن هذا اللطف والقابلية على المراوغة إحدى الصفات التي تميز بها العديد من القياصرة الرومانوفيين بما في

ذلك آخرهم.

يبدو أن سخرية القدر رافقت التاريخ الروسي فحيثما تظهر بوادر إصلاح من جانب حاكم ما يظهر تمرد ما لوأدها وأعاد خلفاً عقارب الساعة وهذا هو ما حدث مع نيقولا الأول. فلم يأت عصيان ديسمبر إلا بمزيد من القسوة والبربرية الى روسيا. ووراء هذه الواجهة القمعية تكمن اللاكفاءة والكل الروسي- (وقد عبر عن ذلك (غوغول)[1] أحسن تعبير في روايته «النفوس الميتة» و «مفتش الدولة»). لقد كبتت الرقابة الآمال الحرة وربما وقف هذا القمع وراء ولادة العصر الذهبي للأدب الروسي. اذ كان اليكسندر طاغية مهزوزاً فيما كان نيقولا عسكريا أحمقاً من نفس طراز القيصر المقتول (بول). إنها الحماقة التي وهبت روسيا أعمالا رائعة لـ (بوشكين)[2] و (غوغول) ومسرحيات لـ(اوستروفسكي)[3] واوبرا لـ (غلينكا).

خلف نيقولا الأول اليكسندر الثاني الذي كان عسكريا أيضاً ولكن بأقل عنادية. أن تاريخ الرومانوفيين هو سلسلة متصلة من القياصرة فيهم من هو ماضي العزم وفيهم من هو واهي العزيمة. ويبدو أن نهاية اليكسندر الثاني ليست أقل مأساوية عن نهاية حفيده نيقولا. فقد استهل حكمه بالرغبة في الإصلاح واتخذ في هذا الشأن خطوة جبارة ألغى فيها نظام القنانة، بيد أنه

(١) غوغول (نيقولا) Gogol : (١٨٠٩ - ١٨٥٢).
كاتب روسي له العديد من الهزليات والروايات.

(٢) بوشكين (اليكسندر) Pouchkine : (١٧٩٩ - ١٨٣٧).
شاعر روسي من رواد الأدب الحديث. نفي لميوله السياسية. له قصة (اوجين اونيغين) صور فيها الحياة الروسية مطلع القرن التاسع عشر.

(٣) اوستروفسكي (الكسندر) Oustrovski : (١٨٢٣ - ١٨٨٦).
مؤلف مسرحي روسي.

العتاق لم يكن إلا وجهاً آخر للعبودية. فهو أجاز الفلاح شراء الأرض التي يعمل عليها ومهّد لمالكيها رفع سعر الأرض ليحرموا الفلاح من نعمة ملكيتها فحدث أن حصل الفلاح على نصف الأرض بدلاً من أن يوزع كل الأرض لسيده ويأخذ منها قوته للعيش. ولم يدرك الفلاح أن هذا «التحرير» ليس سوى شكلاً من أشكال الإستغلال فهو يزرع نصف الأرض ليأخذ محصوله منها مع إضافة عبء مالي عليه.

تعرض أليكسندر لأولى محاولات اغتياله بعد صدور قانون تحرير العبيد سنة ١٨٦١ مباشرة، عندما حاول شخص ما إطلاق النار عليه وهو في عربته عائداً من «الكريملا». كما شهدت السنتان التاليتان محاولتي اغتيال وأوشكت محاولة إغتيال أخرى قام بها طالب في ذكرى إغتيال لنكولن على النجاح حين إقترب من القيصر، الذي كان يقوم بتجواله اليومي، مصوباً عليه مسدسه لكن عابر سبيل أفشل المحاولة.

وحدثت محاولة إغتيال أخرى سنة ١٨٦٧ عندما صوب شخص مسدسه على القيصر وهو في موكبه في باريس بصحبة نابليون الثالث وملكي بروسيا وبلجيكا، لكن الرصاصة الأولى أصابت أحد الجياد ثم إنفجر المسدس في يد المهاجم وهشمها.

شرع المتآمرون على حياة القيصر باستخدام الديناميت بعد أن جرّبوا الرصاص فكان أولهم في ذلك إرهابي يدعى «زليابوف» الذي وضع حمولة من النتروكليسيرين على خط سكة حديد ليتحطم القطار شيذراً مذراً. لكن عربة مرت وقطعت سلك الإتصال فلم يحدث شيء عندما ضغط زليابوف على زر التفجير. ثم حاول ذات الإرهابي محاولة أخرى فحفر لنفسه ملجأ بعمق ثمانين

يارده ووضع المتفجرات تحت خط سكة الحديد فتفجر القطار الذي لم يكن يحمل للأسف سوى متاع القيصر الذي غيرّ موعد سفره ووصل موسكو قبل حدوث الإنفجار. وبعد مرور شهرين وتحديداً في شباط ١٨٨٠ حدث إنفجار هائل هدم قسماً من القصر الشتوي للقيصر الذي كان القيصر سيتناول فيه عشاءه لولا تأخر وصول أحد الضيوف. ثم أدخل نجار بالسر حمولة ديناميت يصل وزنها مئة كيلوغرام الى القصر الملكي واخفاها في موقد صالة الطعام والتي زرعت إنفجارها لدى أهل شارع بطرسبورغ الذعر، لا حرصاً على سلامة القيصر بل على سلامتهم ومنذ حينها تجنبوا الذهاب للأوبرا إلا إذا تيقنوا أن القيصر لن يحضرها..

عززت محاولات الاغتيال تلك تحفظية القيصر وتعاظم معها تشدد الشرطة وصرامة الرقابة. لكن القيصر كان يحمل يوم مقتله في الأول من آذار سنة١٨٨١ خطة إمبراطورية مقترحة كخطوة أولى على طريق إقامة حكومة نيابية. لقد ألقت الشرطة في اليوم السابق لمقتله، القبض على الإرهابي زليابوف مما أشاع السكينة في نفس القيصر. لكنه سلك عند عودته لقصره من جولة تفتيشية لاحدى الفرق العسكرية، طريقاً غير الذي تعود المرور فيه، فيما قام أعوان زليابوف، من باب الإحتياط أيضاً، بزرع عملائهم في جميع الطرق المؤدية الى القصر. وإذ مرت عربة القيصر التي أحدقهم بقنبلة حطمت باب العربة وأصابت مرافقه الخاص وغلاماً معه فخرج القيصر جزعاً من العربة ليرى حارسه الجريح، فانفجرت قنبلة أخرى وراءه. صرعت المغتال وقطعت ساقي القيصر. وبعد مرور ساعة تقريباً أسلم القيصر الروح في قصره بين أفراد عائلته.

ليس من الغريب أن يشرب مشهد موت كهذا الضغينة في نفس إبنه اليكسندر الثالث رفض معها أية فكرة إصلاحية. وكل ما نجح فيه المتآمرون

تعميق القوة عليهم فشنق القيصر المتآمرين وكلف رئيس الشرطة (ف.ك. فون بليهف)- الذي أغتيل لاحقا بقنبلة- بتمشيط البلاد والقضاء على جميع التنظيمات الإرهابية في روسيا. وأعلن اليكسندر إيمانه العميق بمبادىء الإستبداد المطلق في مذكرة كتبها الديني الرجعي (بوبيد ونوستيف) والذي أضحى الكردينال الأشيب»[1] للقيصر. واتخذ نظام جديد للرقابة تلاشى معه أدنى بصيص أمل للإصلاح. كان التزارفيتش[2] اليكسندر رجلا جبارا قوي الشكيمة، كما يصفه بيرس، جد الفكر العام بيد أنه عاش مسكونا برهاب الإحتجاز[3] فقد إعتلى ابوه السلطة وهو في الثالثة عشر من عمره كما يعتلي الجندي جبلا متصدعا ورأى أبيه طيلة الثلاثة عشر اللاحقة وهو يحكم بعصا من حديد، لكنه عاش دوماً شبح الخوف على حياته فأمضى حياته سجين قصره. أتاح اليكسندر الثاني لأعدائه فرصة النيل منه بتجواله منفردا بين صفوف العامة وعدم تشدده في إقامة نظام امني صارم، لذا عقد إبنه العزم على أن يكون محصنا فعاش محاطا برجال شرطته الذين كانوا أشداءا يتمتعون بسلطة قمع وكبح أي بادرة تمرد. وأسس قوة أسماها «قبطان الأرض» في المناطق الريفية والتي لم تكن، في الواقع، إلا تشكيلات شرطة لها قوة بطش ولديها صلاحية قمع أي عصيان، مهما كان ضئيلا، بقسوة بالغة. ومع ذلك لم توقف هذه الإجراءات محاولات إغتيال القيصر في فترة حكمه. فقد خرج القطار الإمبراطوري، سنة ١٨٨٨، عن خط سكة الحديد في ظروف غامضة. وبرغم إعتقاد الكثير من المؤرخين أن هذا الحادث تسببه رداءة العوارض الخشبية للسكة الحديدية، «فان جارلس لوء يسجل في كتاب عن اليكسندر الثالث قائلا:-

(١) منصب رفيع المقام في البلاط الروسي.
(٢) التزارفيتش: هو وريث العرش.
(٣) الخوف المرضي من الأماكن المغلقة او الضيقة.

تهاوت عربة القيصر أشلاءا مبعثرة وترامى خدمه المخلصين على الأرض بين ميت ومحتضر وعندما طافت عيناه باحثة عن أطفاله وفي نفسه خشية عظيمة على حياتهم... طوقته إبنته الصغرى بذراعيها وهي مذعورة قائلة: «آه يا أبتاه، سيأتون الآن ليقتلونا جميعا».

ليس من المعقول أن دمارا مأساويا كهذا نجم عن رداءة عوارض خشبية. لقد حبس القيصر نفسه في القصر الذي قتل فيه بول الأول خائفا من تناول اي لقمة لم يطبخها طباخوه الفرنسيون، محروما من ممارسة اي نوع من أنواع الرياضة ومدمنا بالمقابل على تناول الوجبات الثقيلة لذا فليس من الغريب أن يموت قبل أوانه سنة ١٨٩٤ وقد حطمته محاولته اليائسة للهروب من التاريخ والقدر المحتوم.

كان إبن القرية كريكوري راسبوتين ولما مات اليكسندر الثالث جوالا في سيبريا بهيئة « ستارتيز ». وقد حضر نيقولا الثاني ذو الوجه المصفر والخلق الدمث والمتذبذب مراسيم الجنازة مع فتاة جميلة حزينة العينين سيتزوجها لاحقا، وكانت خجولة، عصبية، متدينة ومحبة لزوجها بنفس الإخلاص في الحب الذي يحمله هو الآخر لها.

استعد آخر مشهد للمأساة أن يبدأ قريبا. ومن الأجدى لـ «ر.د. شارك» ان يسمي هذا الفصل عن تاريخ روسيا «حصاد الرياح».

الفصل الرابع

كان الله في عون روسيا

كانت مدينة بطرسبورغ -عندما قدمها راسبوتين سنة ١٩٠٥- مدينة الغموض الموحش والغاطة بأشباح الماضي باغتيالاته واضطهاده ووحشيته. وها هو تولستوي يطل علينا في روايته «ووديل» مجسدا صورة نابضة بالحياة عن هذه المدينة فيقول:- مر قرنان من الزمان مرور الحلم .... وبطرسبورغ[1] واقفة على حافة الهاوية غارقة في مستنقع الوحشية تحلم بقوة لا يكبحها حد ويجد لا يزول... فتمردات البلاط القيصري والإغتيالات والإنتصارات والإعدامات الدموية انقضت وكأنها لم تكن إلا إنفعالا وقتيا عفا عليه الدهر.

لقد إستغلت ضعاف النساء قابلياتهن شبه الالهية في تسيير أمور الحياة، وتقرير مصير أمم بأكملها في المخادع الساخنة المشبوبة بالعشق والغرام. وسار بجسارة وإقدام شباب تشحذهم هممهم بعد ان ترك الحرث والكدح على ايديهم آثارا لا تمحى ليرتقوا سلم العرش ويقاسموا السلطة.... ويتدثروا في مخدع الملكات والتقلب في ترفهن البيزنطي....

عاشت بطرسبورغ حياة قلقة، باردة، متخمة بكآبة موحشة تعج بليالي الصيف المضيئة، الشهوانية، المجونة وليالي الشتاء الأرقة بين طاولات القمار

(١) بطرسبورغ هي مدينة لينغراد ثم استعادت اسمها في عام ١٩٩١ وسميت مدينة القديس بطرسبورغ.

الخضراء وخشخشة اللعب والموسيقى التي يدور معها الراقصون من خلف النوافذ وعربات الترويكة[1] والغجر الوافدين والمبارزات التي تجري مع إنبلاج الصباح . . . . .

تأسست في الأعوام العشرة الأخيرة شركات ومؤسسات كبرى اخرجت في وقت قياسي رؤوس أموال بملايين الروبلات، واقيمت مصارف وصالات موسيقى وساحات تزلج ومساكن عمومية من الكونكريت والزجاج وفيها يشغل الناس أنفسهم مع الموسيقى والنساء العاريات والضياء والشمبانيا. . . . وسرى في المدينة وباء الإنتحار فعجت المحاكم بنسوة مصابات بالهستيريا يستمعن بلهفة الى التفاصيل الدامية البشعة للجرائم، وغدا كل شيء سهل المنال. . . النساء والأغنياء. . . . فشاعت الفاحشة والرذيلة في كل مكان.

هنا وصل فلاح امي ذو عينين ساحيتين وقوة رجولية هائلة الى أعلى مراتب الحظوة لدى القيصر . . . . مقتربا من العرش الإمبراطوري، ساخرا ومستهزئا وشارعا في حيله الشائنة على روسيا باكملها وكأنها لعبة في يديه . . . .

لم يبالغ تولستوي في قوله إلا قليلا. فهي قد تغيرت حتى ليجد من شيدها (بطرس الكبير) صعوبة في التعرف عليها لو بقي حيا وربما صحت طرفة كليمنصو[2] في أمريكا على مدينة بطرسبورغ فهو يقول أنها الامة الوحيدة التي اجتازت مرحلة البربرية الى مرحلة الإنحطاط دون المرور بمرحلة التحضر.

ادركت بطرسبورغ نشاطاً فنياً مفعماً، وبلغ فيها الأدب والموسيقى

---

(١) عربة روسية تجرها ثلاث جياد متراصة.

(٢) كليمنصو (جورج) Clemenceau (١٨٤١-١٩٢٩) صحفي وسياسي فرنسي، شغل منصب رئيس الوزراء سنة ١٩١٧ - واحد مهندسي انتصار عام ١٩١٨- لقب بابي النصر، وقع معاهدة فرساي سنة ١٩١٩.

الروسيين أوج عظمتها لكن نهايتها أثمرت إزاهير غريبة وملموسة، فأغلب أعلام الفن الروسي قد غادروا الدنيا أمثال دويستويفسكي، تشيخوف، تورجنيف، تشايكوفيسكي، ميسورجسكي، وبورودين ولم يبق من الأفذاذ إلا اثنان هما: تولستوي وريمسكي كورساكوف وكلاهما شجع الميل الصوفي واللاواقعي لأهل الفكر في بطرسبورغ، فتولستوي قد شهر فلسفته التي تعتمد اللاعنف، فيما ساند ريمسكي كورساكوف هذا الميل بطبيعة اوبراه الأخيرة المسماة «مدينة كيتش اللامرئية» التي بلغ فيها ذروة التصوف معبرا فيها عن أصدق الملحمات الروسية .

من جهة أخرى يرتع جيل الشباب من الكتاب مثل كودكي انقلابيون اجتماعيون، برغم ان اغلبهم ظنوا بانفسهم انقلابيين في الفن فانغمسوا لهذا السبب في رمزية مبهمة وتشاؤمية حالة خيالية. ولعل اليكسندر سكريابين كان الأكثر جدلا في عصره والذي آمن أن الموسيقى ستتحد يوما ما مع مختلف الأشكال الفنية الأخرى لتخلق تجربة فنية عظيمة القدرة، يصبح الناس بفضلها آلهة أو أشباه الآلهة بمجرد الإنصات اليها -لكن موسيقاه في الواقع لم تصل الى هذا الحد من الإبداع وعناوينها دليل على ذلك : قصيدة نشوة، قصيدة الحية، قصيدة النار. فهي موسيقى تخلق نشوة حالة مستمرة أشبه بالرغبة الجنسية المحمومة التي لن تصل الذروة ابداً. . . . موسيقى شهوانية، موهنة للأعصاب والقوى الحسية. وسكريابين نفسه كان شخصا أنانيا متعاليا الى حد بعيد وخليعا لم يعمر بنائية وانتهت حياته في ١٩١٥ بسبب بثرة على شفتيه .

كان أندرييف وارتسيباشيف من بين أكثر الكتاب شعبية في روسيا وطبع أدب كليهما بحسية تشاؤمية معينة. لكن الأخير افتتح سجله الأدبي بتفاؤلية أشبه ما تكون بتفاؤلية بطل نيتشه في رواية «سانين» الذي يزدري الأخلاقية

اللاصحية لمعظم الروسيين ويدعو الى فلسفة تعتمد الصراحة والوضوح الحسي.

كان لهذا الكتاب المطبوع سنة ١٩٠٦ أثر كبير على الشباب الروسي الذي كان تواقا لوضع أفكاره موضع التنفيذ. وهو الكتاب لا غيره الذي تقع عليه المسؤولية الأكبر في شيوع الفاحشة والرذيلة. لكن ارتسيباشيف نفسه كان نموذجاً للإنسان الروسي الذي سخر منه «سانين»، فيما ساد الإنتحار والحسية الكئيبة في ثنايا روايتيه الإثنتين الباقيتين، أن أرتسيباشيف لشخصية غريبة الأطوار تستحق اهتماما اكبر مما أولته اليها البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية.(١)

أما ليونيد أندرييف فكان أكثر تشاؤما وأشد تعبيرا عن الروسي النموذجي من أرتسيباشيف. وفي ذلك اسهب غوركي في الحديث عن جدل أندرييف الشهير وولعه بفكرة الإنتحار، ونوبات المرض التي كانت تنتابه لايام عديدة والناجمة عن إفراطه في شرب الخمر، وعربداته مع المومسات والتي لم يكن يعتبرها الا نوعا من عقاب الذات. لقد تطلع اندرييف الى الحياة فوجدها مجرد سراب وهزيمة . . . فما هي إلا لعبة بالغة السرية صاغتها المعمورة منذ غابر العهود وكان على الإنسان الصادق مع ذاته الإنسانية النابت الخطى قتل نفسه مبكرا للتعبير عن امتعاضه ورفضه لهذه الخديعة .

يطلق أفضل وصف لبطرسبورغ عندما جاءها راسبوتين لدى (أندريه بيل) في روايته «مدينة القديس بطرسبورغ»، الصادرة سنة ١٩١٣، والتي تعالج قضية صراع بين أب بيروقراطي وابن إرهابي: حيث يتلقى الإبن أوامر بقتل ابيه ثم تسير أحداث الرواية في جو من الغموض أقرب الى الكابوس. . . . لتنتهي بقنبلة موقوتة موضوعة في علبة سردين. لقد استعان الكاتب كثيرا بالعنصر

(١) اقرأ ايضاً (قوة للاحلام) و (اصول الدافع الحسي).

الآسيوي العنيف واللاعقلاني المطمور داخل الشخصية الروسية حين ألمح الى انحدار الأب والابن من سلالة التتار وليؤكد في هذا قول نابليون: «اخدش روسياً وسوف يظهر لك بشخصيته التاريخية». أن خلف بطرسبورغ راسبوتين قنبلة أخرى توشك على الانفجار في أية لحظة . . .

ليس من الغريب، تحت ظروف كهذه، أن تكون بطرسبورغ نيقولا الثاني مدينة الإنحلال الخلقي والجنسية المباحة برغم وجود قدر كبير من الصوفية الدينية التي عجلت بدورها في هذا الإنحطاط. فهي تضم عنصر اللاأخلاقية ومثالا لذلك الفكر الديني الأكثر تأثيرا حينئذ (ف.ف. روزانوف) والذي كان صحفيا سياسيا ايضا فهو قد اعدّ السياسة ليست بذي شأن فتراه يكتب لصحيفة محافظة مقالا بإسمه الحقيقي ثم يكتب مقالا ثوريا تحت إسم مستعار. . . نتيجة لذلك غدا الخلق القويم ضرورة حياتية يمكن الإستغناء عنها بسهولة ويسر .

لقد تحولت بطرسبورغ، في نصف قرن، من مدينة البيروقراطية والنظام العسكري الصارم الى مدينة الفن والشعور الخلقي، فزخرت بالأثرياء الذين يمتلكون حسا فنيا كالمليونير بيلاييف الذي مول الموسيقار سكريابين، وماموتنوف النصير المتحمس للأوبرا والذي روج لفيودور شاليابين، أعظم مغني أوبرا في العصر الحديث، وكان هناك أيضا سيرجي دياكليف الذي بدأ مشواره الفني بطباعة جريدة فنية باهظة الثمن والذي يعود الفضل لباليه في إضفاء سحر فني جديد لروسيا. إكتشف دياكليف موهبة تلميذ لريمسكي كورساكوف يدعى سترافينكي وأولى بعدها اهتماما وتشجيعا أكثر لسيرجي بروكوفييف، وهو المسؤول عن تقديم الراقص المبدع فاسلاف نيجنسكي الى بلدان العالم الأخرى .

إن قصة حياة نيجينسكي توضح بشكل دقيق أهم ميزة لبطرسبورغ في العقد الأول من القرن الحالي: ينحدر نيجينسكي من عائلة فقيرة لكنه حصل على زمالة دراسية في المدرسة الامبراطورية للرقص، فوجد نفسه في أواخر سني صباه مندمجا بالحياة الإجتماعية الصاخبة للعاصمة. وفي ليلة ما، زار نيجينسكي وصديقه اناتول بورمان قصر الأمير يوسيوف(والد الرجل الذي قتل راسبوتين في النهاية) والذي حوله الأمير الى صالة قمار وناد «للفنانين - ويبدو أن الحكومة أيدت قيام مثل هذه المؤسسات الخاصة بدافع توفير وسائل الربح السريع لتهدئة الوضع الشعبي القلق - ربح بورمان ونيجينسكي خمسمائة روبلا واقترح الأخير إنفاقهما في دعوة بعض الغانيات للعشاء، فالتقطا ست مومسات قذرات وذهبا الى مطعم متواضع حتى لا تشعر النسوة بأن المكان أرفع من مستواهن. طلب بعدها نيجينسكي عشاءاً فاخراً من خارج المطعم. إنقضت النسوة على الطعام بنهم بالغ مسبب غضبانا لنيجينسكي وبورمان فامتنعا عن الأكل. وما أن اكملن طعامهن حتى بدأن الاغواء وعندما رد بورمان إحداهن حاولت ضربه بزجاجة الخمر لكن نيجينسكي إنتزعها من يدها. ثم وزعا ما بقي لديهما من المال وهربا. سأل بورمان صديقه عن سبب إصراره على دعوة هؤلاء المومسات فاجابه برغبته في مشاركة ثروته الجديدة مع بؤساء الناس اللذين كثيرا ما كان يشفق على حالهم وهو في طريقه للمسرح، لكنه قال في النهاية بأن الأمر كان فظيعا وأنه لن يعيد الكرة مطلقا .

تجلى عدم تماس غريب بين الطبقتين العليا والدنيا في المجتمع الروسي لم تراب صدعه حتى النوايا الطيبة، وهذا هو السبب الاكبر وراء إندلاع الثورة في روسيا. فربما احب الروس قيصرهم وربما عبدوه لكنه لم يكن اليهم قريبا كحالة بعض ملوك إنجلترا.

لم يلق نيقولا الثاني - ولسوء الطالع - حباً من غير افراد عائلته، بل تحول ضده حتى لطفه ورقته وسحر جماله والتي غلب فيها غيره من القياصرة. كان ابوه مستبدا عصبيا لكن وزراؤه عرفوا في اقل تقدير على أية أرضية يتعاملون فيما لم يكن نيقولا قويا ولا ضعيفا بل استسلامياً مع شيء من الصلابة والعناد. كتب بيرس قائلا:-

لقد زرع في وزرائه حين يستقبلهم انطباع رضاه التام عما يفعلون، وهو انطباع جعل منه سحر شخصه الفريد قناعة لديهم. ولم ينطق مرة وهم بمعيته بنت شفة قد تعكر صفوهم ثم تأتي المفاجأة الكبرى حيث يتلقون رسائل إقالتهم من مناصبهم عن طريق البريد بعد هذا اللقاء مباشرة ......

ثمة حكاية تجسد تذبذب شخصية القيصر: كانت روسيا تحاول تسديد قرض فرنسي. وهنا زار مصرفي فرنسي يدعى (نيتزلين) القيصر واوضح له اهمية إجراء بعض التنازلات للشعب ليتجنب ثورة ستندلع بلا ريب. لقد سر نيتزلين باستقبال القيصر له واللطف الذي احتضنه به فظن انه نجح فيما فشل فيه الآخرون. لكنه فوجيء بسَن القيصر قانونا يؤكد فيه سلطته المطلقة بدل إحداث إصلاحات شعبية. ولم يفاجأ وزرائه بذلك فهم لا يتوقعون منه غير هذا .

وقع نيقولا وهو يافع في غرام (اليس) أميرة « هيس » وحفيدة الملكة فكتوريا. كانت فتاة رقيقة خجولة وفيها مسحة حزن . وقد تزوج الإثنان رغم المعارضة العائلية الشديدة فأصبحت الأميرة اليس، التي نشأت كإمرأة انكليزية، التزارينا[1] اليكسندرا. لكنها لم تتوافق تماما مع حياة البلاط: فهي اقل ثقة بنفسها من قلة ثقة القيصر بنفسه، مزاجية وعصبية ويتحول خجلها احيانا الى هستيريا.

(١) التزارينا: لفظة مشتقة من (التزار) وتعني زوجة القيصر.

كانت تكره الأحاديث العابرة وغالبا ما تركت لدى زوارها إنطباعا انها راغبة عن وجودهم. كما لاحظت سيدات البلاط جبنها وترددها. ويروى أن رزمة اوراق سقطت من يدي تاييف رئيس المحكمة الإمبراطورية العظمى وهو في حضرة التزارينا فانحنت على الفور لإلتقاطها ثم تنبهت لفعلها فاحمرت خجلا.

كانت والدة القيصر أشد المعارضين لهذا الزواج ولم توافق عليه إلا وزوجها على فراش الموت. لكن حباً لزوجة ابنها لم يدخل قلبها وباتت للملك خصمها في البلاط القيصري وجعلت من انتقادها محور أحاديثها مع سيدات البلاط. لقد تجنبت اليكسندرا الظهور الإجتماعي قدر الإمكان مما حرمها من وجود دعم كبير لها. من جانب آخر لم يعد البلاط مركز الحياة الإجتماعية في بطرسبورغ بل اتخذت مكانه صالونات سياسية قليلة الأهمية مما عمق إنتشار المكر والخديعة والغموض. وبالتالي شعر نيقولا وزوجته بأنهما محاطان بالأعداء من كل صوب فأمضيا جل وقتهما في «تزاريسكو سيلو» حيث يسبحان في جو من الشاعرية يمنحهما سعادة لا حد لها. لقد كلل النجاح زواجهما -من وجهة نظرهما في اقل تقدير- فهما لم يكفا عن الحب والمودة والوصال أما روسيا فقد رأت في هذا الزواج كارثة عظمى: فالقيصر رجل متذبذب ولا مسؤول وما يؤكد هذا القول كارثة هودينكا التي وقعت يوم تتويجه. فلو ملك قدراً أكبر من الإحساس لما تردد في إيقاف سير الإحتفالات فورا. وعندما وصلته أنباء اندحار الأسطول الروسي في «تسوشيما» علق قائلا « يا لها من كارثة رهيبة» ثم واصل لعب التنس. وهذا دليل انه قد أطّر احساسه ليدرك هواجس وخلجات عائلته فقط... وظل يعيش في عالم احلام اليقظة.

لم يكن هذا الأمر لينال أهمية تذكر لو تزوج نيقولا امرأة أخرى. فالتزارينا كانت تدور في فلك ذاتها أكثر من القيصر وهي لم تكف عن طلب حماية واهتمام

الآخرين بها وحينما أخذت مشاغل الدولة القيصر في بداية زواجهما وصرفته عن مراضيات زوجته، شرعت في الشكوى المستمرة من وحدتها ونجحت أن تزرع في نفس القيصر شعوراً جعله يصب جمّ طاقاته لمصلحة عائلته لا لمصلحة البلاد. فغدا نيقولا منذ ذلك الحين ربيع حياتها الدائم وقد كانت شديدة الخوف على منصبه لذا كانت ترفض أي إقتراح سيحجم ملكه بدستور معين ويحد من حريته المطلقة. كان نيكولا «نيقولاها» الذي يجب أن يظل شاها للأبد. إن إمرأة أخرى سوية إنبساطية[1] مكانها كانت ستدرك الوضع وحرجه لكن الكسندرا كانت كالدجاجة الراقدة على بيضها.

تكمن المشكلة في أن نيقولا كان بمزاج يتوافق ورغبته في اقامة ملكية دستورية -كما اشار للملك سير برنارد بيرس. فهو يعرف كيف يقيم المواقف ويتخذ القرار، لكنه سيغير من رأيه في غضون خمس دقائق. ولو تيسر له رئيس وزراء قوي الشخصية كما كان صديق ابيه «وت»، لأضحى قيصرا عظيما. إلا انه أرخى الحبل لزوجته لتقوده حيث تشاء.

باتت النتيجة الحتمية لتلك السلوكية أن يكون النصف الأول من فترة حكمه مشوشاً وقاصراً... بدأه بسحق الطموحات التحرريه الرامية الى تشريع دستور للحكم معلنا بأنه سوف يسير على نهج أبيه في تطبيق مبدأ السلطة المطلقة واصفاً الطموحات الشعبية في إقامة دستور بالأحكام اللامنطقية».

يكمن أهم اسباب معارضة زواجه في كاثوليكية الأميرة (أليس). لكنها وبرغم ذلك إعتنقت المذهب الأرثذوكسي واصبحت له أشد المتعصبين في زمن

(١) الانبساطي: شخص يتوجه باهتمامه واشواقه اتجاها كلياً او شبه كلي نحو ما هو خارج عن الذات.

قيامي، وربما عمقت خيبة أملها في أول سني زواجها ميلها الصوفي هذا لكن الحماسة الدينية تسري في عائلتها اذ أوجدت أختها اليزابث، المتزوجة من الوحشي نصف المجنون الغراندوق سيرجيوس، نظاماً اصبحت بموجبه رئيسة دير للراهبات عقب إغتيال زوجها. ولم يمض وقت طويل حتى إمتد إهتمام التزارينا بالمذهب الروحاني وبجلسات تحضير الأرواح بفضل تشجيع صديقتيها ميليتسا واناستازيا. لكن جذوة الرغبة هذه سرعان ما تبددت لظنها فيها إنها لا يرضي الرب بينما زاد إهتمامها بالجانب الصوفي الخاص بالسحر والتنجيم.

أنجبت التزارينا بحلول عام ١٩٠١ أربعة إناث، دون أن تلد وليداً ذكراً للعرش القيصري، وبات هذا الموضوع للقيصر وزوجته الشاغل الأكبر لتفكيرهما. وظنت التزارينا أن أعداءها قد اتخذوها لهذا الأمر مدعاة للسخرية. وهنا دعت الغراندوقة ميليتسا «صانع معجزات» فرنسي يدعى فيليب نيزير فاكوت وهو ابن قصاب قرية التقته ميليتسا عندما كانت في «كومبين» وتأثرت بقدرته الفائقة على التنويم المغناطيسي فأقنعته بالقدوم الى روسيا. وهي قد عرّفته على أثر مجيئه لروسيا للقيصر وزوجته بصفته «الرجل المقدس المخلص». لم يكن فيليب طبيبا بالمعنى الفعلي لكن ميليتسا أقنعت القيصر أن يمنحه لقب الطبيب العسكري ومستشار الدولة لتكتسب ممارسته الطب في روسيا صفة شرعية. قالت له التزارينا أن يكون لي غلام فأخبرها أن لها أن تنشد ذلك وسيهبها اياه باستخدام قواه السحرية الغامضة. كان يملك في الايحاء قوة حملت معها التزارينا حملا وهميا فانتفخت بطنها وارتدت لأجل ذلك أثواب الحمل. بيد أنها لم تر وليدها الموعود ثم أخبرها طبيب البلاط بعد أن فحصها بأنها لم تكن حاملاً أساساً. لم يخدم هذا الإخفاق سمعة التزارينا في روسيا وإتخذه أعداؤها مبررا للزعم بانها هستيرية تماما. وانتهى الأمر باعادة فيليب الى قريته ليون محملا

بالهدايا -فالقيصر وزوجته كانا على جانب كبير من اللطف والطيبة يجعلهما لا يحملان أي ضغينة له -ثم توفي بعد ذلك بقليل.

غص بلاط القيصر بصانعي المعجزات والعرافين فظهرت إمرأة معتوهة إسمها (داريا أو سيبوفا) خالوا في ثرثرتها وهذرها من وحي الله، وكان هناك ايضا رجلا «ميروكا» آخر، أعرجاً مبتور الذراعين وذا حنك مشوه اسمه (ميتيا كوليابين)، جاء من منطقة دير (اوبتيا بوستين) والتي وصفها دويستوفيسكي في روايته (الأخوة كارامازوف). وقد لاحظ قسّ الدير أن هذره يأتيه (وهو في نوبة صرع) أشبه بالتنبوءات تولى ترجمتها قندلفت[1] اسمه (ايغوروف) أصبح فيما بعد رفيق كوليابين.

وصل كوليابين البلاط وطلب اليه أن يتنبأ نصيب التزارينا من إنجاب وريث للعرش فغاب مترنحاً في عالم آخر ثم شرع بصراخ سبب هلعا للتزارينا. لكن ايغوروف أوضح الأمر قائلا بأن الوقت لم يحن بعد للتنبوء بموضوع كهذا. ومع ذلك استمرت التزارينا في لقاءاتها بكاليابين وسجلت آخر مقابلة بينهما في عام ١٩٠٦.

ضاق الأسقفان هيرموجن وتيوفان ذرعاً بطوفان الشعوذة الذي بدأ يغمر البلاط القيصري وادركا أن الوقت قد أزف لبدء محاولات إعادة التزارينا لاخلاصها القديم للكنيسة الأرثوذوكسية. لكن الأمر يستدعي وجود قديس روسي يخلق معجزة. فاقترحا واحدا يدعى (سيرافيم) من (ساروف) سبق وأن تنبأ في بواكير القرن التاسع عشر بأحداث نالت إعجاب الرومانوفيين. ثم اقترح

(١) قندلفت: رجل وظيفته العناية بالكنائس وبأرضها وبالجنازات...

انضمام سيرافيم الى قائمة القديسين وحدث ذلك فعلا فتحول، برغم معارضة الكنيسة الشديدة، من الناسك سيرافيم الى القديس سيرافيم من ساروف. حملت التزارينا بعد ذلك وانجبت ولدا فتعززت مكانة القديس لدى القيصر وغدا الأخير من حينها أشد المخلصين له والمعتقدين بقدراته. ومن الأدلة على ذلك إرسال القيصر ميداليات تحمل صورة القديس سيرافيم لجنوده إبان الحرب مع اليابان مما حدا بأحد الظرفاء لئن يقول: لدى اليابانيين رصاص ولدى جنودنا ايقونات». نستشف من ذلك أن القيصر قد فقد الملكة الواقعية التي كانت ستجعل منه قائداً قديراً.

يروي «وت» قصة تجسد القول أعلاه. اذ اقترح سفير روسي أحمق في القسطنطينية أن تحتل روسيا مضيق (البسفور) بعد أن نسج لذلك عدة حوادث كذريعة، ثم ترسل انباء هذه الحوادث لا للقيصر أو حكومته بل لممثلي روسيا الإقتصاديين في لندن لتشويهها بشكل ما وأن يبعثوا برقيات مستعجلة (لأوديسا وسيفاستبول) حيث تنطلق منها اساطيل صغيرة لإحتلال المضيق. لقد جهد (وت) حتى أقنع القيصر أن عاقبة فعل كهذا حرب اوروبية لا محالة، وعندما تحدث «وت» الى (بوبيدونستوف) - ذلك الرجعي القديم- علق قائلا: «ليكن الرب بعون روسيا».

طغى التخبط واللاكفاءة على السنوات العشر الأولى من حكم نيقولا دون أن يتمخضا عن نتائج خطيرة. لكن الغضب الثوري كان آخذاً بالفوران، واستمد من فضيحة عام ١٨٩٧ أي بعد تتويج القيصر بعام واحد مدداً له. نمت بذور الفضيحة حين اعتقلت الشرطة برئاسة (بيلهف) فتاة جميلة قطفت من عمرها العام الثامن عشر تدعى (ماري فيتروف) بتهمة اقتناء بعض الكتب «الممنوعة». وتلك ليست بالتهمة الخطيرة ولا تستدعي، في الحالات العادية،

أكثر من نفيها مؤقتاً من بطرسبورغ وترقين قيدها في الجامعة. لكن الشرطة سجنت ماري فيتروف في حصن بتروبول لشهرين كاملين دون أن يعرف أحد شيئاً عن مصيرها سوى ما شاع من قول حول إغتصابها وتعذيبها على يد قوات الشرطة. ثم نجحت أخيرا وساطات أصدقاءها في الحصول على إذن بإطلاق سراحها، لكن ماري إنتحرت قبيل إطلاق سراحها برش بارافين أخذته من قنديل الإضاءة في غرفة حجزها على حافات فراشها ثم أشعلته ورمت بنفسها بين أحضان ألسنة النيران الملتهبة. وعاشت بعد هذه الحادثة يومين فقط لم يتم خلالها إبلاغ والديها بالحريق حتى توفيت في الثاني عشر من شباط سنة ١٨٩٧.

لم يدع الثوار تلك الفضيحة تمر سدىً، فأحسنوا استغلالها فيا كان الظرف المحيط بها جد مفزع احتاج منهم لتأجيجه قليلاً من الترويج. فالفتاة عاشت ليومين بعد محاولة الإنتحار ورغم ذلك لم يتم إعلام أهليها... فلم هذا التكتم الشديد؟ إنها الخشية أن يفقه والداها ما جرى خلال شهري سجنها. ثم ما الذي دعا فتاة جميلة موهوبة للإنتحار قبل إطلاق سراحها بقليل؟. قامت الحركة الثورية بتوزيع آلاف الكراسات إتهمت فيها الحكومة بالإرهابية ولم تفلح كل محاولات الشرطة في إيقاف انتشارها. وقد قال الكونت (بول فاسيلي) معلقا على مجريات الأمور قبل إندلاع ثورة أكتوبر ١٩١٧: «إنها بداية الإعصار الذي سيوشك على الإطاحة بعرش الرمانوفيين».

بدأت بعد ذلك فرق إرهابية صغيرة بإغتيال رجال شرطة ورجال دولة آخرين عشوائياً. ثم اندلع فتيل الحرب الروسية -اليابانية في عام ١٩٠٤.

كانت روسيا تنجرف نحو أوار الحرب مع اليابان لعدة أعوام خلت ولم يألوا (سيرجيوس وت)، أحد أبرز رجال نيقولا، جهداً في تحذير القيصر من

مغبة الوقوع في حرب مع اليابان. لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. كان الصراع دائرا بين روسيا واليابان حول كوريا ومنشوريا، فبعد تمرد «بوكسر» سنة ١٩٠٠ إستغلت عدة دول ضعف الصين فاحتلت روسيا منشوريا في محاولتها السيطرة على الشرق الأقصى بعد إنشاء سكة حديد ترانس – سيبريان وهنا طفق نزاع بينها وبين اليابان حول كوريا الشمالية والذي لم يكن فيه الروس على حق ومع ذلك رفضوا العدول عن موقفهم. وعليه قدم بطرسبورغ رجل الدولة اليابانية الكبير (ايتو) وفي جعبته حلاً للنزاع سلمياً، لكنه لم يلق من الروس إلا الاهانة والتوبيخ. لذلك شرع اليابانيون بالتقدم نحو كوريا الشمالية وأعلن الروس الحرب التي إنعدمت فيها الكفاءة لجنرالات روسيا فتنازلوا سريعا أمام ضغط الجيش الياباني عن ميناء (آرثر) ثم (ماكدن) فيما صدرت الأوامر للاسطول الروسي بتدمير الاسطول الياباني والالتفاف على نصف العالم. وقد أوشك الأسطول الروسي على إشعال حرب مع إنكلترا بفتحه النار على أسطول صيد بريطاني قرب ضفاف «دوجر» ظانا أنه أسطول تابع للبحرية اليابانية. ثم وصل الأسطول الروسي أخيرا الى المياه اليابانية لكنه سحق وأبيد في تسوشيما على يد القوات اليابانية. بعدها أرسل القيصر «وت» لعقد هدنة مع اليابان فنجحت مساعيه برغم توقعات الكثيرين بالفشل...[(١)] ولم تحصل روسيا على موطيء قدم لها في الشرق الأقصى.

(١) وردت عن (الدجار والاس)، الذي ارسله (البريد اليومي) للتحقيق في حادثة ضفة دوجر احدى المعلومات العرضية عن ماهية نظام البحرية الروسية ذاكراً انه وجد في (فيكو) في اسبانيا اثنين من الضباط الروس الحمقى اللذين كانا حاضران الحادثة وقد شرحا له كيفية حدوث الاشتباه بين الاسطول الياباني واسطول الصيد الانجليزي بسبب الضباب. ابرق (والاس) حكاية الضابطين بسرعة لروسيا فصدرت له الأوامر بمواصلة رحلته الى (تانكير) الميناء التالي (فيكو) والذي تتوقف فيه البحرية الروسية- لأجل الحصول على تفاصيل اكثر عن الحادثة وهناك اكتشف بأن الضابطين اللذين اخبراه عن الحادثة قد أعدما وألقيا طعماً لحيتان البحر.

إن من بين من تقع على عاتقهم مسؤولية نشوب الحرب رئيس الشرطة (بليهف) الذي قمع الحركات الثورية المناهضة لحكم الكسندر الثالث وربما كان أكثر رجالات الدولة بغضا في روسيا. فقد إعتقد أن «حرباً ناجحة قصيرة الأمد» ستمنح القيصر شعبية وقام بتلفيق عدد من التهم ضد «وت» المعارض للحرب وزور وثائق سرية تدينه بالإنتماء للحركة الثورية. لكن الحظ أسعف الحق فقد ألقى أحد الثوار بقنبلة تحت عربته وهو في طريقه لمقابلة القيصر حول هذه الأكاذيب مزقته اربا اربا، حتى تطلب لم أشلائه المتناثرة ثلاثة أيام بعد الحادث الذي وقع في تموز ١٩٠٤.

وسرعان ما تصاعد الهياج الثوري وساور القلق السلطات من مغبة إتخاذ أي إجراء عنيف من شأنه أن يؤلب العالم عليها ويكبح جماح الثوار في أرجاء روسيا قاطبة. لكن الحجة خذلتها فلجأت للتآمر مع قس كعميل عرض لها يدعى «جابون» والذي غدا المتحدث الأول عن مطالب العمال. وافق جابون على قيادة عدد من العمال المنتدبين للتفاوض الى قصر القيصر الشتوي حيث يقدمون التماساً. ثم قام جابون، في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٠٥، بقيادة صفوف العمال في داخل العاصمة وقد إنضم اليه كثير من العمال والنساء والأطفال، ولكن ما أن وقفوا أمام بوابة القصرالشتوي مناشدين «أباهم الصغير» (القيصر) حتى فتحت عليهم الكتائب الحكومية نيرانها ممزقة الصفوف ومختالة الجمع بما في ذلك الأطفال الذين سحقوا تحت الأقدام... ثم لاحقت فرقة من القوزاقيين الراجلة المدنيين العزل وضربت بالسيوف اعناقهم. بعدها أطلقت المدفعية نيرانها لتصيب ما بقي من الحشد في نيفسكي». كان نيجينسكي حينها طالبا في سن الخامسة عشر وقد كان ذاهبا الى مدرسة الرقص عندما جرفه الحشد المتلاطم ثم أدرك بأن الجنود القوزاقيين يلاقون الناس على صهوات جيادهم،

ومع الحشد تلقى سوطاً أفقده وعيه. قام نيجينسكي لاحقا بمساعدة احد رفاقه في المدرسة في البحث عن جثة أخته بين أكوام الجثث لكنهما فشلا في العثور عليها. كان ذاك اليوم أحداً تلطخ بدماء مائة وخمسين قتيلاً ومائتي جريح. وحين طرقت الأنباء مسامع القيصر سأل متلهفاً: «هل أنتم واثقون أنكم قتلتم من الناس عددا كافيا؟!». وهذا ليس بغريب على القيصر فقد كان دائما مؤيدا لاستخدام العنف والقوة لتوطيد دعائم حكمه، حيث علق قائلا: «رفاق جيلون» مادحا كتيبة (الفانا جورتيس) التي أطلقت النار على العزّل من العمال. وربما يكون هذا القول مقتبساً من تعليق القيصر على تقرير عن موظف حكومة في دول البلطيق قدم شكوى عن ضابط كان يعدم الناس دون محاكمة: «اوه ... يا له من رفيق جيد».

كان أمراً مقضياً أن يتفاقم الاضطراب في روسيا. فقد تمرد طاقم البارجة «بوتمكين» وقتل ضباط السفينة الحربية. وتقمص (ايزنشتاين) بعض الوحشية التي جابهت بها الشرطة المتمردين في فلم له عن التمرد الروسي سيما في الحادثة التي أبادت فيها الشرطة اللذين على مدرجات اوديسا لتقديمهم الطعام للمتمردين، من الأهمية بمكان هنا أن نتذكر أن حوادث كهذه كانت تتكرر يومياً على مسرح الشارع الروسي. وقد كتب أيضا (اوسيانشف) عن هذا العنف في مجلده «حكايات عن الثورة» كانت حكاية «الشاتر» من أبرزها وتحكي قصة مدير مدرسة هادئ، الطبع مسالم المعشر أصابته قسوة الجنود ووحشيتهم بسعار مجنون، فنظم أهل القرية في صفوف كل يرقب لحظة اعدامه.... وسمح لنفسه أن تنتظر ساعة ودامها بعد أن تودع أهالي القرية جميعهم. لكن كتب التاريخ غفلت، لموضوعيتها الشديدة، عن ذكر هذه القصص. ولسوء الحظ كان القيصر جدّ كتيم ضد هذه الحقائق المريعة وهذا فقط ما يفسر القسوة اللامبالية لرجل

ليس قاسيا في طبعه.

عمت أرجاء روسيا انتفاضات حذت أغلبها حذو تمرد (ستينكا رازين) و (بوكاشيف) حيث يغتال الفلاحون اصحاب الأراضي وعوائلهم ثم تتحرك بعدها الفرق العسكرية لسحق المتمردين عبر أبشع الأساليب. كان قدر التأريخ الروسي سيتغير لو شاهد القيصر بأم عينيه إحدى هذه المجازر، فهو سيدرك ثمن إستمرارية ايديولوجيته البالية الذي يدفعه الإنسان الروسي من خلال عذابه. لكن نيقولا اعتصم في قصره ودعا بعض قادة العمال لشرب الشاي وألقى عليهم محاضرة جدية قاسية. فكان رد الثوار على ذلك قتل عديله الدوق الكبير المتوحش (سيرجيوس). لقد لازمت اليزابث -أخت التزارينا- زوجها طيلة اسابيع عديدة على امل ان ينقذ وجودها زوجها من القتل المحتوم، وكانت محقة فيما ذهبت اليه حيث ذكر الإرهابي (كاليف) بأنه كان على وشك قذف قنبلة على عربة الدوق لكنه احجم عن ذلك عندما رأى (اليزابث) بجانبه. وشاء القدر، فيما بعد، أن يتجول (سيرجيوس) في يوم ما أمام البوابة الأمامية بمفرده فالقى (كاليف)قنبلته التي أحدثت انفجارا هائلا، هرعت لشدته (اليزابث) خارجاً لتجد زوجها وقد انفصل رأسه عن بقية جسده على الرصيف، ولملمت أشلاء منه من على سقوف الجيران ووجدت اصبعاً له على سطح «الأرسيال». هنا قصدت اليزابث يحدوها ميلها الديني الى كاليف في سجنه وعرضت عليه إنقاذ حياته إذا ما تأسف على إغتيال زوجها، لكنه رفض وقال أن حياته لن تخدم قضيته الأكبر أكثر من مماته، ثم سار للمشنقة واثق الخطى مرفوع الهامة لا يهتز له طرف. لقد رقب البلاط سلوك اليزابث بكثير من الريبة. فالجميع قد مقت سيرجيوس الذي كانت سوء معاملته لزوجته فلك الهمس في البلاط.

طمع القيصر، وقد لاحت له في الأفق بذور ثورة شعبية، في مشورة

(سيرجيوس وت) الذي هو رجل خرج من بين صفوف الشعب ليصبح أكثر وزراء القيصر ولاء وأكثرهم للقيصر عليه اعتماد. بيد أنه تحلى بحب الذات مع شيء من المكر والخبث في شخصيته. لقد أخبر القيصر أن أمامه للقضية حلين لا ثالث بينهما: أما أن يوطد نظاما عسكريا دكتاتوريا أو أن يمنح الشعب قدرا من الدستورية. داعبت فكرة الدكتاتورية عقل نيقولا كثيرا وفكر أن يأخذ بتلابيبها الدوق نيقولا الذي أبى أن يكون دكتاتوراً حتى لا يموت بقنبلة موقوتة وهدد بقتل نفسه إذا ما أجبر على ذلك. وعليه وافق القيصر على مضض أن يمنح الشعب شيئاً من الدستورية. واصدر إعلان تشرين أول سنة ١٩٠٥ الذي منح الشعب حرية الكلام والتعبير والمقابلات والإجتماعات وحرية انتخاب ممثليه في مجلس نيابي سيطلق عليه اسم «الدوما[1] الإمبراطورية».

أنبت تنازل القيصر شعورا بالإبتهاج والسلام بين عموم الشعب . . . . لكن الاعلان لم يكن سوى غمامة صيف فسرعان ما ادرك الشعب أن (الدوما) لم تكن في جوهرها مجلسا نيابياً . . . فالحكومة بقيت على حالها وعملت على عرقلة (الدوما) لم تكن مجلسا نيابيا بالمعنى الحقيقي . . . فالحكومة بقيت وطرقت كل سبيل من شأنه عرقلة (الدوما) في مسيرتها فكان مخاض ذلك أن انقسم التقدميون الى قسمين رضي أحدهما بواقع الحال وعارضه الآخر. ركب «وت» الذي شغل منصب أول رئيس وزراء في روسيا المصاعب في مسعاه التوفيق بين الأحزاب ومحاولة كسب رضا الجميع. لكنه رجع بخفي حنين وأثار عليه حنق القيصر الذي شعر أن (وت) بدأ يفقد سلطته شيئا فشيئا، فأقاله لذلك من منصبه ثم حل نيقولا (الدوما) في (نوبة استياء) وأناط بـ (جيروميكن) منصب رئيس

(١) الدوما: المجلس التشريعي في روسيا القيصرية.

الوزراء والذي كان هيّان بن بيّان انحصرت مهمته في البلاط على إطراء القيصر من طريق التأكيد المستمر له على أنه ما زال الحاكم المطلق لروسيا.

ها هنا ظهر على مسرح الأحداث احد أعظم رجالات روسيا ألا وهو (بيتر ستوليبين) حاكم (ساراتوف). كان ستوليبين رجلا محافظا وملكيا لكنه كان في الوقت عينه رائدا من رواد التقدم. . . رجل اجتمعت فيه الشجاعة والجرأة والفطنه والذكاء. طاف بعد ثورة ١٩٠٥ في أرجاء روسيا ليعيد اليها استتاب الأمن والنظام بقوة شخصيته ومقدرته على الإقناع. وفي إحدى القرى الثائرة، أطلق الفلاحون النار عليه خشية أن يبطش بهم فسار بحزم وسط الرصاص وترجاهم ألا يطلقوا النار حتى لا يضطره الأمر استخدام صلاحياته العسكرية ضدهم، ثم أمسك أحد الثوار بكم سترته متحديا فطلب منه ستوليبين برباطة جأش رائعة أن ينزل يديه ففعل الثائر واستمر ستوليبين في مسيره، الفى بعدها القرويون السلاح وتلقوا من المعاملة الشفقة والرأفة.

شغل ستوليبين مكانة عظيمة في السنوات القليلة اللاحقة وربما أجرى جمع الإصلاحات التي طالب بها البلاشفة. ومرة أخرى أخفق الثوريون في ادراك أن الرجل في صفهم، وشرعوا عليه بعدة محاولات اغتيال. وقد نجم عن احدى تلك المحاولات تفجير منزله فأقعد إبنته مدى الحياة وجرح ابنه وأصاب أربعين آخرين بين قتيل وجريح دون أن يصيب ستوليبين بأذى. ولم تغير محاولة الاغتيال هذه من شخصيته ولم تجعل منه رجعياً حقوداً باحثاً عن الإنتقام بل استمر في سعيه التقدمي. وربما كان أهم انجازاته إصدار مشروع قانون يتيح للفلاحين المطالبة بنصيبهم في القرية التي يقطنون. عارض الرجعيون القانون بحجة أن الفلاحين أغبى من أن يستثمروا العرض. لكن ستوليبين تشبث بموقفه الذي أثبت سداد رأيه لاحقاً حيث شرع أكثر الفلاحين ذكاءا في إقناع

الآخرين واقامة مبادىء للوعي السياسي... فكانت المحصلة ولادة ثورة هادئة وشرعت القرى تهيء نفسها لمهمة الادارة الذاتية وهي تعبر لروحية جديدة في الأهداف والطموحات. وقد وصف بيرس هذه النتائج قائلا:-

مع حلول عام ١٩١٤ اصبح في روسيا ٨,٧٠٠٠,٠٠٠ من السكان يومنيين[1] ويتمتعون بعقلية المالك وبالتالي غريزة قوية في الضبط العام. وتميز الرجال في المزارع الجديدة بطاقة جديدة كامنة هي أقرب الى دافع العمل... وبدت الماشية اكثر صحة... وأثمرت بذور التعاون في كل مكان....

يقترب هذا الوصف من وصف سوفيتي للمزارع الجماعية. لكنه لم يكن إلا وجهها جديدا لروسيا القيصرية. لقد اكتشفت روسيا حلتها الجديدة قبل حلول ثورة ١٩١٧ ولو أن القيصر والثوار أدركوا قابليات ستوليبين وطموحاته التقدمية التحررية لما كانت هناك اية ضرورة للثورة اساسا.

خامر القيصر، لسوء الحظ، شعور باللاثقة تجاه ستوليبين الذي شغل آنذاك منصب رئيس الوزراء وهو منصب رآه الثوار عدواً للتقدم أنى كان شاغله. وفي يوم ما نجح أحد الثوار ويدعى (بوكروف) في كسب ثقة شرطة (كييف) بادعائه الكشف عن مؤامرة للثوار فمنحته الشرطة بطاقة حضور عرض مسرحية (ريمسكي كورساكوف) والتي سيحضرها القيصر وستوليبين. لقد أحاط القيصر نفسه بحراسة شديدة وأهمل ستوليبين الذي لم يجد الثائر بوركوف صعوبة في إطلاق النار عليه وإصابته في صدره.

وقعت تلك الواقعة سنة ١٩١١ ولما كان راسبوتين متنفذا في البلاط

(١) نسبة الى اليومن: وهو فلاح صغير يملك ارضا يزرعها وبخاصة احد افراد طائفة من صغار مالكي الأرض الاحرار في انكلترا.

القيصري. لقد كسب ستوليبين بغض التزارينا لأمره طرد (الستاريتز) خارج بطرسبورغ.... وتتهد بارتياح لهذا العداء بين التزارينا وستوليبين -قائد ثوري بالغ من العمر واحداً واربعين عاما يدعى (فلاديمير اوليانوف)[2]، فاصلاحات ستوليبين الخاصة بالأرض والفلاحين ستسحب البساط من تحت أقدام البلاشفة والأمر الدلاع قبيل الثورة.

بيد أن هذه الأحداث جميعها ليست إلا قزة للقصة.. .فحالما صدر اعلان ١٩٠٥ كتب القيصر في يومياته قائلا :«التقيت رجلاً مؤمناً اسمه كريكوري من ضواحي توبولسك». وهنا تسللت قوة جديدة أعماق السياسة الروسية.....لم يلح في الأفق من أبعادها شيء إلا بعد مضي ثلاث سنوات.

(١) فلاديمير اوليانوف: أعلنم اخوه بتهمة الاشتراك في اغتيال اليكسندر الثاني. وقد اكتسب حينها اسمه الحركي في الحزب وهو (لينين).

الفصل الخامس

مدينة الأحلام

وطأت أقدام راسبوتين في عاصمة شوهتها الروحانيات والرمزية والتمسك اللاعقلاني باعراف وفنون وتقاليد القرون الوسطى. . . عاصمة كتب عنها شاهد عيان آنذاك قائلا: -

«لو طاف بصرك العالم أجمع لما وجدت فيه مدينة تلعب فيها الروحانيات دورا كذاك الذي تلعبه في بطرسبورغ، فالعديد من المنازل الروسية الفخمة قد سكنتها أرواح مألوفة حيث تعزف أيد خفية على البيانو عندما يحتضر احد أفراد العائلة بغض النظر عن عمق اعتقاد المحتضر او المحتضرة»[1].

ويورد الكاتب نفسه إشاعة مفادها أن وسطاء روحانيين أقنعوا القيصر أن يخوض غمار الحرب الروسية - اليابانية فلا غرابة اذاً ان يشعر بعض الشباب الثوري مثل (مكسيم كوركي) أن مجانين أمسكوا زمام الحكم في روسيا.

وصل راسبوتين مدينة بطرسبورغ في مطلع عام ١٩٠٥ وحلّ في شقة صحفي يدعى (جورج بتروفتش ساسونوف) وقد قاسمه السكن عدد آخر من الناس. أكثر راسبوتين تردداً على منزلي (المونتنكريتات) ميليتسا واناستازيا تدفعه رغبته في الوصول الى البلاط سيما وأن ميليتسا قد تقربت منزلة لدى التزارينا منذ

---

(١) برايلي هودجيتس: بلاط روسيا في القرن التاسع عشر.

أن عالجتها في مرضها لكنها فقدت ثقة التزارينا في اخر زيارة لها لبطرسبورغ لتباين وجهات نظرهما حول قضية الروحانيات، وربما بسبب اهتزاز ايمان القيصر في امكانيات وقدرات الوسطاء الروحانيين بعد اندحار روسيا في الحرب مع اليابان . . . أو انه لم يعد يشعر بالحاجة لإستدعاء روح والده واستشارتها النصيحة كعادته في بدايات حكمه. وعلى العموم احتفظت (المونتكرينات) بحماسهن الشديد ومقدرتهن البارعة في استحضار الأرواح فيما فقدن، من جانب آخر، رغبة البلاط القيصري بقدومهن.

احتضن الغراندوق نيقولا (زوج انا ستازيا) راسبوتين بحرارة متميزة سيما وقد أشفى له راسبوتين كلبه. لقد تحمل اعجاب الزوجين براسبوتين حين دفعا عنه تكاليف اجراء عملية لزوجته حينما شكت من مرض داخلي في بطرسبورغ.

طرق صيت (راسبوتين) أبواب العاصمة في زمن قصير على أنه صانع معجزات. وقد كتب جاسوس من الاوهكرانا[1] في تقرير له في الثاني عشر من نيسان سنة ١٩٠٥ قائلا: «تتجمع الحشود امام منزل راسبوتين ويضطر الناس للإنتظار يومين او ثلاثة حتى يحصلوا على إذن بالدخول ومقابلة الناسك ولم يفشل احد في ملاحظة قدراته التنبوية ومواهبه وقابلياته في اجتراح المعجزات». ويذهب الجاسوس الى ذكر بعض معجزات راسبوتين مثل تحويله حفنة من التراب الى زهرة فواحة وعلاجه امرأة مشلولة أن أمرها بالوقوف والسير فحسب.

من المحتمل ان راسبوتين شرع حينئذ في إرسال بعض الهبات التي كان

---

(١) الاوهكرانا: جهاز المخابرات الروسي في ذلك الحين.

يتلقاها نظير اعماله الخارقة الى بوكروفسكو مما مكن زوجته من شراء المنزل الكبير في شارع بوكروفسكو الرئيس. وهو قد أهدر كثيراً من ماله المهدى اليه من معجبيه مع حفاظه على قوة الأصرة التي تشده لعائلته آخذاً بعين الاعتبار الا يسبب احراجاً لجيرانه في بوكروفسكو للحال الجديد الذي أمست عائلته تعيشه.

عاش راسبوتين في مستهل وجوده في بطرسبورغ بهدوء تام لإدراكه ان الشرطة تراقبه عن كثب مما ولد لديه شعورا باللاارتياح لازمه قبل أن يعتاد عليه. لكنه لم يدرك في حينها ان عيون الشرطة كانت تلاحقه بسبب انتمائه الى اتحاد الروسيين المخلصين ولم يكن مسؤولي الشرطة بعاجزين عن استغلال ما يتوفر لديهم من المعلومات وصياغتها بالشكل السياسي المطلوب. لقد تحققت الاوهكرانا من كل صغائر الأمور في البلاد تماشياً مع عملها الذي انطوى أن تفقه دقائق الأمور في كل مكان. بيد أن من طبيعة عملها الا تعلم - في أحايين معينة- الكثير عن هذا الشيء أو ذاك. وخير مثال على ذلك عندما طلب من (راشكوفسكي) مدير الفرع الفرنسي في امن الشرطة الروسية الذي فصل من منصبه لأنه أدرج في تقرير عن (الطبيب) المزيف فيليب أنه مشعوذ ودجال وأنه قوضي مرتين في فرنسا بتهمة مزاولة مهنة الطب بدون إجازة . . .

اعتاد (راسبوتين) بمرور الوقت على رقابة الشرطة في حركاته وسكناته بل انه نجح ايضا في تكوين صداقات مع جواسيسها واستغلهم في أداء مهامه.

واخيرا جاء اليوم الأول من تشرين الثاني باللقاء الذي حلم به راسبوتين كثيرا. . . اليوم الذي كتب عنه القيصر في يومياته قائلا: «لقد تعرفنا على رجل الله -كريكوري- من اقليم (توبولسك)، وقد تم اللقاء في منزل ميليشا».

ليس من المعلوم على وجه التأكيد لمن يعود الفضل في ذكر (راسبوتين)

لدى القيصر فالبعض يعتقد ان الدوقة الكبيرة (اناستازيا) هي التي نطقت باسمه لكن رأي معظم الكتب أن (آنا فيروبوف) الصديقة المقربة للتزارينا هي المسؤولة عن معرفة القيصر بـ(راسبوتين) برغم ان (آنا) نفسها لم تلتق (راسبوتين) إلا بعد سنتين من لقائه بالقيصر وفقاً لاعتقاد بيرس في هذا الأمر.

اتسمت قصة ولوج (راسبوتين) البلاط القيصري بالاثارة الحقة في شتى الروايات التي تناقلتها، سيما رواية ليبهان التي تذكر ان (راسبوتين) قد اعتاد زيارة مخيمات الغجر في (توفايا دريفنيا) على جرفي النهر حيث يغني ويرقص معهم. وفي امسية التاسع عشر من تموز سنة ١٩٠٧ - اي بعد عامين من ذكر اسمه في يوميات القيصر- أثقل (راسبوتين) في شرب الخمر داخل معسكر الغجر فيما كان التزاريفيتش يصارع الحمى التي سكنت جسده لثلاثة ايام عجز معها الأطباء الإمبراطوريون عن علاجه منها واعلنوا اليأس من نجاته.... وفي تلك اللحظة بالذات همست (انا فيروبوف) باسم (راسبوتين) في اذان (التزارينا) التي ارسلت من ساعتها رسولا يأتي القصر به. ذهب الرسول الى (توفايا دريفنيا) واعلن: «باسم القيصر.. هل من احد يدعى كريكوري راسبوتين؟» خرج راسبوتين الى الرسول الذي أمره باعتلاء صهوة جواده والذهاب الى مكان حدده له لكن (راسبوتين) وقد اخذ منه الخمر كل مأخذ رفض الامتثال لأمر رسول القيصر وطلب باعلى صوته ان يستمر الرقص ويتعالى الغناء. ها هنا تعرف رئيس الغجر على حامل رسالة القيصر فترجى راسبوتين الامتثال لأمر الرسول. توقف (راسبوتين) لأول وهلة صامتا لا ينبس ببنت شفة وقد أجمع كل من رآه ساعتها -كما كتب ليبهان- أن شيئاً ما قد تغير فيه ما ان امسك رسالة البلاط وتطلعت عيناه يكحلهما بريق غريب على ما هو امامه... ثم سقط على ركبتيه وصلى راكعاً فسرت رعدة خفية في الجمع الساكن، بعدها قال راسبوتين

للرسول: «لقد صليت له ولا خوف عليه...». وما ان انتهى من حديثه حتى وثب على صهوة جواده وشب الجواد متوجهاً إلى (تزريسكرسيلو). كف (راسبوتين) عن الشرب والرقص لكنه ظل راكعا على ركبتيه مصليا وبينما هو على تلك الحال بدأت صحة التزاريفيتش بالتحسن كما اعلن وكما اخبر (التزارينا) عندما رآها. دخل (راسبوتين) غرفة المريض وركع على ركبتيه بقرب سريره «أغلق عيناه لكن وجهه الحاد اكتسى بسمة الجدية حتى تسمر القيصر وزوجته بالصمت. ثم نهض أخيرا وقال: «ان ابنك ايتها الأم الصغيرة ينام بسلام الآن...». وفي تلك الليلة كتب القيصر في يومياته قائلا: «تعرفنا الى رجل الله، كريكوري، من اقليم توبولسك وقد أنقذ الحبيب اليكسي من براثن الموت بفضل صلواته».

اما رواية فولوب ميلر فأقل مأساوية من رواية ليبهان. فهو يذكر ان الدوقة الكبيرة (اناستازيا) همست باسم راسبوتين في اذن التزارينا وروت لها كيف ان جنون من (الكرونستادت) قد أومأ الى راسبوتين (صباحا في الكنيسة) وناشده بركاته (هذه الحادثة كما سنذكر لاحقا قد حدثت قبل عدة سنوات وتحديداً في عام ١٩٠٣). أرسل القيصر رسولا لـ(راسبوتين) (لكن فولوب ميلر لم يحدد المكان الذي وجد فيه الرسول(راسبوتين)) وجاء (راسبوتين) البلاط القيصري بعد مضي اربع وعشرين ساعة (ولم يفسر ميلر سبب تأخر راسبوتين). ثم دخل جناح المريض وتوجه للقيصر وزوجته بابتسامة عريضة وضم الى صدره القيصرية الحديدية لروسيا بأكملها وزوجته وقبلهما قبلة حارة. تحدث راسبوتين بعدها بمرح للطفل المريض وروى له قصصا عن سيبريا تبعها بحكايات خرافية، فانقلبت حماسة الطفل وجلس على فراشه. واخيرا غادر راسبوتين القصر بعد ان وعد بالعودة في اليوم التالي وقد امسكت (التزارينا)

بترق بيدي القروي وقبلتها.

بيد أن (آلان موروهيد) لا يكتفي بمرض (التزارافيتش) سبباً لدخول البلاط القيصري. فالصبي لم يكن من العمر آنذاك الا خمسة عشر شهراً ناهيك عن غياب اي دليل ان (راسبوتين) نجح في كسب ود القيصر وزوجته حتى بعد عامين على أول لقاء له بهما في اقل تقدير. وعليه فإن خلاصة روايتي ليبمان وميلر أنهما مثالان على قدرة (راسبوتين) على الهام الأساطير. ولم ترد عبارة ليبمان «انقذ الحبيب البكي من براثن الموت بفضل صلواته» في وصف القيصر لأول لقاء له مع راسبوتين «رجل الله من اقليم توبولسك». ليس هذا فحسب، بل ان ليبمان غير تاريخ دخول (راسبوتين) البلاط القيصري بسنتين.

كانت الفترة الممتدة من ١٩٠٥ حتى ١٩٠٧ فترة عصيبة للقيصر ولروسيا اذ تشكلت (الدوما) الأولى التي سرعان ما صوتت لقرار يتضمن تقريعاً للحكومة التي رفضت تقديم استقالتها وهو ما أثار حفيظة القيصر خشية على سلطته المطلقة فحل (الدوما) في أقل من ثلاثة شهور اي في تموز ١٩٠٦. ثم اندلعت ثورة في موسكو في شهر كانون الأول من تلك السنة صاحبتها اعمال عنف واقامة متاريس في الشوارع واراقة كثير من الدماء دون أن يؤثر ذلك على ولاء الجند للقيصر فاجهضت الثورة في مهدها. حاول بعدها نفر من أعضاء الدوما الأولى اللذين هربوا عبر الحدود الى فنلندا أن يوقظوا روسيا من غفوتها ببيان أصدروه من هناك. الا أن البيان لم يلق من يصغي اليه في شعب استنزفت الثورات طاقاته وتركته يتخبط في ضعفه. ثم تشكلت في عام ١٩٠٧ (الدوما) الثانية بعدها وفي خريف العام نفسه تشكلت (الدوما) الثالثة ونجحت في الإستمرار خمس سنوات بات فيها راسبوتين الرجل الأقوى في روسيا. برغم أن شهرته كطبيب مشافي قد تناقلتها الأخبار منذ عام ١٩٠٦. اذ سبق وأن عرضت التزارينا على ستوليبين خدمات راسبوتين حين دمرت قنبلة منزله وجرحت أطفاله. لكنه رفض عرضها ولم يقابل راسبوتين حتى سنة اغتياله في كيف، وحري بنا هنا نقل بعض من وصف ستوليبين لذلك اللقاء:-

«تفحصني بعينيه الناعستين متمتماً المبهم من كلمات المخطوطات المقدسة تعذر علي فهمها ثم حرّك يديه على نحو غريب أشاع في نفسي نفوراً من هذا الحشرة الجالس قبالتي. ولكنني ادركت رغم ذلك ان الرجل يمتلك قدرة التنويم المغناطيسي التي بدأت تترك اثرا قوياً لدي لا أظنه غير أثر الامتعاض منه».

ويضيف (رودزيانكو) الذي ذكر هذا الوصف قائلا: «اذا ما كان لراسبوتين مثل هذا التأثير على الإرادة الحديدية لستوليبين فما عسى التزارينا أن تفعل بطبعها الضعيف أمام قوة كهذه؟».

ومع ذلك، تبقى الحقيقة أن راسبوتين لم يكن بحاجة لتوظيف قواه في التنويم المغناطيسي مع التزارينا التي غلبتها لهفتها للتصديق به فهو لها خلاصة قوة وزراعة الفلاح الروسي. من جانبه عامل راسبوتين القيصر وزوجته بالأليف من السلوك، فزرع فيهما انطباعاً أنهما له لا قيصر وزوجته بل أناس عاديون وهو ما كان الاثنان بحاجة فعلية اليه وخاصة التزارينا التي كانت تشعر انها محاطة بالأحقاد والمكائد. يقول الكاتب المجهول لكتاب «سقوط القياصرة»:-

بدأ في هذه الفترة (١٩٠٥-١٩٠٦) السلوك الغريب للإمبراطورة اليكسندرا جليا لفت اليه انظار من حولها. فسعادتها لم تعد الظهور الى العامة ولا الى حاشيتها الخاصة الا على مضض وفي أمر طارئ، فالغيت نتيجة لذلك السلوك جميع الإستقبالات في البلاط. وفي تلكم المناسبات التي يتحتم فيها على

القيصر أن يقيم مأدبة عشاء أو حفلاً تتقدم العجوز المهيبة الإمبراطورة (ماري) وهي الى جانب ابنها لتحية ضيوفها. وعليه لم يحظ في رؤيتها الا حلقة البلاط الضيقة وسرت اشاعات كثيرة عن تحفظاتها الخاصة تلك، فبعضهم قال أنها تخشى البدانة فاتبعت نظاما الماتيا، خلافا لنصائح طبيبها، في محاولتها ازالة الشحوم وهو ما تسبب في انهيار جهازها العصبي. وقال البعض الآخر انها تعاني من اكزيما عصبية تغطي في حالات الإنزعاج احيانا، وجهها ويديها فتمسك عن الظهور الى العامة.. وآمن البعض ان التزارينا لم تكن سوى مجنونة بلهاء..».

شعرت تلك المرأة الخجولة مرضياً أنها روح غريبة في بلاد جاهرتها العداء.... ثم ظهر لها راسبوتين.... مجسدا القروي الروسي ومؤكدا لها حب البسطاء من الروس وأن البلاط وحده الذي يكن لها الكره.

وعليه امسى راسبوتين اباً ثانيا لها وفي تلك الفترة بالذات من عام ١٩٠٧ جرح اليكسي نفسه وتدهورت حالته الصحية. لم يشهد احد علاج راسبوتين للزارفيتش ولم يعلم أحد على وجه التحديد تفاصيل ما حدث برغم أننا قد نأخذ بعض ما رواه ليهان وفولوب ميلر عن دخول راسبوتين البلاط. انها القوة والثقة بالنفس والطيبة وحب الخير قد أشع بها راسبوتين، فكانت تختفي بحضوره الطيب هواجسهم ومخاوفهم من القدر ويستعيدون ايمانهم أن ارادة الإنسان القادرة على التحكم بقدره...فلم الخوف من القدر ساعة وجود هذه القوة الإنسانية الجبارة....؟؟

«قدرات راسبوتين»:-

نصل الآن الى مسألة في غاية الأهمية عن حياة راسبوتين، ألا وهي قدراته الخارقة على شفاء المرضى التي غفل عنها الكثير ولم يوليها احد الإهتمام الذي

تستحقه. فإذا ما كان راسبوتين يمتلك فعلا هذه القدرات وإذا ما كان عضوا - كما هو مرجح على الأغلب- في الطائفة الخليستية فليس من الغريب إذن ان يعتقد راسبوتين بنفسه احد افراد الخليستية الذين تتجسد فيهم روح المسيح... وهذا تحديداً مفتاح ذو أهمية قصوى للشخصية المركبة لراسبوتين. من جهة اخرى يؤكد اعداؤه بانه (يحقق) معجزاته بمعونة طبيب يدعى (بادمايف) وهو منغولي زعم انه قد درس الطب في اقليم التبت وبدا قادرا على صنع ادوية ناجعة من تركيباته العشبية. ويذهب احد الكتاب الى الإعتقاد بان راسبوتين اعطى لبادمايف مالا مقابل صنع الأخير جرعات خفيفة من السم لعلاج التزارفيتش وتركها في حجرة المريض لكي يستخدمها راسبوتين عندما يأتي للصلاة من أجل انقاذ حياته. بيد أن أحداً لا يستطيع ولو علم بالحياة الأسرية للعائلة المالكة أن يأخذ هذه القصة على محمل الجد وهي انها ذكرت هنا لتوضيح وجهة نظر معينة حيال راسبوتين: انه الموقف الذي يرى راسبوتين دجالاً فطناً مؤثراً في سلوكه.

هب أننا سلمنا أن راسبوتين لم يكن بالقديس الذي آمنت التزارينا، أيمكن اذن ان يتمتع بقدرات عبقرية قادرة على صنع المعجزات؟ وثمة حادثة وقعت عام ١٩١٢ وتتعلق بالتزارفيتش فشل في تفسيرها وتبريرها حتى اعداؤه، حين طرد راسبوتين من البلاط لمكائد تسجها له رئيس الوزراء كوكوتسيف. ففي أيلول من ذلك العام وبينما كانت العائلة الملكية تتمتع بعطلة في (بيلوفيتشكايا) بالقرب من كرودنو فقد التزارفيتش توازنه وهو يقفز خارج زورق وكدم ركبته مما نتج عنه نزيف داخلي ثم تسمم في الدم، سكنت بعدها الحمّى جسد الصبي لأيام عديدة اعلن فيها الأطباء عن يأسهم المطلق من إنقاذ حياته. وقال فيدوروف، رئيس اطباء القيصر أن شبح الموت لا يفارق الصبي إلا باستخدام جرعات قوية من دواء شديد الفعالية لكنه لا يقوى حالاً على اعطائه للصبي قبل

أخذ موافقة التزارينا التي طلبت في تلك الأثناء من صديقتها (آنا فيروبوف) ارسال برقية لراسبوتين في بوكروفسكو تناشده فيها الصلاة من اجل وليدها. وسرعان ما وردتها برقية يقول فيها راسبوتين : «ليس مرض التزاريفتش خطيرا كما يبدو، فلا تدعي الأطباء يسلبوه راحته بمزاجهم. . . ». وما ان وصلت البرقية حتى تماثل الصبي للشفاء وتخطى مرحلة الخطر.

ان ثمة ثلاث تفاسير لهذه الحادثة : يتعلق أولها باستخدام فيدوروف «للدواء قوي الفعالية» الذي اعتقده ضرورياً للشفاء بيد انه احجم عن ذكره عندما سئل واكتفى بالخروج من الغرفة. . . . . ولكن أمن المعقول ان يتنازل فيدوروف عن وسام شرف لو كان حقاً من أنقذ حياة الصبي؟. أما ثانيها فمفاده أن ايمان التزارينا المطلق بقداسة راسبوتين قد تحدث الى الصبي الذي كان محاطا بالبأس والجزع، وهذا تفسير ممكن أيضا ولكن موسولوف، رئيس المحكمة العليا ذكر أن الصبي كان في حالة هذيان بسبب الحمى وليس من المعقول ان يكون قد علم بأمر البرقية إلا بعد شفائه.

اما التفسير الثالث فيفترض أن راسبوتين اغتنم صدفة لشفاء الصبي مجازفا بكل احتمالات عودته لشرف الحظوة في البلاط القيصري- او انه آمن بقدرته على علاج الصبي من على بعد الفي ميل تقريبا.

يقف الدليل لصالح الافتراض الأخير. فراسبوتين لم يخلط بين قدراته الاعجازية وبين قابلياته في التنويم المغناطيسي برغم أنه قد فعل ذلك في بداية مشواره. فهو قد أشفى، في عام ١٨٩١، زوجة صاحب خان من داء الرقص بالصلاة قرب سريرها ووضعه يده على جبينها -بقي في الحانة شهراً وعندما غادر شفيت المرأة تماما. ان داء الرقص مرض جسدي عصبي وربما كان قابلا

للتأثر بايحاء التنويم المغناطيسي. غير ان راسبوتين انكر في وقت لاحق امتلاكه أياً من تلك القوى فقدرته على علاج الأمراض تنبع من مصدر آخر. ويبدو نجاحه في شفاء التزاريفتش بواسطة البرقية دليلاً على زعمه هذا.

يطلق الجدل القائل ان راسبوتين ليس بقديس وانه لذلك يفتقر الى القدرة على صنع المعجزات جهلاً في مبادىء العلاج. ففي الوقت الذي كان فيه راسبوتين جوالاً في ارجاء سيبيريا كانت (ماري بيكر ايدي) تعلم تلاميذها في امريكا أن يستطيع أنى كان أن يغدو معالجاً لو اتبع تعليماتها. وهي قد تعلمت تقنية هذا العلاج على يد رجل يدعى (فينيس كويمبي) الذي تعلم هو الآخر المبادىء من فرنسي له القدرة على التنويم المغناطيسي يدعى (بوين). اكتشف كويمبي حقيقة مهمة هي ان ايمان المريض بأحقية العلاج هو الشافي للعليل من الداء أكثر من الدواء، ثم ذهب كويمبي الى القول الأبعد أن ضرورة الطب أملاج الأمراض ليست كما نعتقد فتمتع المريض بحالة عقلية وعاطفية معينة مشبعة بالمرح والحيوية والنشاط لأقدر على التخلص من المرض. غمرت كويمبي السعادة باكتشافه هذا وعندما أشفى رجل دين سويدي قال فيه أنه: «يعيد معجزات الأناجيل» انكر كويمبي بشدة استخدام اي قوى فوطبيعية او اجتراح اي معجزة، مؤكداً ان ادويته كانت طبيعية وعلمية وأن اي فرد يستطيع تعلم الطريقة اذا ما بذل جهدا سواء اكان يتمتع بقابلية على التنويم المغناطيسي ام لا. وقد اثبت كويمبي نظريته هذه أن علّم طريقة العلاج لاتباعه الذين لا يمتلكون قدرة التنويم المغناطيسي. وعليه أنكر كويمبي في نهاية المطاف أهمية التنويم المغناطيسي برغم أنه بدأ حياته متعلماً لها. (كان يطلق على التنويم المغناطيسي آنذاك المسمرية او سحر الحيوان).

جسّد (ارنست تولد) في مسرحيته (ماري بيكر ايدي) اللقاء بين كويمبي

والسيدة (ايدي)، وأنقل هنا جزءاً من المسرحية فهي توجز على نحو رائع الطريقة والأفكار التي استخدمها طلبة السيدة ايدي وربما استخدمها راسبوتين:

التقت السيدة (ايدي) كويمبي عام ١٨٦٢ وعمرها واحد واربعون عاماً. وقد كانت مصابة بوسواس مرض هستيري وتعاني من ضعف في العمود الفقري وشلل في يديها وساقيها مع نوبات إغماء تخشى في فترات متقاربة.

كويمبي : اعطني يديك

ماري: لا استطيع فهما مشلولتان

كويمبي: (آخذا بيديها) : انظري في عيني

ماري : حسن.

كويمبي : كيف تشعرين الآن؟ انا سأقول لك. انت تشعرين بألم مبرح.

ماري : نعم

كويمبي : ليس باستطاعتك النوم لأنك تعانين من تشنج عليك طوال سنوات.

ماري : اجل .... اجل

كويمبي : لقد أخبروك أنك مشلولة... لقد أخبروك أنك مشلولة. لقد قالوا لك أن كامل جسدك مسموم وان مرضك لا شفاء منه... وانت قد صدقت بزعم هؤلاء الأطباء الجهلة الذين لا يعلمون شيئا عن طبيعة الرجال والنساء. فما جدوى خنجر الجراح لو قطعت جسد المريض فحسب؟ ان المرض

ليس بشيء من الجسد بل هو مرض العقل الذي يؤثر على صحة الجسد. وعليه فان من يرفع من الأطباء عن المريض همّ العقل سينجح في شفاء جسده. فالعقل يعيد الصحة للمرضى من الناس... فهو المعالج الشافي.

ماري: العقل هوالمعالج الشافي...

- كويمبي : انت تجلسين قبالتي وتنظرين إلي فلا ترين احدا غيري، انا فحسب. اتركي العالم وراء ظهرك وانسي كل شيء... الأطباء الجهلة وعائلتك وناصحيك وكل الأذى الذي تعرضت له، وانسي حبوب الدواء والأطباء السخفاء فانا جالس امامك وانا الذي اعالجك.

ماري: ان ...ت...ت. .عا...لجني.

كويمبي: (يغمس يديه في الماء ويثره عليها):

أنا اغمس يدي في الماء النقي وارشه على جبينك. أنا اشعر ان ألمك ينتقل إلى يدي انا... انت لا تشعرين الآن بأي ألم.

ماري : لا اشعر .... باي ألم

كويمبي: كلا... ارفعي يدك اليمنى

ماري : ولكني لا أقوى على رفعها

كويمبي: قلت ارفعي يدك اليمنى.

ماري (ترفع يدها اليمنى) : اوه يا الهي.

كويمبي: ارفعي يدك اليسرى

(ماري ترفع يدها اليسرى وتجهش بالبكاء)

والآن انهضي

(تحاول ماري النهوض ولكنها تفشل وتعود للجلوس)

كويمبي: انهضي . انت ترغبين في النهوض. انت تستطيعين النهوض.

(ماري تنهض)

كويمبي: والآن سيري . سيري. أسرعي. والآن سيري الى هناك. (وقال لنفسه بصوت مرتفع: انها فعلا تستطيع السير).

المرضى: انها لمعجزة.....

كويمبي: تقولون انها معجزة؟ ان علينا البحث والسعي حتى نفهم وندرك ماهية تكويننا. ان من يتحدث من الناس عن المعجزات هم من يدرك من قدرة العقل النزر اليسير. فليست في الكون معجزات وكل ما فيه يسير وفقاً لقانون الطبيعة وما علينا الا أن نتأمل ونبحث.

تعلمت السيدة ايدي طريقة كويمبي في العلاج وعلمتها لتابعيها برغم انها انكرت عليه فضله في تعليمها. ولكن أي جدوى سنجنيها وهي ما فتئت تتعرض لنوبات مرضية بين فترة واخرى ولا ترجى أحداً في علاجها غير كويمبي القادر على ذلك عن بعد، تخاطريا، وبنفس النتائج ولما يكن بقربها![1]

(١) اقرأ كتاب (السيدة ايدي) لمؤلفه ايدون ف. دبكن، المكتبة العالمية، ص٤٨.

كان كويمبي رجلا نزيهاً من رأسه حتى أخمص قدميه، هاجسه العمل وان تمعنا في بعض ما فعل سيؤكد أنه قديساً في طينته. اما السيدة ايدي فلم تكن تملك من خصال القديس شيئاً فهي هستيرية، دائمة الشك في نوايا الآخرين، محبة للإنتقام، لا ينطق لسانها إلا بالأكاذيب ومليئة «الرغبات جنسية» حتى وهي في العقد السادس من عمرها. كانت تعتقد، كرامبوتين، أن الله منح قدرتها على علاج الأمراض ومنحه نفاذ بصيرتها في المخطوطات المقدسة، فيما يخالفها معلمها كويمبي ايمانها هذا فهو يقول بانه عثر على اكتشاف -أكدته في قرننا الحالي بحوث (ج.ب.راين) في علم التكهن النفسي- يرى ان عقل الكائن البشري يمتلك قوى اطلقت عليها قرون الماضي صفة الفوق طبيعية.

ان قراءة في عبارة كويمبي «يتحدث الناس عن المعجزات لأنهم لا يفقهون من قدرة العقل الا النزر اليسير» ستؤكد لنا الآن صعوبة تقديم اي تفسير منطقي لظاهرة القوى الخارقة- اي الفراسة والتخاطر ونفاذ البصيرة وصنع المعجزات ...الخ- لكن الأمر يستحق المحاولة.

بلغ الاستاذ (ايدموند هوسرل)[1] مطلع القرن العشرين حقيقة ادراكية مهمة تقتضي أن «الادراك» البسيط أمر لا يحدث على الأغلب. فلنت اذا وضعت هذا الكتاب على ركبتيك وطاف بصرك ارجاء الغرفة لربما بدا الأمر كأنك ترى وتسمع فحسب كل ما يصل جوانبك بيد ان عقلك مستمر في واقع الأمر على اختيار وانتخاب وتفسير وتحليل الأشياء واحيانا على خلطها وتشويهها. لقد سمعنا جميعاً عن نسوة هستيريات يعتقدن بانهن تعرضن للإغتصاب او عن

(١) هوسرل Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨). فيلسوف الماني. تساءل عن العلاقات بين الحياة والشعور الذاتي واللغة والادراك الحسي لجوهر الأشياء ومن ثم حقيقة العالم والانسان. أسس مذهب الظواهرية الذي يقول أن العقل لا يدرك الا الظواهر فيكر معنى الجوهر.

رجال دين متحمسين خال لهم أنهم رأوا المسيح والملائكة يسيرون عبر السماء. لكن الجزم المباشر في حالات كهذه أنها مجرد سراب أو حقيقة لن يكون سليماً كما نرى. (فنحن جميعا نفعل نفس الأشياء طيلة فترة صحونا كل يوم). وعليه ينحسر الإدراك الحسي الوحيد الذي لنا وصفه بـ (النقاء) في الأصوات التي تخترق مسامعنا ونحن بين الصحو والوسن او في الأشياء التي نراها والعقل فارغ من كل فكرة.

ان من الصعب اصطياد العقل، في ظل ظروف طبيعية، وهو مشغول في خلط وفرز الأشياء فهناك الخداع البصري الذي قد يعبر عن وجوده بنماذج خطوط، كأن يبدو خطان مستقيمان خطين منحنيين بسبب وجود بعض الخطوط المستعرضة او عندما ينحني خطان الى الداخل ويبدوان اقصر من اخرين منحنيين الى الخارج وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان العقل يعتمد كثيرا على نوع من الاختزال ومؤمناً انها حقائق لا جدال فيها. غير أن افضل وسيلة لدراسة قدرة الخلط والتشويه لدى العقل الإنساني هي من خلال دراسة علم النفس الجنسي والديني لأن اقوى قوى العقل تكمن فيها[1].

اخترع (هوسرل) تقنيات دراسة قوى الخلط في العقل واطلق على طريقته اسم (علم الظواهر) وهي بلا شك اهم الطرق الفلسفية في القرن العشرين.

ان اول الخطوات اذن لفهم راسبوتين هو ادراك وجود قوى تقف خلف عتبة الوعي وانها تتداخل باستمرار مع طريقة رؤيتنا للعالم الذي نعيش فيه وهي رؤية أقرب تشبيهاً بحالة امة تعتقد ان لها صحافة حرة مطلقة وهي تعلم بوجود عيون ترقب كل شيء يظهر في الصحافة. إن رؤية الأشياء كما هي لا يتأتى

(١) اقرأ لي (أصول الدافع الجنسي). المؤلف.

بمجرد أن تفتح عينيك وترى، بل هي مسألة تدريب فلسفي طويل وقاسي. ويطلق هوسرل على فرضية (الادراك) اسم (نقطة الاستشراف الطبيعية). وان كل ما كتب عن راسبوتين كان مصدره نقطة الاستشراف الطبيعية دون أن تشهد محاولة تأخذ بعين الإعتبار القوى العقلية الكامنة خلف حدود الضمير والتي لا يجب خلطها مع (اللاوعي) الفرويدي برغم وجود مناطق تداخل وتشابك بينهما.

نستنتج من ذلك بان (الادراك البسيط) هو مغالطة بحد ذاته. فالى جانب التحامل الواعي الذي ندرك أننا نفرضه على العالم من حولنا ثمة الف تحامل لا واعي نفترض به أمراً واقعياً.

غير أن العقل (يضفي) دوماً (صبغة) أساسية للعالم الذي يرى يمكن أن ندعوها مسألة اثبات الأشياء ونفيها. فالواقع يمكن رؤيته من خلال النشوة التصوفية لمتصوف او في هذيان امرء شديد الإرتياب من الآخرين وفي مئات الطرائق بين هذين البعدين فالتجربة المشتركة توجد في نقطة ما في وسط الطريق بينهما فما هي إلا طيفاً في ناحية النفي.

وليس من اليسير تحديد مسألة النفي أو الاثبات تحديداً دقيقاً طالما أننا نتقبل تغيير أمزجتنا بين فين وآخر بصفته أمراً حتمياً، كتقبلنا لسوء هضم في المعدة او بثرة حتى على الشفة.

بيد أن قدرة العقل على تلوين تجربته قد يتيسر الوصول اليه أحياناً. تأمل مثلاً هذا المقطع من رواية (عائلة كولفليوف) (الشريدن) وهي احدى اكثر الروايات تشاؤما في الأدب الروسي:-

كانت تقضي جل يومها كسولة فتجلس على كرسيها وتنثر على الطاولة امامها ورقها المتسخ ويغلبها النعاس حينئذ. ثم تستيقظ وتنظر وتطيل النظر من النافذة ثم، دونما فكرة تشغلها،... تجول بعينيها في الحقول الواسعة الممتدة على مد البصر. لقد كانت (بوكوريلكا) كئيبة ... ليس فيها للعين ما يمتع... وما من شواخص تزين موقعها... لا حديقة فيها ولا ظلال ولا مكان للاسترخاء... وحتى الأبنية خلفها توحي بالخراب... وتمتد حولها من كل صوب حقول مترامية الأطراف... حقول تجردت من الشجر.

لا يبدو ان الروائي يطرح هنا اي تلفيق ولم يحاول بلوغ نمط (كراهام كرين) في الاقحام فالمنظر شاحب كابتسامة ابله. وفي المشهد مسحة موحشة وهو جد عادي، لكن الروائي يغوص في أعماق وصف فيقول:-

أطالت نظراً الى الأفق... وتطلعت الى القرى الغارقة في المطر والتي بدت كبقع سوداء على الأفق... والى الكنائس البيضاء في المقابر والى رقع الظلال الملونة التي كونتها الغمامات على السهل.

يثير وصف الروائي «للقرى الغارقة في المطر والتي بدت كبقع سوداء على الأفق» لدى القارىء الذي تقبل عقله الوصف الكئيب وتأثر به قليلاً، ومضة مستطرفة من ومضات الحياة......انها رائحة المطر على الطرق المبللة وستعيد الى الذهن كل ملامح وروائح قرية ما في يوم ممطر. وستتهدم للحظة الجدران الوهمية التي أرست دعائمها أحاسيس الروائح وستفوح عنها رائحة الحياة الحقيقية لندرك حينها اننا كنا ضحية نوع من لعبة الثقة...... لعبة مارسها علينا عقلنا عن طريق اختياراتنا الفكري على ملاحظة جوانب معينة فقط من تجربتنا وعلى إطلاق العنان لهذه الجوانب في تكوين امزجتنا. اننا ندرك بان

السهل العادي الكئيب الخالي من الشجر ما هو إلا جانباً واحداً من الحقيقة. وربما يرى (فان كوخ) هذا الوصف مشوها بقوة الحياة او ملتمعا كجوهرة فريدة. بيد اننا سنضل عن روح الفلسفة إذا ما اعترضنا وقلنا ان نظرة الزاهد في الدنيا هي النظرة المنحرفة واللاواقعية. ان ما يحدث عند قراءة عبارة الروائي «قرى غارقة بالمطر» والتي تخلق تموجا معينا في العقل هو ان (الحواس تتفتح) وتقبل من الواقعية أكثر مما ستدركه في الحالة الطبيعية وستغدو القرية اشد إرتباطا بالواقع، بدلا من ان تظل سجينة وسط جدران لا مرئية. ان العقل مرغم على بناء جدران لامرئية وعلى انتخاب وعزل ما يراه... فما اشبهه بجواد منطلق مع الريح وعليه أن يُوقف عند اشارة حمراء. ان النظرة الشمولية للأمور توهن من فعاليتنا ومقدرتنا على البقاء، وبالتالي المخاطرة باحتمالية مستقبلية لـ (وعي شمولي). بيد ان الإنسان قادر، برغم أنه (متكهف) في حدود حواسه الخمس كما يشير بليك، على الخروج (من هذا الكهف أنى شاء) فيفتح (أبواب الادراك) ويشعر غرابة الواقع الخارجي (أو غريته). ولا أرى أن من الصواب تماماً الافتراض ان الإنسان قادر على الخروج من محدودية حواسه أنى شاء فالأمر يتطلب نظاما عقليا شديد القوة او يتطلب استخدام مخدرات معينة، مثل المسكالين، ومع هذا يبقى بمقدور من يدرك أن نقطة الاستشراف الطبيعية ليست هي الحقيقة المطلقة بل هي عرف فحسب، الخروج وقتما يشاء والتحرر من قيود حواسه.

ان احدى قواعد نقطة الاستشراف الطبيعية لدينا، باعتبارنا كائنات اجتماعية، هي تبني موقف ينطوي على انعدام حيال العالم من حولنا، وفيما هي ليست بالرؤية المطلقة التي غطت المزاجيات الكئيبة لفان كوخ عندما كتب «الى يشهي البؤس»، فانها بعيدة كل البعد ايضا عن ايجابيات الحياة التي نراها في

وسوماته او في بعض من أوراق الشر التي كتبها نيتشه.

اما «الامكاني» فيصل الى اكتشاف على جانب من الأهمية مفاده ان انعدام ثقتنا في العالم شعور مبالغ فيه على الأرجح. كتب هـ.ج. ويلز قائلا: -

«اذا ما حطم الانسان الجدران الورقية لظروف حياته اليومية... تلك الجدران الوهمية التي تكبل أغلبنا من المهد الى اللحد، فيكون قد فعل صنيعاً جديداً، واذا ما غدا العالم كآبة فان بوسعك قلبه».

ان اولى الخطوات هذا الرفض الغريزي لنقطة الاستشراف الطبيعية هي التصميم على هجر الطمأنينة التي اعتادها الإنسان... وسيضحي، طبيعياً، من يتبنى هذا القرار نابذاً للعالم وجوالاً ينشد الحقيقة.

صحيح ان «المثالية» لا يمكن ايجادها في العالم الخارجي وأن كثيرا من رومانتيي القرن التاسع عشر قد كتبوا اعمالا يكتنفها اليأس ينتهي فيها الجوال او السائح بالإنتحار او الموت من شدة الإرهاق، لكن حفنة منهم حاولت ان تهمس وقع ان يكون المرء جوالاً وربما اكتشفوا أن مجرد تجوالهم في أعقاب «المثالية» سيجلب لهم بعض التغييرات ويمنح قدرا من الحرية من سجن الشخصية الأولى. ان نبذ الدعة والطمأنينة يخلق بدءا شعورا صحيا لبداية جديدة وشعورا بالتفوق على من ظلوا مكتسين برداء الخوف من الحياة كما يخاف اللص من القيد، ويتلقى الوجود كله عنفا ودفئا جديدا.

بيد ان التغيير، الذي يمكن ان يحدث، نادرا ما يكون عميقا ومتواصلا الا ما بقي بعيدا عن اللذين لأن ما من شيء يمنع تكون شخصية جديدة قائمة على اللاطمأنينة المادية على ان تكون هذه الشخصية الجديدة بالضرورة أدنى من

الشخصية القديمة في جوانب معينة، فمثلا سرعان ما يدرك «الجوال» او «السائح» أنه يدفع في الاسبوعات الأول من رحلته، ثمناً لبهجته وحريته انشغاله بمئات القلاقل الصغيرة: اين سينام؟ وكيف سيتدبر وجبة الأكل القادمة؟ وسيتخبط في شعور الضياع فالعالم الخارجي يتطلب الآن منه اهتماما اكثر من ذي قبل. وهذا التفاقم في الإهتمام للعالم الخارجي يتطلب اهتماماً متكافئاً له في الجوانب الذاتية، لأن شعور الضياع يستوجب توازناً مضاداً له بالعودة الى جوهر الهدف من هذا الترحال في اعماق الوعي وهذا لا يتم تحقيقه إلا بالصلاة او التأمل. ان الصلاة تبذ للشخصية الواعية. وبينما تتوجه صلاة المتدين الجاهل بدواخل الإيمان خارجاً وكأنها موجهة الى سلطة ما، تتجه صلاة المؤمن فطريا الى الداخل... الى نبع الهدف الذي يخترق الوعي والضمير كخندق شديد العمق وفي حالة كهذه يصعب على الشخصية الجديدة التقوقع في صدفة محصنة وستواصل معها الدافع الجوهري للحرية.

ثمرة هذا الموقف الجديد حيال العالم الأكثر أهمية هي انها تطور «الدافع الزهدي» حيث تبدو الأشياء (مختلفة) عن سابق حالها لسبب بسيط هو تشرب الادراك الحسي بمزيد من الفعالية. و (ستتفتح) الحواس وستملك مزيداً من الطاقة في خزينها وسيتولد عن الطاقة المخزونة عدم ثقة لمواجهة طوارىء الأمور وكل هذا سيتحرر وينطلق. وسيدعم وضوح الغاية العقل الذي سيهدأ وسيكون نتاج هذا التنسيق بين المخ والأعصاب والجسد درجة جديدة من الصحة. ويدرك جميع الأطباء أهمية الموقف العقلي للمريض تجاه المرض فمن يظن الموت عاقبة مرضه يكون قد خسر نصف المعركة والعكس صحيح. وهذا ما يفسر صحة راسبوتين القوية والثابتة التي تصل الى حد يصبح فيه مجرد وجوده قادراً على منح القوة لشخص مريض.

ليس من الغريب اذن أن تتحسس زوجة راسبوتين التغيير في زوجها بعد عودته من اول زيارة له لفلسطين. فمعظمنا يعيش غمار تجربة تغيير كبرى في الشخصية لا غير عند العبور من المراهقة إلى دور البلوغ والنضج، وتبقى الشخصية ساكنة مستقرة بعد ذلك. اما راسبوتين فقد نجح في المرور بدوري بلوغ في حياته واكتشف ايضا ما تجلت له صيغة صائبة لإحداث تطوير جديد في الشخصية وهي الصلاة ونبذ متاع الحياة. وكان راسبوتين -يجد في الصلاة والتهجد قوة لا نظير لها وامضى حياته لا مباليا وعازفا عن الرغبة في امتلاك حطام الدنيا.

من كل هذا ندرك الآن سر امتلاكه لسطوة عظيمة كهذه على القيصر والتزارينا اللذان طاردهما المخاوف من القدر المفجع المشؤوم ومن نهاية حكم سلالتهما، فقد ظنوا الأمر مقضياً أن يطاردهما القدر بسوء حظه وهما في موقفهما هذا قد جاءا بسوء الحظ على نفسيهما. لقد أضاقت عليهما الخناق (نقطة الاستشراق الطبيعية) فيما جسد وجود راسبوتين انكاراً للقدرية ورفض الانسان للهزيمة النهائية. وبينما كان كلاهما عصبياً، أمسك راسبوتين بزمام أعصابه، كان هو في قمة السيطرة على زمام اعصابه. وكانا مدركين لقصورهما وعجزهما كبشر اما هو فقد كان يعتقد بان احساس الإنسان بقصوره وعجزه ما هو إلا تقليداً اعمى لا واعي... مجرد عادة قابلة للتغيير كبقية العادات بما فيها عادة الخوف من الموت. وبات القيصر وزوجته في حضوره أكثر ثباتية فهو مصدر طاقتيهما. وبينما كان عقل كليهما نصف نائم يخلط الاحلام القلقة بالواقع، كان عقل راسبوتين في اقصى درجات الصحوة.

غارجييف:-

لا نملك، لشديد الأسف، قصاصة ورقة كتبها راسبوتين بخط يده في اولى سنوات ترحاله كما لم يتحدث عن شيء منها لأحد. لكننا نملك من الوثائق ما يكفي عن اشخاص نهجوا نهج راسبوتين، سيما معاصرة جورج ايفانوفيتش غارجييف، الذي سيدعم القاء الضوء على حياته بعض ما يقال عن راسبوتين بشكل او بآخر:-

ولد غارجييف في الوقت عينه الذي ولد فيه راسبوتين تقريبا في (اليكساندرابول) في اقليم(ارمينيا) وامضى طفولته وشبابه في(كارس) التي كانت جزءا من روسيا ولكنها الآن ضمن الأراضي التركية. اهتم منذ نعومة اظافره بالسحر وبالقوى الخفية للعقل وقد شاهد في صغره الدراويش وهم يقومون باعمال بطولية خارقة بواسطة السحر وشاهد ايضا طفلا يزيديا فقد القدرة على عبور الدائرة التي رسمت حوله. تلقى غارجييف تعليمه على يد عميد الأكاديمية العسكرية في كارس الذي اعتقد بامكانية غارجييف العقلية على التطور. وما ان ادرك غارجييف ذلك حتى قرر التجوال سعياً وراء اجوبة لأسئلة أقلقت مضجعه تتعلق بشخصية الإنسان وحدود مقدرته وحجم امكانياته. وقد روى بعضاً عن رحلاته تلك في كتابه «اللقاء برجال جديرين بالاهتمام»، وفيها سافر لأستراليا والتبت حيث غدا معلما خصوصيا للفتى (داليه لاما)، وذهب في بعثة لصحراء كوبي المهجورة بحثاً عن مدينة مطمورة. استغرق في تجواله زمناً يقارب ما استغرقه راسبوتين في تجواله، ثم شرع على مدى النصف الثاني من تسعينات القرن التاسع عشر وبواكير العقد الأول من القرن الحالي بالقاء الخطب في موسكو على مجموعات من التابعين المختارين كان بينهم (بي. دي. اوسبنسكي) الذي التقاه هناك عام ١٩١٤ وبات تلميذه النابغ.

ظل غارجييف مراوحاً بين بطرسبورغ وموسكو وموزعا نشاطه هنا وهناك وقد اجمع كل من الشقاء على امتلاكه صفات أعادت الى ذاكرتهم صفات راسبوتين وهنا عبر (بيولين بويز) عن ذلك بقوله : «في وجوده سحر غريب يترك أثراً على الأعصاب على نحو غريب ». وأطلق على تلاميذه صفة (ارانب متومة مغناطيسيا). كان (روم لاندو) من اوائل من قارنوا غارجييف براسبوتين، ووصف لقاء له مع غارجييف قائلا: -

«لا كنت حذراً الا أنظر اليه وأن أحجب عن عيني نظرته اليهما لأطول من دقيقتين في أقل تقدير وسلخت طول الوقت أنظر الى العصي بيد ان شعورا بالضعف بدأ يتسلل لاعماقي شيئا فشيئا.

كنت يقظا وواعيا لما يجري في داخلي وكنت اتحسس هذه التجربة الجديدة المثيرة وانا في اشد حالات الإدراك. كنت اشعر برجفة شديدة تجتاح معدتي بلغت دوماً درجة الألم الجسدي والخوف. لم يسر هذا الضعف إلا لمعدتي وساقي اللتان تخللهما احساس أشبه باحساس المرء قبيل دخوله قاعة المحكمة، لذا كنت واثقا ان ساقي سيخذلانني ان حاولت النهوض.

وبرغم ادراكي أن حالتي المريبة التي أعيشها الآن ناجمة عن تأثير غارجييف، فقد بقيت ساكن الروع حتى عزمت على الخروج منها أن ضاعفت من تركيزي على سير الحوار بيني وبين العصي وشيئا فشيئا اختفى الإحساس بالضعف وبدأت أعود إلى حالتي الطبيعية مرة اخرى.

ان لتجربتي الغريبة هذه تعليلات عديدة... فربما كانت صيغة من صيغ التنويم المغناطيسي او حتى التنويم المغناطيسي الذاتي الذي اثر، لسبب ما، على الجزء السفلي من جسدي... او ربما شكلا من اشكال الفيض الكهربائي التي

يقال ان راسبوتين يمتلك منها ما يفوقه بكثير. ويبدو هذا النمط من الإشعاع فاعلا حتى لو لم يكن مالكه مدركا وواعيا لوجوده وينتمي اليه كما تنتمي بعض العطور والروائح لبعض الأعراق.

غير أن تفسيراً آخر لتجربتي الغريبة تلك لما يزل عالقاً. فربما يشعر اختبار العراف عن نتائج (مماثلة) لنتائج تجربتي- طبقاً لآراء العرافين- وها هو (رودلف ستيز) قد تفحص الناس بهذه الطريقة أحياناً والتي تتلخص أن تتطلع العينة الى روح المرء بدلا من جسده»[1].

لقد انتقيت المقطع الأخير طالما هو يشير الى القدرة ذاتها التي قيل ان راسبوتين يمتلكها، وهي قدرة النفوذ الى «اعماق» الناس.

ولنقارن الآن تعليق لاندو عن غارجييف مع وصف يوسوف للقاء مشابه له مع راسبوتين[2]:-

«امرني» (الستارتيز) بالإستلقاء على الأريكة، ووقف قبالتي وأطال النظر الى عيني. وأخذ يضرب بخفة على صدري ورقبتي ورأسي. وعلى حين غرة ركع وشرع -كما يبدو- بالصلاة واضعا يده على جبيني. ثم اطرق حتى لم اعد قادراً أن أرى وجهه.

ظل على هذا الحال حيناً ثم قفز فجأة وبدأ يذرع الغرفة ذهابا وايابا. وبدا حسنَ المعرفة بطرائق التنويم المغناطيسي، وذا قابلية عظمى على التنويم المغناطيسي. فقد احسست انها تقهرني وتشيع الدفء في كياني فأخذني الخدر وبدا

(١) روم لاندو: (الله هو مغامرتي)، فبر وفبر، ١٩٤١.
(٢) إرلس يوسيوف: راسبوتين، تأثيره الماكر والقياله، ص١١٣.

جسدي مشلولاً. حاولت الكلام ولكن لساني عصاني وشعرت أن النوم قد غلبني كما لو كنت تحت تأثير مخدر. ومع هذا تلألأت عينا راسبوتين كضوء فسفوري، وانطلق من كليهما شعاع اندمج مع الآخر وكونا دائرة لامعة براقة، تحركت بعيداً عني أول وهلة ثم أخذت بالإقتراب مني اكثر فأكثر. وكنت أشعر أني بقادر أن أميز عينيه والدائرة قريبة مني ثم لا يلبثان أن يتلاشيا ويختفيان داخل الدائرة حين تبتعد عني. لقد ادركت ان (الستارتز) كان يتحدث ولكني لم استطع أن أميز أي الكلمات ينطق.

هكذا كانت حالتي وأنا جالس بل حراك لا أقوى كلاماً ولا أحرك ساكناً. بيد ان عقلي لما يزل حرا وادركت انني كنت اقع تدريجيا في شباك قوة هذا الرجل الغامض.

لكنني سرعان ما شعرت أن قوتي الداخلية بدأت تفيق وتقاوم التنويم المغناطيسي بذات حدتها. وتعاظمت قوتها في داخلي وفي وعيي وطافت في عقلي الواعي فكرة غامضة أن صراعا عنيفا يدور رحاه بيني وبين راسبوتين وان شخصيتي، في معركتي ضدها، أحالت دون هزيمتي منه. ثم حاولت تحريك يدي فطاوعتني الآن، لكنني لم اغير من حالي فقد انتظرت امر راسبوتين بذلك.

وغدوت الآن قادراً أن أميز شخصه ووجهه وعينيه فقد ذابت من أمامي الدائرة الرهيبة... وقال لي: «حسن يا عزيزي، هذا يكفي هذه المرة».

يطلق الآن للحالتين كلتاهما سؤال يتعلق بمدى تأثير التنويم المغناطيسي الذاتي في هكذا تجربة او بصراحة اكثر الى أي مدى ستكون فيه تلك التجربة محض خيال. ومع هذا، ثمة الكثير من الدلائل المسجلة حول قدرة راسبوتين وغارجييف التي تجعل من هذه التجربة وسواها حقيقة لا يشوبها غبار. فقد

جرب (اوسبينسكي) أحد تلاميذ غارجييف، والذي يملك حساً علمياً متفوقاً قدرة استاذه التخاطرية بعد ان خبره دهر طويل. وقد وصف في كتابه «في سبيل البحث عن المعجزة» هذه التجربة وقال: «استطيع ان اؤكد ان غارجييف لم يستخدم بتاتا اي طرائق خارجية، فهو لم يعطني اي نوع من المخدرات ولم يستخدم اي نمط من انماط التنويم المغناطيسي المعروفة». سمع اوسبينسكي صوت غارجييف: «في اعماق صدره» واجاب عقليا على أسئلة غارجييف الذي كان آنذاك جالساً بمعية آخرين في غرفته.

لم يكن غارجييف، شأنه في ذلك شأن راسبوتين، نافرا من الإستفادة من تلميذاته. وثمة الكثير من الحكايات عن قدرته الجنسية. وهنا يروي (روم لاندو) طرفة عن سيدة امريكية هي (احدى اعظم روائياتنا) كانت تجلس على طاولة قرب غارجييف وفجأة شحب وجهها وشارفت على الإغماء. اعترفت بعدها لصديقتها بان غارجييف نظر اليها فشعرت فجأة بانها اصيبت في صميم حسها الجنسي».

ولم تكن أساليب راسبوتين، وفقاً لما أورده فولوب ميلر، لتختلف كثيراً عن طرائق غارجييف برغم ان سرد (فيرا شكوفسكايا) اقل غموضاً:-

سحبني لغرفة النوم ممزقا ثوبي... وما هي الا برهة حتى استحال وحشاً تفترسه رغبته، وآخر ما أذكره، ان اسعفتني ذاكرتي، أنه مزق ملابسي الداخلية وفقدت الوعي بعدها. وصحوت فوجدت نفسي ملقاة على الأرض، ملوثة وجريحة.

لكن تلك كانت زيارتها الثانية وهي تتحدث عن قوة التنويم المغناطيسي التي اقنعتها بالعودة اليه ثانية.

ان دراسة أعمق لغارجيف وراسبوتين ستفصح عن مزيد من الصفات المشتركة بينهما، لكننا نقر هنا ان غارجيف يمتلك عقلا انضج واوسع من راسبوتين. ويقود معركته ضد «خول العقل» بسلاح الوعي التام. لكنه ظل، مثل راسبوتين وعكس تلميذه اوسبنسكي، متدينا بالفطرة وكثيراً ما ردد عبارة «بعون الله» في كتابه «اللقاء برجال جديرين بالإهتمام». ولو أراد القدر أن يلتقي القيصر غارجيف لا راسبوتين عام ١٩٠٥ لغدا اقوى رجل وابغض رجل في روسيا، لكن حسن طالعه أبعده عن دوامة السياسة فأطال من عمره ثلاثين عاماً أكثر من راسبوتين حتى توفي في باريس بسبب التخمة بعد الحرب العالمية الثانية.

نستشف من المقارنة بين غارجيف وراسبوتين جوهر المشكلة المركزية في شخصية راسبوتين، وهي المشكلة ذاتها التي قلما يبلغها كتاب سيرته الذاتية ويبدو هذا جليا عند قراءة عنوان احد الكتب عنه: «قديس ام شيطان؟». فهؤلاء الرجال ليسوا مجرد دجالين أذكياء بل هم أناس ملكوا قوة حقيقية. فحق لنا أن نتساءل اذن: اي نوع من الرجال يمثلون؟ فما كان أحدهم بقديس وما كان برجل خارق- لو كنا نعني بالرجل الخارق نوع الانسان رفيع المقام. فكيف نحدد إذن هذا النبوغ الروحي؟

يميط (الدوس هوكسلي) اللثام عن مشكلة مماثلة في كتابه الموسوم بـ«السمو الكئيب»، الذي هو دراسة عن الأب جوزيف في باريس. ويتساءل الكاتب: كيف بوسع الأب أن يكون قديساً وسياسيا متنفذاً في آن واحد، بل وأكثر من ذلك أن يغدو المسؤول الأول عن حرب الثلاثين عاما؟ لقد مارس الأب جوزيف مبدأ الزهد في ابتعاده عن العالم والإنغماس في حب الله وعمل في الوقت ذاته سفيرا ومستشاراً لـ (ريشيلو) ودفع باوروبا نحو الحرب. وهو، كأغلب الساسة، لم يتلمس عواقب أفعاله في اطار المعاناة الانسانية. وعليه أمسى

لفعله هذا مسؤولاً غير مباشر عن موت ثمانية ملايين نسمة في ألمانيا وحدها، ومع هذا تثبت كتاباته أنه قد أحسن صنيعاً في درب القداسة.

لقد خبر شيئاً عن العالم الآخر - عالم السرمدية- لا بعقله فحسب بل باطلاعه الفعلي المباشر عليه.

ربما أضحت القداسة قاصرة لهذا السبب. فالقديس أكثر اهتماماً بالله من اهتمامه الممكن لبني البشر. وثمة شيء مجدب وناقص في طبيعته. وخير مثال لنا في (راماكريشنا) التي لو قرأها المرء لتسلله نفس الشعور ولتوجس فيها عنصر الطفولة في تقواه لربه وفيها مسحة أنانية وحتى سخافة مطلقة.

وتزداد المشكلة صعوبة لدى راسبوتين وغارجيف. فقد كان غارجيف- على سبيل المثال لا الحصر- مادياً بحتاً برغم ما قاله احد اتباعه انه اصبح محبا للغير واقل مادية بعد تعرضه لحادث على دراجته النارية عام ١٩٣٥. وقد خصص فصلا كاملا في كتابه «رجال جديرون بالإهتمام» للتعليق على أساليبه في جمع المال والتي كانت تفتقر للشرعية، ويبدو انه كان يجد متعة في وصف نذالاته بينما كان راسبوتين عازفا عن المال لكنه كان محبا للنفوذ ومتبجحاً بتأثيره على الآخرين.

يلقي راماكريشنا في ملاحظة شيقة له بعض الضوء على هذه المشكلة، فيقول ان الناس ينجذبون للقديسين كما ينجذب الدبور للعسل لأن القديس يشع ولما يسعى في محاولته البطيئة للوصول المباشر للرب قوة تخرج منه دون أدنى جهد له.

ونستطيع رصد هذه القوة في كل يوم. فما علينا الا الذهاب الى «ركن

المتحدثين» في (هايد بارك) وترقب بعض المتحدثين وقد أحسوا بلاء في بلاغتهم لكنهم ما لبثوا أن فقدوا تأثيرهم على الجمع المستمع في اللحظة التي أوقفوا فيها الحديث. انهم يفتقرون للقوة التي تحدث عنها راماكريشنا والتي يكتسبها المتدرب بطيئاً وبعد صبر طويل. فاذا ما تحقق له ذلك ضمنت له طبيعة التدرب انه لن يسيء استخدامها.

لكن لهذا القانون استثناءاته. فبعض الرجال يولدون وهم على تماس مع (القوة الداخلية) كما يولد بعض الأطفال برأسين. وهذا النمط من الرجال سيغدو لأنه افتقر الى التدريب الأخلاقي الاخطر بين انماط الجنس البشري. وهكذا كان نابليون وهكذا ولد هتلر. وهذا هو نوع القوة الذي يعنيه الفوضويون عندما يقولون ان القوة تعيث في الأشياء فساداً. ويبدو ان قوة هتلر قريبة في نواح عديدة من قوة راسبوتين اذ استخدم تعبير التنويم المغناطيسي كثيرا في تأثيره على جمهوره. (بيد ان صدى هذه القوى مسموع فقط عندما يكون الجمهور كبيرا ولا تظهر بشكل فاعل في الإتصال الشخصي المباشر). ويتحدث (كيرت لوديك) عن بلاغة هتلر الخطابية فيقول:-

أنى لي ان أنأى عن سطوة قوته؟ انها تمسك بي وتؤرجحني... لست أنا فحسب بل جميع من في الصالة. لقد أسرني شعور أن أتخلى عن ارادتي لقيادته.

يبدو هذا التعليق كأن مصدره احدى تلميذات راسبوتين.

كان راسبوتين وغارجييف من هذه الفئة وان كانا أقل درجة بقليل من هتلر، وكلاهما سلخ سنين طوال يطور من قدرته. ومع هذا فقد اكتسباها بيسر بينما لم يجاري تطورهما الأخلاقي تطور قدرتيهما. وعليه فقد شوهتهما بعض الشيء قدرتهما. ويبدو هذا جوابا لبعض تناقضات شخصية راسبوتين والتي

حيرت الكثير من كتاب سيرته الذاتية وستحدث عنها باسهاب لاحقا.

تؤكد دلائل الأصدقاء والأعداء و (المراقبين الاسوياء) أن راسبوتين قد ملك قدرات لا يستهان بها تنقسم الى نمطين مختلفين لا يجب الخلط بينهما برغم تفاعلها المحدود :- انها اجتراح المعجزات والتنويم المغناطيسي. وترتبط قدرته على التنويم المغناطيسي بقوة شخصية التي صقلتها سنين التجوال. غير أن قدراته على صنع المعجزات هي نتائج وجهة نظره الأساسية تجاه العالم. اذ يجد معظم البشر صعوبة في الإسترخاء من وجهة نظر دفاعية معينة حيال العالم، وستكون النتيجة بقاؤهم في حدود شخصياتهم المحيطة بهم بخط دفاعي. لقد ادرك راسبوتين وهو طفل أن حريته وحبه للخير أمران مقضيان وانطوى موقفه من العالم على الاسترخاء والاتساع، وهو الموقف الذي دعى اليه (فينيس كريمبي) والسيدة (ايدي). (لم تعتقد السيدة ايدي أن المرض الجسدي هو انعكاس للمرض العقلي فحسب بل علمت ان الحظ العاثر وحوادثه ليس الا نوعاً من انواع المرض الذي يمكن تفاديه بادراك الخير الذي يحمله العالم لنا). كان راسبوتين مكتشفاً روحيا لأنه لم يكن يخشى الوثوق في الآخرين ولا المغامرة خارج الخط الدفاعي لحدود شخصيته. وقد علمته نتائج تجاربه أن حساباته لم تكن خطأ. لقد كان يشع الثقة بالحياة وليس في جوانب شخصيته اية شعوذة. بيد ان هذه الثقة لم تكن من نمط الثقة الطفولية التي لدى القديس فرانسيس او راماكريشنا. ولأنه كان قرويا ولد في بلاد عاملت القرويين كحيوانات لقرون عديدة، فقد حافظ على وعي طبقي عميق ولم يتغلب على رغبته في السيطرة على علية القوم. لكنه لم يكن زاهدا كافياً كي يصبح قديساً برغم أنه، مقارنة مع معاصريه، كان أنموذج الزهد. لقد أفاضت شخصيته بهذا الوعي الطبقي العدواني حتى سحقته آخر المطاف.

الفصل السادس

ارتقاء السلطة

أثار راسبوتين حيثما وطأت قدمه عداء الآخرين له، لكن أغلب من عاداه ظهر في بطرسبورغ بين عام ١٩٠٧ وموته. ولا يصعب علينا معرفة سبب ذلك. فمدينة بطرسبورغ كانت رمزاً للتدهور والانحطاط الخلقي الذي لم يترك ركناً منها الا ونخره.

لا يدرك معظم الناس قيمة الحياة الا حفنة من الشعراء والمتصوفين. وربما يدرك المحكوم بالاعدام قبيل زهق روحه قيمة الحياة باكملها. وقد ورد عن قاطع طريق امريكي يدعى جارلي بيرجر قوله وحبل المشنقة حول رقبته: «ان العالم جميل فعلاً...» لكنه لم يدرك ذلك الا قبيل الموت. لقد كانت حياته شريطاً من الهمجية والوحشية والغباء.[1] والمنية اذا ما دنت حيثة لصاحبها ازاحت عن عينيه غشاوة جعلتها مكفوفتين سابقاً حيث تتحد الجوارح مع الخيال ويبدو مثل الإنسان منتهى العبث. وقد بلغت مدينة بطرسبورغ ذروة الإنحطاط والتفسخ جسدها كتاب أمثال (اندريف وارتسياشيف وبيلي وبريسوف). وبينما كانت بطرسبورغ طافية فوق بريق متهور محموم في ظاهرها فإن باطنها ما زال لا مبالياً كما صورها هكذا (كوكول وكونشاروف). فالمال قد غير ملمس الأكف

---

(١) أعدم بيرجر في وليامسون كونتي، ايلينويس، في نيسان عام١٩٢٨ وقد كان مهرباً وسفاحاً. انظر كتاب بول الجل (اللجوء للعنف).

سريعاً، والنساء قد استبدلن شريك الليلة بسيراً. وهنا كتب (كونت فاسيلي) الذي خبر اربعة قياصرة بلهجة ساخطة قائلا:-

اختفت الصالونات... وحل بدلا من النسوة اللاتي كن صنعن وسحقن السمعة الاجتماعية بارائهن وامزجتهن نساء احتللن الصفوف المتقدمة بفضل ثرواتهن أو لوقاحتهن وجرأتهن، واللاتي تجمع حولهن الكثير للعب البريدج او لمناقشة اتفه المواضيع... اما فن الغزل الذي بلغ ذروة الكمال في سالف الأيام فقد اندرس، فلمَ يتجشم المرء عناء المغازلة وله أن ينال منا يبتغي دون مشقة؟ ويذهب فاسيلي أبعد من ذلك، وهو يعلم من أين تؤكل الكتف، فيصف أسباب السأم والاضطراب:-

مهما تعاظمت زلات القياصرة... ومهما أساؤوا في الأرض ايذاء، فلن ينكر أحد عليهم شدتهم... أما قيصرنا الحالي فهو سفير القياصرة الأول الذي اجتمع فيه الضعف واللاحزم وهو اول من افتقد اهمية الوجود لدى رعاياه الذين لا يكن أحدهم له بغضاً ولا يخشون له عاقبة.

ويختم فاسيلي كتابه بكلمات ذات نغمة تنم على نبوءة حقيقية:-

لم يشهد سفر التاريخ الروسي، ولكم أن تصدقوني، حاكماً ابتغى حماية الله أكثر من نيقولا الثاني... في السنة التاسع عشرة من حكمه العاثر الحظ والكئيب.

كتب فاسيلي هذا في عام ١٩١٣.

لقد أصاب فاسيلي الحقيقة في كلماته. فقد اعتاد الروس على حكم قياصرة اشداء، اما الآن فحاكمهم ضعيف واهن. لكنهم برغم ذلك احسن حالا في

ظل حكم نيقولا الثاني من حالهم أيام حكم ابيه. فأمامهم نصيب أوفر من الحرية. لكن الحرية مسألة نفسية لا يمكن لها ان تتعايش مع السأم وانحطاط الحياة. وعليه نال سكان بطرسبورغ اقل حرية من اي وقت ولىّ منذ زمن «ايفان الرهيب».

وصوب ذلك المنزل الملتهب، قدم فلاح لا يفقه عن الحرية الا نزراً ولم يكن من حنقة الذين حطوا من شأن الحياة وما كان يكيش فداء لمرض عصبي واستهجن أن الحياة تحدّ مصيره المزيمة. لم يكن وجوده إلا اهانة لمن هم مرضى روحيا، وعليه أضحى عاجزاً أن يخفي عنهم اشمئزازه منهم. لقد أهاجت شيطانه رائحة الأجساد المدللة والعقول التافهة فأفنى عليها في رد فعله. كان قريبا في حالته هذه من (هاندبل) في لندن عشرينات القرن الثامن عشر مع فارق وحيد هو ان هاندبل كان قادرا على الثبات استقلاليته عن المجتمع الحديث (برغم انه كاد يفقد حياته وعقله). ولأنه كان عبقرياً خلاقاً فقد تعثرت أحقاد الآخرين أن تتخطى داخل غرفة كتابته. لكن الانسان كان مادة راسبوتين فهو مضطر للتحرك بينهم باستمرار. فكان من المستحيل الا يشعر بحقدهم وكراهيتهم، وكانت استجابته الحتمية أن يكون اكثر عداءا مع من يكره من الناس. كما بدأ يفتقد للأصدقاء ولناس يثق بهم وهذا الجوع للصداقة قد اسهم في سقوطه.

كان راسبوتين غريباً في اختياره اصدقاءه. وكان احدهم يهودياً صغير الحجم اسمه (آرون سيماتوفيتش) يعمل جواهريا التقاه راسبوتين في كييف وعالج ابنه في شارع (فيكتوري دانس). وهو نفسه سيماتوفيتش الذي كتب سرداً مثيراً عن حياة راسبوتين افتقد تماماً الى الواقعية. جاء سيماتوفيتش شارع بطرسبورغ في عام ١٩٠٢ وسرعان ما اصبح جواهري الترازينا، والتي كانت بجانب كثرة عيوبها بخيلة أضافت ببخلها صفة سلبية على القصر الملكي الروسي. وقد اعتاد

سيمانوفيتش يبيعها المجوهرات بحساب مفتوح هو نوع من نظام التأجير- البيع بسعر منخفض. وربما استعاد خسارته مع التزارينا من اعضاء البلاط الأخرين فقد سجل قائلاً: «ان النبلاء الروس يجهلون تماما لغة الأعمال». تكيف سيمانوفيتش، بخلاف راسبوتين، على جو بطرسبورغ الجارف وعلى مكائده فانغمس فيه جذلا مستغلا كل فرص تحصيل المال، لذا سرعان ما اقام نوادي ليلية وحلقات قمار واماكن دعارة. وربما تبرر سيرة حياته وجهات النظر الناعقة للسامية التي تبناها اتحاد الروسيين المخلصين، آخذين بنظر الاعتبار أن يهود روسيا لم ينالوا من حقوقهم قسطاً برغم أنهم ليسوا أقل عدداً من أعدادهم في باقي بقاع العالم. كتب بيرس قائلا: «لا تتعلق القضية بالحقوق التي لا يتمتع بها اليهود بل بحقهم بالوجود اصلا». استوطن اليهود مكرهين في اطراف المدن وحرم عليهم استخدام خدم مسيحيين وارسال اطفالهم للمدارس. وتمادت الشرطة في معاملتها لليهود (وفقاً لتوجيهات عليا) ولم ينالوا لذلك انصافاً قانونياً وأجيز للشرطة ادارة (خدع حماية) الى الحد الذي كان سيدهش (آل كابوني)، فلا عجب اذن ليهودي مثل سيمانوفيتش أن يتجرد من وخز الضمير ويستغل مجتمعا منحطا.

اصبح سيمانوفيتش، بشهادته هو، معلم راسبوتين السياسي، وهو قد أعدّ المثالية، شأنه في ذلك شأن من كرسوا انفسهم لحياكة المكائد، عبثا لا يرجى منها فائدة وهو ما أضفى على اعجابه براسبوتين مسحة الازدراء. ويتذكر كيف ونّغ راسبوتين بين الحين والأخر كطفل ليعطي انطباعاً أنه كان (السفينكالي) يقف خلف السفينكالي. ربما يقول الحقيقة فراسبوتين لا يعرف شيئا عن السياسة وقصة حياته تؤكد تعلمه القليل منها برغم معونة سيمانوفيتش.

فغالبا ما عمل سيمانوفيتش وسيطا بين راسبوتين وبين سيدة أخرى من

سيدات البلاط تدعى (آنا فيروبوف)، ابنة (الكسندر تانييف) رئيس القضاء الامبراطوري ومؤلف موسيقي[1] من الدرجة الأولى. غدا تانييف احد مقربي التزارينا بسبب ولعها بالموسيقى، فكان قادرا على كسب تأييدها. كما أحبت التزارينا (آنا فيروبوف) لطبعها الحميم الصريح ولاخلاصها الديني العميق (عولجت آنا في طفولتها من مرض خطير على يد جون من الكرونشتادت بان صلى قرب فراشها ونثرماءا مقدسا على جبينها). لكن آنا كانت غبية تحب الهمز واللمز ومترمته إلى حد بعيد وكان هذا سبباً آخر لحب التزارينا لها. سرعان ما شرع القيصر وزوجته بالبحث عن زوج للبطة القبيحة. فوجدا ضابطا بحريا يدعى (فيروبوف) ودفعا آنا للزواج منه برغم تخوفها الشديد. ثم اصيب الضابط باضطراب عصبي في تسوشيما فاصبح سلوكه متوترا. لذلك قررت آنا استشارة صديقتها الدوقة الكبيرة ميليتسا فأشارت عليها بمقابلة راسبوتين... الرجل الذي يعرف كل شيء. وعليه حضرت آنا فيروبوف الى منزل ميليتسا في نيسان ١٩٠٧ وقابلت الفلاح راسبوتين الذي ترك عليها أثره حين حدّق فيها للحظة ثم أخبرها أن قدر زواجها الفشل... وحدثها عن تفاصيل أخرى تجلت صحيحة بعدئذ. أصابت الدهشة آنا وعبرت عن مخاوفها للتزارينا. لكن تحضيرات الزواج قد تمت ولم يعد هناك سبيلا للرجوع. فاصبحت في الثالث عشر من أيار عام ١٩٠٧ العروس الكارهة للضابط فيروبوف. لم يحمل الزواج السعادة التي كانت تنشدها لكن موقف التزارينا تركها فريسة الحيرة فقد أبدت غيرتها على آنا. كان طبيعياً أن تبذل وسعها لعيني صديقتها لكن سلوكها أثار قسوة زوجها الذي شعر نفسه شخصاً مركوناً. واخيرا وبفضل تدبيرات التزارينا

---

(١) يجب عدم خلطه مع ابن اخيه سيرجي تانييف الذي كان مؤلفاً بارعاً. كتب اوبرا تدعى (اوريستيا) بثلاث مقاطع. اشتهر سيرجي تانييف خارج روسيا لأن زوجة تولستوي وقعت بغرامه وبقيت على حبه سنوات عديدة فكانت النتيجة كتاب تولستوي (سوناتا الكروتزر).

تم تعيين فيروبوف على متن سفينة لجوب العالم فذهب الى الكرونشتادت. وقد اكتشف عند وصوله أن السفينة ستتأخر بضعة أيام بسبب عطل في المحرك لذلك قفل راجعا لِيرى زوجته في قصرها في بيترهوف (المنزل الصيفي للقيصر). لكنه فوجئ بالمكان محاطا بالحرس وليس بوسعه رؤية زوجته لأنها مع التزارينا. انتظر حتى رحلت التزارينا لكنه فوجئ ثانية أن ليس بوسعه الدخول وهنا فقد عقله ودخل القصر عنوة. بعد وقت قليل، خرجت زوجته صارخة وذهبت الى القصر الصيفي لاجئة للتزارينا هناك. ليس المعلوماً بعد بماذا اتهمها زوجها لكن غضب التزارينا بلغ الزبى فأمرت البدء بإجراءات الطلاق فوراً. وانتهى زواج آنا فيروبوف بعد شهور قليلة. فتحققت نبوءات راسبوتين حول مصير زواجها كما قال.

اذن من المحتمل ان تكون آنا هي اول من همس باسم راسبوتين في اذن التزارينا بعد شهر عندما مرض التزاريفيتش مرضا شديدا. ويرغم ان راسبوتين كان قد التقى القيصر مرة قبل عامين فإن زيارته (تزاريسكوسيلو) هي الاولى أو الثانية في ذلك الحين. وهذا قول يفضي الى الاستنتاج أن راسبوتين لم يلتق بآنا إلا في عام ١٩٠٧ برغم انها كانت الصديقة المقربة للتزارينا منذ شباط ١٩٠٥. كما قد وصفنا ما حدث في غرفة التزاريفيتش عندما كان مريضا في الفصل السابق او استشجناه من تعليقات (فوليب ميلر وليمان). اصبح راسبوتين ومنذ حينها المستشار الروحي للتزارينا والصديق المقرب لآنا فيروبوف. فيما دارت الشائعات في بطرسبورغ أنه كان حبيها. لكن هذا الزعم لا ينسجم وطبيعة آنا، وبقدر ما نعرفها. ومنذ حينها أيضاً غدت آنا حلقة الوصل الرئيسية بين راسبوتين والعائلة المالكة ودائرة البلاط، فاذا ما تعرض لهجوم الوزراء الناقمين او لإتهامات الكنيسة بالعربدة، كانت آنا فيروبوف حاضرة على الدوام ومؤكدة للتزارينا أن ما

هذا الا مكر الماكرين وان (صديقها) ليس الا رجلا مقدسا كأي قديس في التقويم الروسي، يخاف المعصية ويخشى التفكير بها.

كلما تعاظم أثر راسبوتين في البلاط زاد عدد معاونيه وشركائه مثل الطبيب الغريب الأطوار (بيتر اليكساندروفيتش بادمايف) وهو طبيب اعشاب يكبر راسبوتين بعشرين عاما تقريبا. درس اللغة الصينية والمنغولية في الجامعة واصبح بعدها محاضرا وخادماً مدنياً. تعلم بادمايف، مثل تابعته الريفيه مدام (بلافاتسكي)، اسرار الطب في التبت، لكنه كان عكس راسبوتين، يتمتع بحذق سياسي حقيقي وضعه في خدمة التزار كلما احتاج القيصر الى نصيحة في الشؤون المنغولية. وقد اقنع القادة المنغوليين ابان الحرب الصينية بدخول الحرب الى جانب روسيا وفاز بحظوة التزار. ادرك بادمايف ان راسبوتين جدير ان يصبح حليفه فباتا صديقين وشكلا حلفا مفزعاً، فهذا بادمايف يجد متعة في الخديعة السياسية وكثيرا ما كان يستغل نفوذه مع القيصر لضمان مواعيد لأصدقائه الذين كان أغلبهم مرضاه السابقين. وكان هو الذي اتهموه نهاية المطاف بتدبير مرض التزاريفيتش ليتيح لراسبوتين معالجته.

كان اكثر شركاء راسبوتين اهمية بعد (سيمانوفيتش) مغامرا مشؤوماً يدعى (ماناسفيتش مانيلوف) وهو يهودي صغير عمل في وزارة الداخلية مفرط الأناقة على الدوام. لقد كان هذا اليهودي ماكراً بالفطرة مثل بادمايف. وبدأ مسيرته على سلم النفوذ أن تحصن بحماية امير قديم لديه ميول جنسية شاذة يدعى ميشيرسكي الذي هو صديق دوستويفسكي. وقد كيّف «ميشيرسكي الشبيه بالعنكبوت»، كما وصفه بيرس، مريضه المفضل على حب الترف ثم أرسله لبطرسبورغ بصفة جاسوس تابع للبوليس الروسي. وحقق في بطرسبورغ نجاحا منقطع النظير فأرسلوه للعمل في باريس تحت امرة (راشكوفسكي) - الرجل

الذي طردته من منصبه صراحته الشديدة بخصوص الطبيب فيليب. وربما كان هو السبب في طرد راشكوفسكي فقد اتهمه بالتجسس عليه وأرسل مانيلوف الى روما لرشوة القسسة. ثم عمل تحت امرة (بيلهف) لمدة سنتين وتآمر ضد عدو بيلهف (وت). غير انه عمل ايضا لحساب (وت) الذي استخدمه وسيطا بينه وبين القس جابون الذي قاد المسيرة نحو القصر الشتوي عام ١٩٠٥. تميزت مؤامراته بقوة عقدتها حتى يصعب وصفها وتفسيرها باختصار. كان عميلا مشتركا لبيلهف ووت. انضم الى الثوار ثم خانهم لدى الشرطة التي خدعها هي الأخرى بكشف أسرارها لدى الثوار، سيما الثائر الذائع الصيت (بيرستيف) الذي قال له ميثلوف جهاراً: «انا رجل لا أملك ذمة... أعبد المال وأقدس الحياة». (ساعد بعدها بيرستيف في الهرب من السجن ثم من روسيا بأكملها). لقد حصد من سلوكه المعقد هذا مالاً وفيراً تبدد منه سريعاً. وقد سرق، ابان الحرب اليابانية، الشيفرة اليابانية فكوفىء بمنحه وسام فلاديمير.

سرعان ما أدرك هذا الوحش الموسيقي الساخر قابلية راسبوتين الكامنة، لذا حرص ألا يكون مبتذلاً. وربما كان في تذلله شيئا محبباً تفسرها درجة تقربه لدى راسبوتين. فهوقد زار راسبوتين كل يوم تقريباً وفي كل مرة استقبله الأخير بالأحضان بعد أن يكون قد قطع لقاءاته ان كانت لديه. ثم ينفردان في حجرة منعزلة يتهامسان لساعات طويلة أحياناً.

انه سوء الحظ الذي أوقع راسبوتين بعد أن غدا قريباً الى البلاط بأصدقاء هم أسوأ الناس مكراً وأكثرهم أنانية وأشدهم رجعية. ويبدو ان القدر قد صمم على ان تكون قدراته محط التعليقات الرديئة المشينة. لك أن تحب راسبوتين وتثق فيه، لكن محالاً أن يكون لك هذا مع معاونيه ما خلا بادمايف الذي يبدو رجلاً حر الخلق طيب الطينة (وبعد الثورة القي القبض على بادمايف وأنا

ومانيلوف وهم يحاولون الهرب من روسيا لكن دماثة خلق بادمايف وصراحته جعلت من سجانه اصدقاء له). أما آنا فكانت ظاهرة في الغباء والكذب وقد اعلنت في مذكراتها أن (راسبوتين لا له والسياسة ناقة ولا جمل). وكان مانيلوف محتالا ومبتزا ولصا بل وخائنا لأقرب الناس اليه. كان يثير في القيصر حماسة على اقامة مذابح منظمة حينما وجد فيها غاية ينشدها. اما سيمانوفيش فكان محتالا وتبعاً للهمز الماكر الذي يشكل جزءا مهما من كتابه عن راسبوتين. منصف لاحقنا (ستورمر) الذي اعانه راسبوتين على أن يكون رئيس وزراء والذي كان ربما كارثة حقيقية.

لم يكن راسبوتين يعرف عن السياسة الكثير عندما جاء بطرسبورغ وكان كارهاً للمكائد. لكنه أمسى بغير قصد وفي غضون خمسة أعوام مركز التآمر في بطرسبورغ. فليس من الغريب ان يزعم اعداؤه برأسهم ستوليبين انه كان كسائر رجال أمثال كانيلوف وسيمانوفيش في عيبهم بينما كان لرجال مخلصين مثل يوسوف وورودزيانكو جحيماً لا يطاق.

لكن كيف تورط راسبوتين في مؤامرات بطرسبورغ إن لم يكن مهتما بالسياسة؟ ستنهل الجواب في حقيقة ان رجالاً أمثال مانيلوف وسيمانوفيش لم يهدروا الوقت في اقناعه باستغلال تأثيره في البلاط ولانه كان من نمط الرجال الذين ما فتأ المحتاجون يرجون منه عطفاً وهم متجمهرون أمام عتبة داره. كان رجلا ذا نفوذ وتأثير في بطرسبورغ عندما عالج التزاروفيش عام ١٩٠٧ لكن تأثيره لم يدخل حقل السياسة. لقد قصده الناس لأنه مشافياً ولأنهم عرفوه بقدرته على كشف المستقبل. ونادراً ما رفض رؤية من قصده. وعندما علم الناس بزيارته السرية للقيصر في تزاريسكو سيلو، كان من الطبيعي ان يرجّاه المساكين استخدام تأثيره ونفوذه في انضمام ابنائهم كشافة في المخيمات او اقاربهم

للخدمة المدنية، وهو رجاء كان سيرفضه رجل مثل جون من الكرونستادت او حتى الراهب ايليودور متذرعين أنهما أضعف من أن يستطيعا مد يد العون لهم. لكن راسبوتين كان، ولسوء الحظ، ضعيفاً امام حاجة الآخرين له. واذا ما عرفت بطرسبورغ بزياراته السرية واصبحت حديث الناس فله أن يتحمل وزر حماقاته فقد كان ساذجا ذا روح متفتحة لم ير ضيرا في افشاء سر زياراته. وحالما ادرك أنه يتمتع بتأثير يضمن له لقاءات صغيرة- دون الحاجة لابلاغ القيصر او التزارينا- استخدم ذلك النفوذ بكرم مثلما فرّق الأموال التي كان يحصل عليها.

لم يدرك راسبوتين إلا متأخرا أن موقعه الجديد كمقرب للتزار والتزارينا جلب عليه عداء وحقد رجال بطرسبورغ، ليس بسبب معرفته الشخصية بالعائلة المالكة بل لانشغاله موقعاً يؤهله معرفة كل المعلومات السرية. فمنذ ان امتنع التزار والتزارينا عن عقد حلقات البلاط انحصر عدد الناس الذين يلتقيهم بمجموعة صغيرة كان أغلب أعضاءها من الوزراء ورؤساء الكنائس وأمثالهم. ومعظم هؤلاء لا يستقرون على رأي بم يفكر التزار فهو جد متقلب، سريع التأثر بالشخص الذي يتحدث اليه وكثيرا ما يغير رأيه بين لحظة واخرى. من ناحية اخرى ثمة عدد قليل من رجال الحاشية الملكية لم يصن التزار أمامهم لسانه أمثال: رئيس الحجبة ومدير القصر وآنا فيروبوف والادميرال نيلفو والجنرال زابان وستة اشخاص آخرين. لقد كانوا جميعاً في موقع متنفذ واستحقت حتى صغار معلوماتهم الكثير من المال بالنسبة للموظفين واصحاب البنوك واصحاب رؤوس الأموال.

فغدت المعلومات سلعة تباع وتشاع وسرعان ما أركن بعض المغامرين المعلومة وباعوها وحصلوا على الأرباح. وكان على رأسهم الأمير المنحوس اندرونيكوف الشاذ جنسيا الذي وصف نفسه «مرافقاً للرب». سار اندرونيكوف

في جو من الغموض خلقه لنفسه حاملاً حقيبة احتوت عادة على صحف قديمة وأمضى ايامه متردداً على الوزارات للهمز واللمز مقتنصا ما يجد في طريقه من معلومات. وكان المصدر الرئيسي للمعلومات هو رئيس حجبة القيصر الذي ارتبط معه بعلاقة جنسية شاذة على الأرجح. وقد تقاضى اندرونيكوف راتبا شهريا من وزارة الداخلية التي لم ينقطع عنها بالمعلومات وكان يدير بهذا الراتب امور صالونه البسيط الذي تردد عليه اي احد يستفيد من التزار. فيما أدار صالونات مشابهة أخرى (بورديكوف) الذي أطلق عليها أسماء مثل (عيد الجراد) و (البارونة الوردية). كان لكلا الصالونين مصدرا للمعلومات في البلاط وتمتع كلاهما بالأهمية التي أتتهما بها تلك المعلومات. وظهر أيضاً اثنان او ثلاثة صالونات مختصة بالمعلومات لكنها لم تنل أهمية الصالونات السابقة.

ازاح راسبوتين عن نفسه بخطوة واحدة غير مبيتة كل منافسيه في سوق المعلومات. وبرغم أن اندرونيكوف وبورديكوف ظلا قادرين على الاتيان بنقل النبأ بسرعة من مصادرهما الخاصة، (كان بورديكوف يعتمد بصورة رئيسية على الأدميرال بيلوف والجنرال زابلين)، ظل راسبوتين قادراً ليس على المجيء بقرارات القيصر بل في التأثير عليها بفضل موقعه المتفرد. وهذا ما أهاج شيطان منافسيه عليه وأجج غيرتهم على مستقبل روسيا.

لكن راسبوتين ظل لشهور عديدة بعد ولوجه القصر قوة مجهولة وانحصر الهمس عنه بدائرة التزارينا. وقد أرخ (بيليتسكي) رئيس الشرطة (الذي فقد منصبه بسبب تدخل راسبوتين واستعاده لاحقا بفضله)، بداية نفوذ راسبوتين بمستهل عام ١٩٠٨. بيد ان راسبوتين كان آنذاك زائراً يومياً للقصر لما يناهز ستة اشهر أقام له فيها علاقات ضيقة النطاق وقوية الأساس مع التزارينا وبقية العائلة المالكة وخاصة التزاريفتش

احس راسبوتين بالملل والسأم حتى في شهور نفوذه الاولى. فقد أعجبته التزارينا لكن لم يفته ملاحظة انها كانت مستبدة وهستيرية. وتوضح صور ربيعها جمالا حزينا كئيبا اختفى أغلبه من على ملامح صور أخرى التقطت لها لاحقاً لكن الحزن يبدو كأنه جعل من وجهها شمعة تقطر اسىً. كانت تجربته فأحبها لذلك راسبوتين. وما كان هذا القول ليقال لو كانت التزارينا مجرد مضيفة من سيدات بطرسبورغ.

كان موقف راسبوتين حيال التزار نفسه مزيجا عجيبا من الإحترام والإزدراء. وقد وصفه بـ «رجل بلا دواخل» وهو ما يعني «رجلاً بلا ارادة حقيقية»، شديد التأثر بالآخرين فيما طغى التناقض على تقييم التزار لراسبوتين. فهو قد أدرك قدرات راسبوتين ولم يساوره شك في قداسة «الستاريتز». وكان يصغي لمن وشى به من الوزراء متلهفاً ثم يطلب منه تقديم ادلة دامغة. ربما كان ضنيناً من هيام زوجته براسبوتين سيما بعد قراءته لرسائلها التي سرقت من راسبوتين بعد عدة سنوات وقدمها له وزير طائش بدلاً من أن يعطيها لزوجته.

تطلع نيقولا الى راسبوتين بنظرة ملؤها الكره والخوف والإحترام ويبلغ احيانا كثيرة حافة أن يسحب البساط من تحت أقدام راسبوتين. وتلك هي الأحايين التي أخمد فيها راسبوتين التمرد أن استخدم احدى معجزاته الاخرى (كما سيتضح ذلك لاحقا). أحاطت المشاكل علاقة راسبوتين بالتزارفيتش الصغير. فقد صورها معظم الكتاب على انها عبادة عاطفية كان فيها الصبي عابدا للبطولة المتجسدة في شخص راسبوتين. لكن معلم الصبي (كيليارد) يشير بصراحة الى ان اليكسي مقت راسبوتين وهو احتمال وارد وأكثر منه احتمالاً أن راسبوتين وجد فيه طفلاً مزعجاً. كان الأجدى باليكسي ان يصبح قديسا بدلا من ان يكون طفلا مدللا لا يكبح له جماح. فقد نشأ في عائلة تقودها امرأة

تشعر بالذنب لمرضه. اضافة لذلك عارض نيقولا تزمت أبيه فأعطى لذلك ابنه ما شاء أن يطلب. ووفقا لتعليق كيليارد، كان التزارفيتش طيبا بطبعه وقد تجلت طيبته هذه عندما توسل لأبيه أن يعيد طاهياً طرد من وظيفته. ويضيف كيليارد أن الصبي كان يرتبك عندما يركع أمامه بعض الفلاحين وهو يتنزه بمعية معلمه. لكنه اجتاز مرحلة الإرتباك هذه الى مرحلة تمتع فيها بالإحساس بسلطته. كتب الامير (بول فاسيلي) حانقا:—

كثير من التفاهات كتبت عن مرضه... ان هذا الواقع حزين أليم لا يحتاج لمبالغة تزيد الطين بلة... لقد سأم التزارفيتش سمعاً أن وجوده أثمن ما يملك والداه وأن ما يهوى مجاب في الحال. لذلك شعر دوما باهميته وادرك سريعا حقوقه لكنه جهل واجباته، كان مغرورا بطبعه وقد شجع الجميع غروره هذا بدلا من تقويمه. فلا احد يستطيع كبح جماحه او حتى معارضته. كان يضرب اخوانه ويستأسد على خدمه وكان يهدد المتعوس الذي يحاول تصحيح سلوكه بكل انواع العقاب.

ينطوي تعليق الأمير فاسيلي على تحامل مجحف، ومع هذا تبقى وجهة نظره جديرة بالملاحظة، لعلها تصحح وجهة النظر المألوفة للطفل الملائكي السماوي الذي صرعته رصاصات الثوار مبكرا. ويعيد فاسيلي قصة مشوقة عن وزير الخارجية (ايزفولسكي) الذي كان ينتظر مقابلة القيصر. فبينما كان ايزفولسكي جالساً يتحدث لشخص ما مر التزارفيتش الذي لم يتجاوز بعد سنته الخامسة او السادسة دون ان يدرك ايزفولسكي ذلك. سار الطفل الى مجلس الرجلين وقال بلهجة امبراطورية « على الوزراء النهوض عندما يجتاز وريث العرش الغرفة». ارتبك ايزفولسكي لما سمع وربما انتابته الرغبة في صم اذنيه ولم يتفوه بكلمة يقولها. طرقت هذه الحادثة مسامع التزار (وقد نقلها له ايزفولسكي

بصعوبة بالغة) فقال فيها: «اجل، ستجد لاحقا ان التعامل مع ابني اصعب من التعامل معي». وقد علق الأمير فاسيلي بقسوة قائلا بان اي أب اقل هياما بابنه كان قد عاقب الطفل لإهانته رجلا جديرا بالإحترام.

وروى الأمير فاسيلي قصة أخرى تناقض ما رواه كليارد عن الفلاحين، جاء فيها أن الصبي أحب أن يلقي الجنود التحية حيثما حل. لكن الفرق العسكرية دائماً ما تجاهلته لو حضر بمعية أبيه وحيث بدلاً عنه التزار، وهذا ما حداه أن يعدو قبيل أبيه في الاستعراضات العسكرية ويفوز بتحية الجند. لقد سبب سلوكه هذا ازعاجا كبيرا لقادة الجيش وقد اشتكى الدوق الكبير نيقولا لدى التزار أن فرق الجيش لم تعد تعرف من تحيي. لذلك أمر التزار وريث العرش أن يلتزم جانبه في السير مستقبلاً.

هنا نستطيع القول أن نصف الإشاعات الماكرة بحق مزاج الصبي وسلوكه لو صدقت لحصلت روسيا على قيصر آخر على شاكلة اسلافه المستبدين؟[1]

ادرك كيليارد صعبة هذا التخنث والدلال وتوسل للقيصر أن يمنح الصغير حرية اكثر. كان الوالدان جد حساسين للموافقة على طلب كهذا وبرغم أن الصبي قد سقط من على أريكة وجرح ركبته وهو ما تسبب في الأزمة المرضية -مثلما يشير لذلك بيرس- لم يحاول الوالدان لوم المعلم على ما حدث ولم يعدلا عن قرارهما بمنحه مزيداً من الحرية.

يزعم الأمير فاسيلي أن التزارفيتش كان يضرب اخواته. وهذا ادعاء لا

(١) لم يكن فاسيلي من جهة أخرى دقيقاً في معلوماته كما يتظاهر:- يذكر مثلاً أن التزارفيتش لم يكن لديه معلم لذلك كان يعتمد على امه واخواته في تزويده بمعلومات. ويبدو أنه تجاهل تماماً وجود كيليارد.

يستند على أساس من الصحة البتة. بيد ان الفتيات الأربع الجميلات عشن حياة ليس كما يعتقد العالم الخارجي، فلا حياة بلاط ولا حفلات رقص ولا فرص لمقابلة ضباط شباب. لذلك كن يمضين جل وقتهن في التزاريسكو سيلو في القصر الشتوي... اربع اميرات في برج عالي. وتذكر ماريا راسبوتين انها كانت ترى في اليوم الواحد وجوهاً اكثر مما رأين في اسبوع.

كانت اولغا وهي اكبرهن سنا جادة ومثابرة على القراءة فتراها تحمل كتابا انكليزيا عادة. (كانت الإنكليزية لغة العائلة لان التزارينا نشأت في بريطانيا وتتحدث الروسية بتلكوء شديد). وكانت قراءاتها بلا شك عرضة للرقابة. اما تاتانيا، وهي الأجمل، فقد غلبها غرورها وسلبت من أبيها سحر جماله وطيب طينته وهي كانت برغم خجلها هادئة الطبع وحية الخلق. اما الصغيرة اناستازيا المولدة سنة ١٩٠١ فهي اكثرهن حيوية وكانت تحب المقالب وتدبيرها لأخواتها.

فليس مفاجأة اذن ان يحب راسبوتين الفتيات الأربع اللاتي سرعان ما أصبحن قريبات اليه. وربما لم يكن اهتمامه باولغا وتاتانيا افلاطونيا صرفا برغم انه لا يبدو قد خطط لفعل شيء معهن. لقد تبنى لنفسه عادة الذهاب الى غرف نومهن لتقبيلهن قبيل النوم في الليل متجاوزا احيانا حتى آداب طرق الباب وقد اشتكت المربية مدام (تيوتشيف) للتزارينا من هذا السلوك. لكن التزارينا لم تدر ذرة شك في كريكوريا المقدس فهو مرفع عن الدنايا حتى مع الصبايا في ملابس النوم فسارعت في طردها. سرعان ما استغل راسبوتين ذلك وبدأ بمغازلة واغراء ممرضة الأميرات. وقد تحدثت الممرضة عن ذلك للراهب الذي استمع الى اعترافاتها ذاكرة ان الاغراء كان قد حدث في الحمامات.[1] اوصاها الراهب

(١) أخبر رودزيانكو القيصر لاحقاً بأن الحمامات كانت المكان المفضل لدى راسبوتين لاغواء أتباعه من النساء وبما أن الحمام المشترك كان احدى عادات الخليستية فإن راسبوتين اذن كان عضواً في هذه الزمرة.

الذهاب الى التزارينا لتحذيرها من تأثير هذا الشيطان». لكن ايمان التزارينا براسبوتين لم يتزعزع للمرة الثانية، زاعمة ان الممرضة تعاني من ارتباك عصبي فارسلتها الى مصحة عقلية في كوكاسوز، ثم دافعت عنه امام القيصر قائلة أن راسبوتين انما يحاكي (ابوستيلز) في حريته في تقبيل وضم الآخرين. لكن الممرضة حرصت على نشر قصة التأثير الشرير لراسبوتين في القصر الملكي في ارجاء بطرسبورغ. فدارت اشاعة تقول ان التزارينا وابنتيها الكبيرتين كن عشيقات راسبوتين، وهي اشاعة سيرفضها علم النفس الادراكي. اذ قام تأثير راسبوتين على التزارينا على نظرتها اليه كقديس وهو قد حرص كثيرا الا تخامر سلوكه في القصر الشكوك. وتحاشى الخمر حتى امام (آنا فيروبوف). لكن داماتسكي، الوكيل المساعد للمجمع الكنسي، قال في سنة ١٩١٢ لرودزيانكو بان التزارينا كانت فعلا عشيقة راسبوتين وقد سلم بهذا الجنود الروس ابان الحرب.

ترسخت في العامين ١٩٠٨ و ١٩٠٩ جذور نفوذ راسبوتين الذي اصبح الرجل البازغ نجمه في بطرسبورغ. لكنه وبرغم ذلك لم يألوا جهداً أن ينأى بنفسه عن كل متنفذ يتيح لاعدائه ضده وعليه كلما تعاظمت الإشاعات حول تأثيره في المنزل الإمبراطوري تعاظمت بالمقابل رغبة كل مضيفة في بطرسبورغ في حضوره لحفلاتها. وحتى عدوه اللدود رودزيانكو قد اعترف قائلا:-

«كان يحصل على أتباعه وتلاميذه بلمح البصر، خاصة في المجتمع... سيما بين النساء اللاتي انجذبن اليه كما ينجذب الدبور للعسل...».

انها عاما الإنتصار الذي تسلق فيه راسبوتين ذروة النجاح. فقد علا نجمه مذ التقى (جون) من الكرونشتادت في ١٩٠٣. لقد أمسك الآن بتلابيب الأشياء. كان قوي البنية وله ما يسمى بـ «الشخصية المغناطيسية». وطغت

سمعته المشؤومة كزير نساء لدرجة أن اشتهته كل امرأة ضجرة في بطرسبورغ. لقد أراد أن يظهر على غير اكتلاء، غير متصنع وغير مهين في ملبسه. قدمت له التزارينا وبناتها قمصانا مزخرفة وأهدته معجباته سراويل ناعمة وجزمات جلدية. فاصبح لذلك غندورا شديد التأنق ولم يتوانَ في استغلال ذلك. وظل سخياً يصرف ما يأتيه من مال على غيره بيد انه كان سعيدا بتقبل الهدايا من الثياب او الخمر المحلاة، حتى ابتاعت له الغراندوقة ميليتسا بيتا جديدا في بوكروفسكو بطابقين وهو اول بيت بطابقين في المدينة.

غير أن سلوكيات راسبوتين ازدادت سوءا. قال بيرس «كان يزدري الرفيع المنزلة والقوي من كلا الجنسين» ويتحدث سيمانوفيش عن اهاناته التي لا يقبلها عقل. ويقول مراقب ساخط اخر أن راسبوتين كان يأمر بصوت عالي تلميذاته وانه وصف احدى سيدات المجتمع بـ «البقرة البدينة».

يبدو لشديد الأسف ان راسبوتين وجد متعة أن يفرض ارادته على «المجتمع» وهو قول لا يعني انه نوع من عصاب التبجح. فبطرسبورغ كانت مدينة تجمع منحط جعل من جمع المال والزنى ونقل الشائعات اولى غاياته. رجالها يحوكون المؤامرات ونساؤها هستيريات. وفيها كان راسبوتين مثير عن شخصه الحقد والكره وان كان مخصياً. غير أن الراهب الدايونيسي قد واجه شهواتهم المحمومة بحيويته الهائلة وشهيته المفتوحة للجنس وعطش للخمر ممزوج مع قدرته على الاتزان. كانت «العدمية» مفردة حديثة ليس في اطارها السياسي فحسب بل بصفتها انكاراً اجتماعياً لكل القيم المطلقة. وقد أعد قادة الفكر والفنانين المعاصرين والكتاب كل التبريرات لهذا الإنحراف الخالي من الهدف. كانت هناك من جهة العدمية الوحشية لاندريف وارتسياشيف والحنين الى الصوفية لدى مختلف الحركات الدينية التجددية من جهة اخرى. وافضل

رواية هذه المدرسة هي «الملاك المتقد» لبريسوف وهي اطلالة على القرون الوسطى البعيدة عندما كان الشيطان واقعا مخيفا. لم تكن لراسبوتين اية علاقة بهؤلاء الناس. فالحياة تسري فيه بقوة الى حد تجعله لا يعطف على عبث ويأس مدرسة اندريف التي كان دافعها الرئيسي هو الندم الكحولي. لم يعان راسبوتين من الخمار بعدما يذهب عنه السكر في ساعات قلائل مهما أفرط شرباً. اما بالنسبة للصوفية وعلم الأخلاق المسيحي المتعلق بالتضحية بالذات وبتعذيب النفس فقد كان لا مباليا بها اطلاقا. كان دينه مخلصا رغم كونه حيويا وفطريا قريبا من النشوة الدايونسية التي وصفها نيتشه في «مولد المأساة». كانت عبادة غريزية لقوة الكون ومنطقية يجب ان يلعب الجنس دورا فيها

قد فقه هذا الرجل سخرية «النجاح». فالنجاح يعني العيش بين التافهين وان يقبل إخباتهم له وتمجيدهم عليه وأن يتبصر من خلالهم غاياتهم في استغلاله. انه يعني أن تعيش دوماً في خضم جو من الحقد والضغينة والمعاناة في أحايين أخرى من أن يهينك رجال أعدوا نفسهم أعز من أن يتزلفوا لفلاح. ومع هذا أدرك طوال الوقت أن الأمر برمته يتم عن سوء فهم. كان بلا شك يمتلك هبة نفاذ البصيرة وقابلية على الشفاء. بيد أن قوته اتكأت على نظرة التزارينا له انه قديساً وعلى ظن التزار به «مسيحيا شديدا» (وقد افصح التزار هذه الملاحظة التي نقلها راسبوتين أسرع من البرق للراهب ايليودور قبل شروع ستوليبين بمؤامراته لتدمير سمعة راسبوتين). لم يكن راسبوتين برغم ملكتي الذكاء ونفاذ البصيرة اللتين أقرهما أشد أعدائه من كتاب سيرته قبل اصدقائه رجلاً فطناً قادراً على المصالحة بين غرائزه ومعتقداته الرهبانية. لذلك فقد سلاحاً كان سيشهره دفاعاً عن نفسه ضد صفات الماكر والدجال والمحتال التي اتهمه بها الآخرون. وهو لم يسمع ابدا بنيتشه ولم يكن ليفهمه حتى لو سمع به. وعليه انطوى دفاعه

الوحيد ضد تكالبات كهذه على الازدراء منها. فليس غريباً اختياره مقربيه من المشعوذين المحترفين امثال مانيلوف وسيمانوفيش وأن يعامل تلميذاته على انهن حريم خاضعات له.

في الخمس راسبوتين يعزز موقعه ويغدو أكثر رجال بطرسبورغ مداراً للحديث. كان للقيصر مشاغله الشاغلة. فالوضع الداخلي كان جد قلق برغم ان نيقولا لم يشعر بشيء يخيفه في (الدوما) وواصل الساسة ورجال الشرطة يغتال أحدهم الآخر، وأعلن البلاشفة تحركهم علانية وتجاهلت الصحف ما يمكن ان تجره عليها صراحتها من غرامات ثقيلة، وغالبا ما أوقعت مطبوعاتها القيصر بين الاحراج والحنق. لكن الوضع الدولي كان هو الآخر سيئا. فقد بدأت اول دمدمات الحرب العالمية بالظهور منذ عام ١٩٠٨ وقد اتفق نيقولا وكيسر ويلهلم أن يدعم أحدهما الآخر، ولم ينسَ كيسر تذكير التزار أن روسيا تريد وتحتاج مستبدا مطلقا. وهو الذي حثه على دخول حرب مع اليابان مؤكدا له أن مصير كوريا روسيةٌ ثم غير نصيحته عندما توالت البلايا. وقد حرص كيسر ايضا على اطراء اكثر رجال الدولة لدى نيقولا وهو (وت) ودعاه لزيارته في نهاية الحرب اليابانية. وربما كان لسقوط (وت) من السلطة علاقة باستياء نيقولا المتزايد من كيسر. الى جانب آخر حث (ويلهلم) نيقولا على توقيع معاهدة حلف لا يضم فرنسا في الوقت الذي كان يعمل فيه وزير الخارجية الروسي جاهدا لتحالف فرنسي - روسي وقد اجبر وزراء نيقولا الغاضبين بما فيهم وت القيصر على انكارها. (ويبدو ان نيقولا كان قد وقع المعاهدة دون اعلام حكومته وقد امر وزير بحريته على تصديقها بينما احتفظ هو بمحتوياتها لنفسه).

تفجر في عام ١٩٠٨ موقف محرج آخر يتعلق بتراث منذ ايام بسمارك

والكسندر الثاني. وقع الكسندر الثاني قبل الحرب الروسية - التركية في ١٨٧٧ اتفاقية مع النمسا يحق للنمسا فيها احتلال مقاطعات السلاف التي تشمل بوسنيا والهرسك مقابل تعاونها في الحرب. لكن النمسا اخفقت في مساعدة روسيا لذا توجب الغاء المعاهدة. الا أن النمسا اعلنت فجأة في اكتوبر ١٩٠٨ أن المقاطعتين السلافيتين ملك لها مما سبب هياجا عالميا. اكتشف نيقولا ان اللوم يقع على وزير خارجيته، ايفولسكي الذي خدعه بمكر بالغ وزير النمسا. استشاطت بريطانيا والنمسا غضبا لان روسيا كانت قد دخلت في تحالف معها قبل الحرب ولكنها الآن اكتشفت ان ايفولسكي قد تعامل سراً مع النمسا. اخذ الغضب مأخذه ايضا من كيسر ويلهلم لحمق حلفاءه النمساويين لكنه قرر الوقوف الى جانبهم بعد بعض التذمر. توهجت حميتها الوطنية وقد كانت «الدوما» وطنية كأشد الرجعيين تعصبا. فبدا كل شيء كأنه ينذر بالحرب.

في هذه المرحلة بالذات تدخل راسبوتين. لم يعلم احد ماذا حدث بالتحديد لان راسبوتين لم يكن في تلك الحقبة رجلا ذا تأثير ونفوذ سياسيين لذلك لم يتحمل احد عناء التجسس عليه. لكنه حذر في عدة مناسبات من وقوع حرب مع النمسا لأنها، كما أخبر التزار، ستدلي الستار على النهاية الروسية. وأما ردود أفعاله لاحتماليات حرب ١٩١٤ فانها كانت أجدر بالتصديق. ربما لم يكن راسبوتين مسيحيا جيدا لكنه كان يؤمن بالسلام والأخوة العالميين. ناهيك عن ادراكه، كقروي، ما سيجنيه شعب روسيا من ويلات الحرب. كان ما يزال في اكتوبر ١٩٠٨ عالي المقام لدى القيصر الذي لما يزل يؤمن بقدرته الشفوية. لذلك ارسل القيصر ايفولسكي الى لندن لتهدئة بريطانيا ثم الى برلين لمناقشة قضية المعاهدات والتحالفات ثم اسقطت والغيت في النهاية، وسمحت روسيا للنمسا بالاحتفاظ ببوسنيا والهرسك. وكما اشار راسبوتين في مناسبات عدة لا

تستحق دول البلقان التضحية بحياة جندي روسي وحيد.

الفصل السابع

تكالب الأعداء

يأخذ «اتحاد الروسيين المخلصين» على كاهله معظم المسؤولية في تقديم راسبوتين الى مجتمع بطرسبورغ. فها هو الآن قد غدا مؤثراً على العائلة المالكة وها هم قد تسلل هاجس الشك الى حكمتهم. لقد حرص راسبوتين أن يحفظ للأسقفين تيوفان وهيرموجين خنوعه لهما و تبجيله شخصيهما فأبقاهما اليه مؤمنين بقدراته ومتزهين اعلاماته حتى بدايات عام ١٩١٠. لكنه تجشم أقل عناء في اخفاء كهذه مشاعر للراهب ايليدور. فهو قد أحب ايليدور من حيث لا يدري وكنّ له الشاب ايليدور شديد الاعجاب، بيد أن راسبوتين ظنّ به مترمتاً. وهو قد تفهم لم يتحتم على الأسقفين أن يكونا صرورين، فكلاهما طاعن في السن، أما ايليدور فكان يافعاً وهو لم يكن بأي شكل الا جذابا. لقد شعر راسبوتين أن من يطرح من الرجال الجنس من حياته يكون كمن يسرف غير واع ذاته. في جعبتنا كثير من القول عن وجهة النظر هذه. فالزهد المسيحي غالباً ما تجلت فيه ميزة سلبية غريبة. ولنا خير مثال في وليام جيمس الذي يصف حياة القديس (لويس) من كونزاجا الذي نذر نفسه للعذرية في سن العاشرة والذي لم يرفع نظره عن الأرض ليحمي نفسه من الاغراء. بل هو رفض حتى البقاء وحيداً مع امه في حجرة. ويضيف جيمس قائلا: «لا أجد جذاءً كالذي واجده في قذامة لويس، وللمرء أن يدرك وجهة نظره. ان من شغل البحث الروحي والفكري

عقله حتى لم يعد لباقي الأشياء فيه حيزاً له أن يتذرع معذوراً أن الجنس قد ولّى. لكن الذي يعتبر الجنس شيطانا، لأنه رآه شيطاناً يكون كمن دسّ نموّه بصفته انساناً. لقد تطلع راسبوتين الى القداسة فوجدها ميزة الانسانية لا انكاراً لها. وهذا ما حداه أن يمازح ايليدور حول عزوبيته. وحينئذ تمنى راسبوتين لو يغدو ايليدور صديقاً له مقرباً ونصيراً له في محنته معاضداً. ولكن أنى يتأتى ذلك ونظرتيهما للجنس حائلاً بينهما؟ لم يكن ايليودور من جهته جزعاً كما بدا عليه. لكنه كان مدركا أنه امام خيار صعب. وفيما كان من السهل على راسبوتين الإنحراف في بطرسبورغ، كان الاسقف هيرموجن جار ايليودور الأقرب وسيطرق مسامعه أي انحلال في سلوك ايليدور في تزارسين. وعدا ذلك كانت صداقة هيرموجن وثيوفان مهمة لديه وقد اعتقد، خاطئا، بان قوتها كانت اعظم من قوة راسبوتين لو تصادما.

التقى راسبوتين في الأعوام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ اكثر مما التقى هيرموجن وثيوفان وقد أسهب كلاهما حديثاً في قضية عودة روسيا الى سابق قوتها وسيادتها. وكلاهما ادرك الجواب: انها بحاجة الى قيصر أحصن من أن يرام وأعز من أن يضام تدعمه كنيسة أقوى من أن تلام. لكن راسبوتين بدأ يستعرض حينها سطوته وكثيرا ما صدمت وجهة نظره ايليودور. كان غالبا ما يتحدث عن العائلة الملكية ذاكرا التزارينا على انها «ماما» وقائلا عن نيقولا بأنه «لا يستطيع التنفس بدوني». ولعل راسبوتين وجد متعة ماكرة في التبجح امام ايليودور. اذ أخبره قول التزار فيه أنه «مسيحي حقيقي» مضيفا أنه غالباً ما وبخ التزار. بل انه وصف -برغم انها تبدو مبالغة من جانب ايليودور- تقبيل التزارينا في غرفة ابنتيها.

دعا ايليودور راسبوتين عام ١٩٠٩ الى التزارسين وزيارة «القلعة الروحية» التي ما زالت قيد الانشاء، وقد امضيا وقتا كبيرا في زيارة اتباع ايليودور في بيوتهم وفيها فرض راسبوتين تأثيره الشديد على الفلاحين البسطاء. بيد أن ايليودور استشاط غضباً عندما أقدم راسبوتين على تقبيل اتباعه من النساء وضمهن. ويعتقد فولوب ميلر أن لدى ايليودور اسبابا اعمق من ذلك لشعوره بالامتعاض من ضيفه المهم. فبعد وصولها الى التزارسين بقليل جاء سائق عربة شاب وهو أحد تلامذة ايليودور طالبا المعونة فزوجته قد هاجمها الشيطان وقد بدأت بالتلوي على الأرض في نوبات عصبية شديدة صارخة وتتمتم بأشياء غير مفهومة. اخذ ايليودور راسبوتين وقنينة من الماء المقدس ونثره على المرأة المهتاجة مترنما بتراتيل. بيد ان المرأة لم تظهر عليها علامات شفاء. وهنا طلب راسبوتين اليهم أن يغادروا المكان ويتركوه يخلو مع المرأة فأطاعه ايليودور على مضض. ومضى وقت طويل ثم خرج راسبوتين قائلا: «لقد طردت الشيطان خارجاً». وعادت المرأة الى طبيعتها.

تكرر المشهد ذاته بعد مضي ايام قلائل وفيه هاجم الشيطان ابنة اخ سيدة تدعى (مدام ليبديف). عاشت الفتاة في غيبوبة بعد أن عانت من نوبات عصبية. ومرة اخرى عجز ايليودور أن يفعل شيئاً وترك راسبوتين يخلو مع الفتاة الفاقدة الوعي. أمضى معها راسبوتين اربع ساعات عاشها ايليدور لا يقر له قرار فهو ما برح يتذكر كيف يتصيد راسبوتين في الماء العكر. ثم طلع راسبوتين معلنا انتصاره فالفتاة ترقد بسلام وطلعت معه سمعته لتبلغ جميع القرى المجاورة.

بعدها، دعا راسبوتين ايليودور لزيارة بوكروفسكو التي ما زال يمضي فيها

وقتاً كثيراً. وفي طريق رحلتهما كشف راسبوتين للراهب عن أسارير الماضي دون حراجة موضحاً أنه عاقر الخمر حتى سن الثلاثين، ولم يتشبق لذاته على سر من مغامراته الجنسية. لقد بدا كأن راسبوتين استمتع في هز الشاب عنيفاً أو انه اكتشف فيه رغبة صوب النفوذ أكثر من الدين وأراد أن يكتشف عمق اديم النشوة فيه. بدا راسبوتين كما لو انه فقد كل وازع في بوكروفسكو لحظة العودة اليها. فاذا ما كانت القبل التي أغدقها على أتباع ايليودور من النساء قد نفّرت الراهب شديداً فالقبلات التي حنّ بها على أتباعه النساء قد أحرجت ايليودور حتى تساءل في نفسه مبهوراً ما اذا كانت بوكروفسكو حريم راسبوتين الخاص.

ويقول ايليودور، كانت زوجة راسبوتين لامبالية لخيانة زوجها المفضوحة وتقل عنها قولها: « ان لديه من الطاقة ما يكفي لكل هؤلاء النسوة» فيما ظل ايليودور يتساءل: «أهو قديس ام شيطان؟». ربما لأن راسبوتين كان يغري ايليودور للقذارة الجنسية وعليه سمى ايليودور كتابه بـ «الشيطان المقدس» وهو أول سيرة ذاتيه لراسبوتين تمتع بالإثارة الحسية.

كنّ ايليودور لراسبوتين احترام التلميذ لأستاذه ودليلنا لذلك أنه ما فكر لحظة أن يهجوه هيرموجن وثيوفان. فاحتفظ بوجهة نظره وبقي له صديقاً طيلة حياته بل ودافع عن راسبوتين عندما بلغت هيرموجن الإشاعات المقلقة عن (غيّات) راسبوتين (وكانت حينها صحف بطرسبورغ قد بدأت بشن حملة هجوم على راسبوتين). وهذا ما يقدم أحد أسباب الشك بمبالغة تعليق ايليودور عن سلوك راسبوتين في بوكروفسكو. بدأ رئيس الوزراء ستوليبين يتوجس خطر تأثير راسبوتين على القيصر. لذا قرر بعد أن ضاق بها ذرعاً التحدث بصراحة للقيصر. استمع نيقولا، كعادته، بلطفه المعهود الى حديث ستوليبين الذي

تشجع أن يقترح كتابة تقرير عن راسبوتين على أن يعرض على التزارينا. وافق نيقولا على ذلك وغادر ستوليبين القصر واثق الخطى أنه نجح في كسر جناح راسبوتين. تقدم حينها (لوكيانوف) وكيل المجمع الكنسي المقدس (اليعسب الشرك). لم يستغرق الأمر تحقيقاً طويلاً لاقناع لوكيانوف أن من اليسير شرح التناقضات بين معتقدات راسبوتين الدينية وبين سلوكه الجنسي. لقد كان راسبوتين عضواً في الخليستية التي تشكل العربدات الجنسية جزءاً لا يتجزأ من طقوسها[1]. انجز ستوليبين تقريره وفقا لوثائق مختلفة مشكوك في صحتها وقدمه للقيصر الذي رمقه بنظرة ثم رماه في احد ادراجه وأخبر ستوليبين أنه يفضل القاء راسبوتين بنفسه والحكم ان كان (الستارتيز) فاجراً ماكراً وقد سبق ان ذكرنا تعليق ستوليبين عن اول لقاء له مع راسبوتين. وفيه اعتقد فعلاً أن راسبوتين حاول تنويمه مغناطيسياً.

لملمت شتات نفسي وخاطبته بشديد العبارة أن لدي دليل ادلاله بصفته عضواً في زمرة الخليستية ثم امرته بترك مدينة القديس بطرسبورغ فوراً......

لقد تجاوز ستوليبين تعليماته بأمره راسبوتين مغادرة مدينة بطرسبورغ غير أن الذي حصل أن راسبوتين نفسه غدا يقظاً لكم العداء الذي أثاره على نفسه. وقد اخبرته عائلته أن غرباء قدموا القرية وسألوا عنه... وقد اعطاهم الأب بيتر، الذي لم يزل يكره راسبوتين كثيراً، الكثير من المعلومات، ووصلت التحقيقات إلى فيرخوتور لمعرفة ما إذا كان راسبوتين قد نزع الى الخليستيه.

(١) ثمة نقطة يتحتم علينا ادراكها هنا أن أتقاداً قلة في روسيا تعرف الكثير عن الخليستية لان عصبة الأخوة حرصت على عدم نشر فعالياتها.

وبدأت صحف بطرسبورغ بالتهجم على راسبوتين، غير آبهة بثقل الغرامات التي قد يفرضها القيصر غير مبالٍ على اية صحيفة تحط من شأنه. لقد دكَّ سيء الأشياء مضاجع الراحة. ان زيارة مطولة لبوكروفسكو كان يمكن ان تلبي مطالب ستوليبين غير أن راسبوتين أدرك أنه سيظل تحت رقابة مستمرة هناك. فقرر القيام بحج آخر الى الأرض المقدسة فهذه الرحلة ستأتيه بمنافع عديدة. فهي ستعزز من درجة ورعه لدى التزارينا وستبعده بعض الوقت من جواسيس الشرطة من جهة اخرى وستمنحه فرصة لتجديد علاقاته مع معارفه القدماء. لكن الأهم من ذلك كله انه سيستريح لبرهة من حياة المؤامرات والمكائد التي بدأت تحيله الى متآمر.

بدأ راسبوتين رحلة الندم في آذار من عام ١٩١١ فظل طيلة رحلته على اتصال بالتزارينا. وجمعت ابنته فيما بعد مختلف الرسائل والملاحظات وطبعته كعمل يدعى «صحيفة راسبوتين في حجه» ويتألف من ١٦,٠٠٠ كلمة. وكشف المطبوع الراحة التي عاشها راسبوتين وهو بعيد عن أجواء بطرسبورغ وأن الأديره وحرمات «الأرض المقدسة» تركت فيه تارة أخرى عميق الأثر. تمحصت التزارينا كثيرا برسائله -التي غالبا ما كانت خربشات على ورق بالي- واحتفظت بها بعناية تامة. انطوت معظم جوانبها على هيام زهدي يميط اللثام عن عمق التأثير الذي طبعه فيها راسبوتين. وهي قد استشاطت غضباً من ستوليبين وطلبت من القيصر فصله. بيد ان نيقولا كان أعقل من أن يفعل ذلك فالوزراء الأكفياء قلة لكن تعامله مع ستوليبين اضحى اكثر برودة وجفاء.

دامت رحلة الندم عدة شهور توجه راسبوتين بعد عودته منها الى بوكروفسكو، لكنه ظل للتزارينا شدواً ما سلاه فمها وأمنية ما فارق قلبها برغم

انها أدركت أن حسن التصرف يحتم عليه الا يعود الى مدينة القديس بطرسبورغ. لذا ارسلت صديقتها أنا فيروبوف وصديقتها مدام اورلوف إلى بوكروفسكو للاطمئنان على حاله. وتكشف آنا فيروبوف في مذكراتها فتقول: «برغم الثقة العالية للتزارينا بكمال راسبوتين ومثاليته فقد ارتأت ان تجري بعض التحقيقات حول حياته الخاصة في سيبيريا». ربما غذى الأسقف تيوفان الاشاعات ضد راسبوتين في البلاط وعليه آثرت التزارينا معرفة أحقاً أن حياة راسبوتين في بوكروفسكو مجرد حياة دعارة وفحش. (ويذكر بيرس ان تيوفان هو الآخر قام بزيارة راسبوتين في بوكروفسكو وفيها تلقى اعتراف امرأة كان راسبوتين قد اغواها لكنه لم يذكر التاريخ للأسف). استقلت آنا ورفيقتها القطار الى تيومين حيث التقاهما راسبوتين بجواد وعربة وأخبرهما أن عليهما قطع ما يقارب ستين ميلا عبر طريق وعرة في هذه العربة. فهي مسافة ليست بالمسافة لراسبوتين لكنها رحلة مضنية لسيدتين من البلاط وخادمتيهما.

وصفت آنا منزل راسبوتين بـ «ثراء في بساطته». فطابقه العلوي يضم غرف نوم خالية من الأثاث ما عدا حشيات من القش موضوعة على ارض خشبية برغم ان الشموع مشتعلة امام الايقونات المعلقة على الجدران. وضمت اسرته، حسب قول آنا، زوجته القديمة وثلاثة اطفال بينهم الطفل المعتوه وعانستين تساعدان في اعمال المنزل والمزرعة. كانوا جميعا يتناولون الوجبات في غرفة الطعام البسيطة جالسين حول طاولة عادية وفي المساء يأتي راسبوتين اربعة اصدقاء يطلقون على انفسهم اسم «الإخوان» لقراءة التوراة وغناء التراتيم.

لم تكن الحياة ضجرة كما تبدو لاول وهلة فجل الوقت ينقضي خارج البيت خاصة على كتف النهر. وغالبا ما أمضى راسبوتين و «الإخوان» وقتهم في

صيد السمك، ثم يشوونه في مخيمات على ضفة النهر. مسح الجو الديني والساطة هناك أثرها على آنا فيربوف التي عاودت المجيء لبوكروفسكو خلال أيام الصوم الكبير من عام ١٩١٢ بعد طرد راسبوتين ثانية من الأسرة الإمبراطورية. دعم تقرير آنا الذي قدمته للتزارينا بعد عودتها من رحلتها حياة راسبوتين العائلية سيما وقد أشارت فيه ان رجل الدين في المدينة يبغض راسبوتين كثيرا. كما اصطحبها راسبوتين في زيارة إلى فيرخوتور، واكتشفت هناك ان الراهب ماكاري يكن لراسبوتين احتراماً، اكثر من رجل الدين في القرية.

وقعت هذه الزيارة اواخر آب عام ١٩١١ .وفي أوائل أيلول من نفس السنة زارت الأسرة الإمبراطورية مدينة كييف في وفد رسمي ضم رئيس الوزراء ستوليبين ووزير المالية وهو رجل كفء يدعى (كوكوفستيف). وقرر راسبوتين مرافقة آنا فيربوف إلى كييف التي وصلوها في الثامن عشر من ايلول واول الأشياء التي شاهدوها العربة الخاصة بالأسرة الإمبراطورية وهي تقل التزار والتزارينا تتبعهما عربة اخرى تقل ستوليبين التي ما ان مرت عليه حتى صاح راسبوتين: «الموت يسير وراءه... الموت يجري وراءه» وكان قوله هذا مثالاً آخراً على قدرته في التبصر، حيث كتب التزار لأمه في اليوم التالي قائلاً:-

«خلال الإستراحة الثانية (من اوبرا ريمسكي كورساكوف «القيصر السلطان»)... سمعنا صوتين كما لو ان شيئا ما قد سقط. خلت انه زجاج الاوبرا ربما قد وقع على رأس احد. كان ستوليبين يقف أمامي مباشرة ثم ادار رأسه نحوي ببطء ورسم بيديه اشارة الصليب حينها أدركت أن يده اليمنى وبزته الرسمية ملطختين بالدماء. فجلس بعدها ببطء في كرسيه وبدأ يفك الزرار.

حاول القيصر زيارة ستوليبين في المستشفى لكن أحداً لم يسمح له برؤيته، وربما رفض ستوليبين رؤية نيقولا. اذ قال بمرارة عندما شاهد التزار محمياً من كل صوب وحدب وظل هو وكوكوفستيف لا يأبه لهما أحد: «نحن غير ضروريين». وهكذا توفي بيتر ستوليبين، افضل واجدر من عرفه نيقولا الثاني والرجل الوحيد الذي كان سيمنع اندلاع الثورة.

انتهت بموت ستوليبين آخر عقبة أحالت دون عودة راسبوتين إلى بطرسبورغ فعاد أدراجه اليها بعد أن رافق الأسرة الإمبراطورية من ليفاديا في الكريميا ومن حيث طرده رئيس الشرطة الذي اراد ان يبرهن أنه لا يخشى محبوب الإمبراطورية.

بيد ان بطرسبورغ ظلت تراوح على حالها. وشرعت الحركة الناهضة لراسبوتين- ما ان بلغها قرب عودته- تستجمع قواها. وذهب اسقف بطرسبورغ، مسيو انتوني، للإعتراض لدى القيصر على عودة راسبوتين (الكن الرد جاء الا يكترث لشيء غير شؤونه)[1]. وقد توفي الأسقف بعد ذلك بقليل.

قرر ايليودور وقد رأى خزي راسبوتين ضم قواه لثيوفان وهيرموجين. فثيوفان -ذلك الأسقف العطوف الذي تقع عليه المسؤولية العظمى في تقديم راسبوتين للمجتمع- قد غدا أشد أعداء راسبوتين عداء له وحقاً نقول أننا نجهل تحديداً سبب هذا التغيير. أما هيرموجن الذي كان بعيدا عن بطرسبورغ -في ساراتوف- فكان راغباً عن ادانة راسبوتين دون وجه حق ينطوي عليه. وربما

(١) يعطي رودزيانكو بدايات عام ١٩١١ تاريخاً لهذه المقابلة. بيد أن معظم التواريخ التي يعطيها في كتابه ليست دقيقة. فهو يذكر أن زيارة ام. جي. ار. انتوني قد حدثت بعد عودة راسبوتين لبطرسبورغ.

أعداء ايليدور ما يحتاجه من دليل أن أخبره تفاصيل زيارته لبوكروفسكو في العام المنصرم. وبحجة ايليدور لم غير مشاعره حيال راسبوتين فكانت أنه استمع لاعتراف الراهبة (كيسنا) التي اغتصبها راسبوتين.

فيما تقف رواية راسبوتين عن أسباب تفجر نزاعه مع هيرموجن مناقضة تماماً لما ذكرناه من سرد- وقد احتواها كتاب ابنته. أنها - في أقل تقدير- رواية جديرة بالتصديق كرواية ايليدور. اذ يقول راسبوتين أن ايليدور قد تأثر شديد الأثر بمزاجه في الجنس الى الحد الذي حداه أن يقلع عن ممارساته الزهدية. وفي احد الأيام ذهبت زوجة ضابط في بطرسبورغ تدعى مدام (اولغا لوكتين)(١) للإعتراف لايليودور. كانت هستيرية الى حد ما وربما اعتقد ايليودور أنها ذات نمط آخر من الرغبة. وعليه، حاول اغتصابها فطفقت المرأة المذكورة بالصراخ. وعندما سارع اتباع ايليودور لنجدتها، اعلن ايليودور ان المرأة قد توسلت اليه ليجامعها وانه قد طردها بعيدا عنه. فأخرجوها للفناء وانهالوا عليها ضرباً ومزقوا ثيابها ثم ربطوها على ظهر عربة سحبتها على الجليد. أسفر سلوكهم هذا عن انهيار المرأة عصبياً وباتت أقرب الى مجنونة. (ويذكر فولوب ميلر انها صبت بعدئذ جمّ اهتماماتها نحو راسبوتين واصبحت من اكثر معجباته هياماً به لكن نوباتها الجنونية سعرته حتى عيل صبره في معالجتها).

قرر ايليودور بعد طول عناء تعجيل اتهام راسبوتين بالشكوى منه لدى هيرموجن الذي طلب من راسبوتين زيارته في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩١١. وصل راسبوتين مكان المقابلة الذي كان- على الأغلب- احد أديرة ساراتوف وكان لدهشته أن اكتشف بان المقابلة لن تكون على انفراد

(١) التي يذكر راسبوتين أنها كانت تعلم راسبوتين القراءة والكتابة.

فايليودور كان هناك والمشوهة (ميتيا كوليابا)، المتنبئة التي طردها راسبوتين من البلاط وشاهدين آخرين وصحفياً.

ومرة أخرى نحصل على روايتين متناقضتين لهذه المقابلة. أولها سرد ايليودور الذي جاء فيه أن هيرموجن سأل راسبوتين ما إذا كانت قصص مغامراته الجنسية حقيقية فأجابه راسبوتين مرتعدا: «انها حقيقية... حقيقية برمتها». ثم شرع هيرموجن الغاضب يضرب راسبوتين بصليب كبير وامره ألا يلمس امرأة بعد الآن وأن يبقى بعيدا عن القصر وقد اذعن راسبوتين لاوامره خوفا على حياته هو.

يذكر احد الشهود وهو القوقازي (روديونوف) أن هيرموجن بدأ المقابلة بتوجيه اتهامات شديدة اللهجة ضد راسبوتين الذي رد عنها بازدراء مهددا الأسقف: «انني لن أطيل عليك صبراً». فلعنه الأسقف وصرخ عليه راسبوتين وتقدم لضربه حتى أوقفه الآخرون. تبدو رواية روديونوف أكثر مصداقية وأقرب لشخصية راسبوتين من تعليق ايليودور.

عاملت ميتيا كوليابا (التي كان عليها ديناً قديمة نجحت في التملص منها) راسبوتين بغليظ قلب. ولم يهدر راسبوتين وقتاً ليقابل التزار ويقدم له سرداً لما حدث مستهلاً اياه بمحاولة اغتصاب مدام (لوكتين). ودون أناة اصدر التزار امرا يقضي بمعاقبة هيرموجن وايليودور وفصلها في ديرين مختلفين. كان لهيرموجين الحق أن يحاكمه اثنا عشر اسقفا بيد ان التزار تجاوز ذلك الحق وقبل هيرموجن الحكم وذهب بعد مرضه لدير (زيروفتسكي).

ورفض ايليودور العقوبة وقرر هجر بطرسبورغ ليجوب أرجاء البلاد هائماً

وشاتماً راسبوتين حيثما حلت قدمه. وقد كان في جعبته رسائل أرسلتها التزارينا وبناتها لراسبوتين- سرقها في زيارته لبوكروفسكو عام ١٩١٠- وشرع الآن يوزع النسخ منها. وظل هكذا حتى ألقي القبض عليه وسجن في دير في (فلوريشيفو). ويبدو ان تناقص ثروته اصابه بالكآبة. ثم شرع يؤلف كتاباً يستنكر فيه راسبوتين وذاكراً ان التزارينا كانت عشيقة راسبوتين. وقد جرد بعدها من لقبه ونجح متنكراً بزي امرأة في الهرب الى النرويج وفيها استأنف كتابة مذكراته -التي اصبحت اكثر سفاهة وكذبا وادعاءا- ثم كتب للتزارينا وعرض عليها شراء الكتاب مقابل مبلغ كبير. لكنها تجاهلت رسالته. بيد انه نجح في بيعه ابان الحرب مع رسائل التزارينا لصحيفة امريكية.

فجر الأمر فضيحة كبرى. فلم تكن شتيمة هيرموجن لراسبوتين السبب الوحيد لطرده. لقد مات اسقف توبولسك -وهونفس الرجل الذي اوصى باجراء تحقيقات عن راسبوتين قبل اثني عشر عاماً- ورشح راسبوتين لذلك المنصب صديقه القديم وعاقر الخمر (بارنابي) الذي كان يعمل بستانيا. ويذكر رودزيانكو ان غاية راسبوتين كانت أن يغدو قساً، غير أنها غاية لا حق له فيها. مارس راعي راسبوتين (الوكيل سابلر) ضغطاً على المجمع الكنسي لتعيين بارنابي ونجح نهاية المطاف في تعيينه بالتلميح أن هذه رغبة التزار. وهنا ألقى هيرموجن خطاب استنكار غاضب غادر بعدها المجلس. فسبب ابعاده الى دير قصي هو أنه حط عن سابق اصرار من احترامه للقيصر.

غير أن الفئة الناهضة لراسبوتين ما فتأت يوماً بعد آخر تزداد قوة. وهنا نشر استاذ في أكاديمية اللاهوت في موسكو يدعى (نوفوسيلوف) كتيبا يثبت فيه أن راسبوتين كان عضوا في الخليستية واستهجن على الكنيسة تسامحها لمثل هذه

الاساءات. وربما كان قد اتفق مع نوفان ولوكيانوف. بيد ان الكتيب سرعان ما منع تسويقه. وكتبت صحيفة (كولوس موسكفي)، التي يملكها رئيس الدوما (كوشكوت)، مقالا لنفس الكاتب مع مقتطفات من الكتيب. لكن المقالة منعت فبدأت الأيادي تتناقل ما متوفر من أعداد للكتيب وقصاصات المقالة. ثم حذت صحف أخرى حذو كوشكوف وبدأت تنشر مقالات عن راسبوتين أدانته فيها بـ«زاني ارواح الإنسانية واجسادها». لقد انطوى تعليق التزارينا عن كل هذا بعبارة: «الكل يكرهه لاننا نحبه». فيما ظن التزار أن السيل قد بلغ الزبى فاصدر مرسوما منع بموجبه اية صحيفة أن تكتب عن راسبوتين. وبفعله هذا يتنحى عن مسؤوليته في حرية الصحافة التي اعلنها في مرسوم عام ١٩٠٥.

اقترح كوشكوف -وهو رجل مغامر وذو شأن كان قد قاتل في (عصيان بوكسر) و (حرب البور)[1] مناظرة شاملة عن راسبوتين تحسم الموقف في الدوما والتي أفسد فيها شعبيته أكثر فجاء بعده لمنصب رئيس الدوما (ميخيل رودزيانكو) وهو رجل ضخم الجثة أجش الصوت، ونزيهاً حتى عظمه لكن مسحة من الغباء والغرور تتجسد فيه.

اتخذ راسبوتين لنفسه حلقة من الأعداء الأشداء يعملون جميعاً كخلية نحل لاسقاطه فهو قد بات على حين غرة وفي غضون عام واحد فقط من أكثر الرجال بغضاً ومحط جدال في روسيا. فبعد أن أثبت قوته في صدامه مع هيرموجن والليودور وقف الآن امام رجال أطول يداً وأشد قوة. فذاك كوشكوف ذو الروح المغامرة ولكنه تميز بجرأته الشديدة وكان قائدا (للاكتوبريين) وهو حزب

(١) البور (Boer): اسم عرف به المستعمرون من أصل هولندي في أفريقيا الجنوبية. أنشأوا دولتي اورانج وترانسفال ١٨٣٦ و ١٨٥٢. أخضعهم الانجليز ١٨٩٩- ١٩٠٢.

ذو اصلاح وطني اتخذ من النظام البرلماني الإنكليزي مثله الأعلى. أما رودزيانكو فقد تميز بنزاهة سلوكه وحسن أدائه الذي كان له وقعه حتى على التزار. بل انه كلم والدة التزار الإمبراطورة (دواجر) عن راسبوتين واكتشف أنها تنظر اليه خطيراً وشيطاناً. وهي قد وقفت ضد جميع من أحبتهم زوجة ابنها ييد ان خصمها الأكثر قوة -في الوقت الحاضر- هو كوكوفتسيف الرجل الذي خلف ستوليبين في منصب رئيس الوزراء والذي اختير لهذا المنصب لسبب معقول: هو انه الرجل الوحيد في روسيا الذي تمتع بالقوة والثقة الكافيتين لتوليه المنصب. لم يحبه الآخرون كثيراً، فهو رجل قصير القامة، أنيق الملبس، يزدري الآخرين في نظرته، قليل الكلام وجاف الأسلوب. وقد قال فيه الأمير (فاسيلي): «انتاب المرء شعور أنه امام رجل نظيف جداً، انيق جداً، جد لطيف وجد متحضر». لقد كان نزيهاً أو قورن بمعظم المسؤولين الروس برغم ان الناس قد لاحظوا ان الشركات التي له اسهم فيها محاطة بالغموض دائما كما لو ان شخصا ذو مقام رفيع كان يستغل معلومات سرية... لكنه كان حشرة مقارنة بستوليبين او وت برغم انه كفء وعملي وهما صفتان لا يتميز بها الروسي. وهو قد جاهد حين شغل منصب وزير المالية أن يخذل الدوما مراراً فأحبه القيصر لذلك وغرس ثقته فيه.

غير أن كوكوفتسيف ورودزيانكو قد أشاعا احتقارهما لراسبوتين وأشد منهما خطراً كان الرجال الذين تظاهروا أنهم أنصار راسبوتين وحملوا عليه من خلف ظهره. وأشد من ضمر له الضغينة من هذا الجمع مغامر يدعى (اليكسي فوستوف) الذي كان محافظ (نيجني نوفوكورد). وتبرهن قصة تتعلق بفوستوف تعاظم نفوذ راسبوتين السياسي في عام ١٩١١. فبعيد مقتل ستوليبين أمست

الحاجة قائمة أن يشغل أحد منصب وزير الداخلية الذي تولاه آنذاك ستوليبين أيضاً. وعليه أرسل القيصر راسبوتين الى نوفوكورد ليرى منه إن كان فوستوف خير مرشح لذلك المنصب. وآنذاك لم يكن فوستوف قد سمع براسبوتين البتة وثارت حفيظته عندما قدم منزله فلاح أشعث يحادثه متعالياً. لقد عامله فوستوف بعجرفة ولم يقدم له حتى وجبة طعام. ولم يجهر راسبوتين برد فعل من هذا السلوك لكنه ألمح حين غادره أن التقرير الذي سيعده للقيصر لن يكون في صالحه. وجد فوستوف الأمر صعباً عليه أن يصدق أن فلاحاً كهذا له حظوة عند التزار، لكن فضوله دفعه أن يرسل أحد أعوانه لمكتب البريد ويقرأ نسخة من البرقية التي بعثها راسبوتين للتزاريسكو سيلو. كانت البرقية مرسلة لآنا فيروبوف ويا للدهشة فوستوف عندما قرأ: «اخبري ماما أن نعمة الله في فوستوف برغم أن شيئاً ما ما زال ينقصه». ظن فوستوف أنه ارتكب حماقة وسافر من فوره لبطرسبورغ لمقابلة التزار الذي استقبله ببرود مخبراً اياه أن الإصلاحات الخاصة بمياه البالوعات في نوفوكورد ليست بالإنجاز المهم -وقد اتخذها فوستوف حجة لديه- ثم طرده. بعدها احس راسبوتين بالرضا وهو يرى فوستوف يحاول جاهدا التملق اليه وهو سلوك لم يتذمر منه راسبوتين فمنح فوستوف موعداً لمقابلته بعد مرور اربع سنوات. لقد كان سلوك فوستوف كعملة ذات وجهين أحدهما متزلفاً لراسبوتين وهو أمامه والآخر متآمراً عليه من خلفه. وهو قد اخبر رودزيانكو ان سر سلوكه اللطيف مع راسبوتين امله أن يقضي به مخموراً في مكان عام فيساومه مع التزارينا.

ولا مندوحة هنا من ذكر اثنين آخرين لتكتمل الصورة المجسدة لجميع أعداء راسبوتين. انهما (فلاديمير بورشيكفش)وهو عضو لامع في الحزب المحافظ

وكذلك عضو في الدوما، والأمير (فيليكس يوسوف) الذي التقى راسبوتين في عام ١٩٠٩ ومرة اخرى عام ١٩١٤.

هؤلاء هم نفر الأعضاء الذين شهروا سيوفهم بوجه راسبوتين عام ١٩١١ ولم يتوانوا لحظة واحدة في قتاله. هنا طلب رودزيانكو مقابلة التزار وقد تأتى له ذلك في العاشر من آذار عام ١٩١٢. وكان يعلم جيداً أنه كمن يحمل في يده بارودا سيا وأن القيصر قد نهر ستوليبين والأسقف أنتوني حين أرادا الحديث اليه حول راسبوتين. لكنه يدرك في ذاته قوة الشكيمة وأراد أن يقود الاجتماع مع القيصر بقوة شخصيته. كما قرر اللجوء الى تكتيك معين فبعد أن طرح موضوع راسبوتين، أكمل الحديث مسرعاً: «هل سأنال شرف صاحب الجلالة أن يستمع لي حتى أكمل حديثي؟ فان كان الجواب غير ذلك فلكم بكلمة واحدة وسألتزم الصمت بعدها». تمتم التزار بصوت خافت، وربما كان يفكر حينها في رد فعل زوجته اذا سمعت بأمر هذه المقابلة وقال: «تكلم». استهل رودزيانكو حديثه بنفس اتهاماته السابقة ضد راسبوتين وعرض على التزار تقديم ادلة موثقة تؤكد ان راسبوتين قد اشتهر منزلته لدى التزار باغواء واغتصاب كل فتاة يقع عليها. لقد كان على رودزيانكو أن يعلم أن القيصر قد استلم سلفا تقريرا ضخما من ستوليبين حول هذا الموضوع ولم يكلف نفسه حتى عناء قراءته. ومع هذا آثر القيصر أن يدعه يمضي في حديثه لعله وجد وسيلة لانهاء المقابلة، فطلب منه أن يواصل القول فيما غمرت النشوة لب رودزيانكو.

لم يفلح رودزيانكو أن يتحسس مشاعر الذنب في القيصر تجاه زوجته المحبة لراسبوتين، فـ (اليكساندرا) هي لا غيرها في الكون من سلبت لب نيقولا بعد أن كان في أمس الحاجة لمن يهبه ثقته العمياء ومن يجد فيه مكاناً لأسراره.

وكيف له أن يفعل الأشياء دون علمها.. فهو كمن يبني في القلب حاجزاً بينهما. وعليه قرر أن يخول رودزيانكو صلاحية التحقيق في سجل راسبوتين على أن يعلم زوجته بالأمر والتي غليها غضبها سيا وقد اكتشفت أن رودزيانكو قد حث داماسكي (نصير راسبوتين في المجمع الكنسي) أن يسلمه تقرير لوكيانوف القديم، الذي يثبت ان راسبوتين كان عضوا في الخليستية. وعليه امرت داماسكي أن يستعيد لها التقرير فأسرع والخوف يملأ جوانحه لرؤية رودزيانكو واخبره أن شخصا رفيع المقام يريد التقرير. فسأله رودزيانكو قائلا: «هل هو سابلر؟» وهو رئيس داماسكي فاجابه داماسكي: «كلا، انها التزارينا اليكساندرا فيدرونا». ثم ارتعدت فرائص داماسكي حين صرخ رودزيانكو في وجهه قائلا: «هل لك ان تحيط سعادتها علماً أنها -كما أنا- من رعايا القيصر وعليها طاعته معاً. وانني لا أرى في موقعي حيزاً أن ألبي رغباتها».

لم يجد رودزيانكو بداً غير اغضاب التزارينا. وبعد أن اكمل وثائق اتهام راسبوتين، طلب مقابلة التزار مرة ثانية والذي لم يشأ مقابلته وطلبوا اليه أن يكتب تقريره في الأمر فادرك ماذا يعني ذلك القول. لقد انتصر راسبوتين في جولة اخرى. وفي سورة غضب ذهب رودزيانكو لمقابلة كوكوفتسيف مستنجداً بأي فعل يأتيه به، ولكن أنى لهما أن يفعلا شيئاً. لقد سبق السيف العذل والغلبة لمن أدركها.

أقام كوكوفتسيف الدنيا وأقعدها لعله يمسك بناصية الفوز. ولكن تبدد ما فعله هباء منثورا فقد اخبره التزار لا شيء غير أن يذهب لمقابلة راسبوتين نفسه. اخذ كوكوفتسيف هذه النصيحة على محمل الجد وذهب لمقابلة «الستارتيز». وهنا يدنو وصفه للمقابلة كثيراً من وصف ستوليبين. فقد تطلع

راسبوتين الى الرجل محاولا تنويمه مغناطيسيا -او هكذا ظن كوكوفتسيف. ثم قال راسبوتين متأثراً بالتماس كوكوفتسيف: «حسن، سارحل». ثم شرع في سرد ملاحظات أثبتت تارة أخرى نفاذ بصيرته ورؤيته الواضحة للمستقبل. تحدث لكوكوفتسيف عن وضع الغذاء ونصحه بالاهتمام بخطوط السكك الحديدية (لقد ورد هذه النصيحة تكرارا). وتساءل السير برنارد بيرس ان كان هذا الاهتمام ناجم عن عنف سياسي معين أم أنه محض الهام، فالذي أطاح نيقولا عن عرشه هو الحصار المفروض على التجهيزات الغذائية المنقولة عبر السكك الحديدية.

دفع كوكوفتسيف لهذا النصر- ان كان نصراً- أغلى ثمناً. فقد ولاّه القيصر منكبه وما برح يجهل حقيقة الأمور في ظواهرها وبواطنها وكل ما يدرك منها أن القيصر يبحث له عن بديل عنه.

لقد عاش رودزيانكو غبطة النصر وتذوق أكثر غبطة منها حين طرقت مسامعه حكاية شاعت بعد أسابيع قلائل في كل صوب من بطرسبورغ وحديها. جاء في الحكاية أن العائلة الامبراطورية قصدت (ليفاديا) لقضاء عطلتها الصيفية هناك وحثت آنا فيروبوف راسبوتين على ركوب القطار ذاته الذي يقل العائلة الامبراطورية. وما ان سمع القيصر بذلك حتى هاج شيطانه فقد عكر صفوه ذاك الفلاح اللطيف وسوء الاتهامات التي ما فتأت تدور دائرتها وامر لذلك بايقاف القطار وانزال راسبوتين في محطة تدعى «توسنو» تقع بين بطرسبورغ وموسكو وترك معه شرطيا يتأكد أنه عاد أدراجه الى بوكروفسكو.

كما خاله أعداء راسبوتين نصراً لهم وان خسر فيه كوكوفتسيف

ورودزيانكو حظوتيهما لدى القيصر. لكن حقيبة الأنباء التالية جاءتهم بالذي أجهض معنوياتهم العالية. فقد تعرض التزاريفتش لحادثة اخرى وهو يقفز من الزورق وقد يئس الأطباء من انقاذ حياته. فارسلت التزارينا للتو برقية لراسبوتين (والتي سبق ان تحدثنا عنها في الفصل الخامس) وقد جاءها الرد أن ابنها سوف يعيش. وان القيصر قد عض أصابع الندم للقساوة التي عامل بها راسبوتين. فالرجل ليس الا قديساً وصانع معجزات وان أسفرت تصرفاته عن خجل القيصر. وبحلول أواخر عام ١٩١٢، أرسى راسبوتين دعائماً لنفوذه في البلاط أمتن أساساً من سواها في الماضي.

وحوالي تلك الفترة كتب رئيس الشرطة لرودزيانكو قائلا: «لقد ضقت ذرعا به فكلما نزل من القطار ذهب على الفور للحمامات مصطحبا معه سيدتين». هو رجل لم يفنيه الاجهاد ولم يكل له ساعد وما حاد عقله برغم المكائد السياسية ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها عن الموضوع الأقرب اليه دوماً..... : الجنس.

الفصل الثامن

عاصفة في الأفق

ترى ماذا دعا راسبوتين؟ فقراءة لتلك الحقبة وسيدرك فيها القراء على اختلاف مشاربهم ان راسبوتين كان جالسا على برميل من البارود.

ان من الصعب التخلص من الاستنتاج أن تدهوراً خطيراً أخذ يطفق آنذاك. لقد أحاط الأعداء راسبوتين من كل حدب وصوب، وجميعهم كشر عن أنيابه. ولم يتطلب الأمر بشاناً نفاذ بصيرة ليدرك أنه هدف للاغتيال اليوم وليس غداً. بيد أن هذا الرجل الذي ملك قوة جعلته مفارقاً للديار ورحالاً يجوب الأصقاع بدا غير قادر أن يغادر هذا الجو الموبوء. وبما لا غبار عليه أن الجنس كان أحد أسباب بقائه. وخير شاهد لنا في ذلك تقارير الشرطة آنذاك المليئة بعبارات مثل «أمضت (ماريا جل) وهي زوجة نقيب في الفوج الخامس والأربعين ليلة السابع عشر من كانون الثاني في منزل راسبوتين» و «نامت الممثلة فارفاروفا في منزل راسبوتين ليلة الخامس والعشرين من تشرين الأول»، «وعاد راسبوتين الى منزله في سيارة مع الغانية كريجيوفا وهو مخمور ثم قبّل الغانية ومرر يده على خديها» و «غادر راسبوتين وزوجة (بيرجيس بازيليتسكي) البالغة من العمر ثمانية وعشرين عاما في سيارة وهما في حالة سكر شديدة ثم توجها الى شقة السيدة بازيليتسكي حيث أمضيا الليل هناك وحتى ظهيرة اليوم التالي».

وغالباً ما أشارت التقارير أن راسبوتين «سكير مترنح» برغم أنه اذا ما دعي للقصر الامبراطوري تلاشت منه حالة السكر وان كان في أشدها.

بيد أن هذا النمط من حياة الممارسة الجنسية اللاشرعية وتعاطي الخمر لا تكشف عن سر بقاء راسبوتين في بطرسبورغ بل انها تضفي على المشكلة بعداً آخر هو: لماذا ارتأى راسبوتين لنفسه هذا النمط من العيش؟.

لم يجد من أراد أن يحط من شأنه- وهم جميع من كتب عنه- معضلة في ادراك غايته: فراسبوتين لم يكن سوى فلاحاً عاقراً للخمر أمسك بالعروة الامبراطورية عبر الخديعة والخداع ومضى ينتقي الأفضل من الأشياء. غير أن هذا الرأي قاصر لا يناسب الحقائق والوقائع، فما كان راسبوتين بقديس وانما رجل مرموق، بل هو أكثر من اخترق الأنظار في روسيا آنذاك بجانب غارجييف. وكونه روسياً، تجلت فيه النزعة الشرقية لنبذ العالم في داخله. وهو -كالعرب الذين وصفهم لورنس- لم يكن زاهداً، ومع هذا تجسد فيه الحب «للرياح العاتية الهابة في فيافي الصحراء المترامية الأطراف»، وللسهول الممتدة على مرمى البصر وخير من يفوح بهذا الحب للحرية وصفه للبحر او للسماء في الدجى في يومياته. لقد كان راسبوتين حرا قبل التقائه القيصر وكان له الأتباع والمعجبين لكنه لم يشعر بالإنتماء اليهم فظل جوالاً دائماً. اضحى راسبوتين بعد ذلك سجينا في جو تبخرت عنه رائحة التآمر والخطر والإهانات. لقد أورد جواسيس الشرطة تقريرا جاء فيه: «شوهد راسبوتين هاربا من منزل شخص يدعى بيلكوفسكي يتبعه رجلان، ثم قفز الى عربة مارة وظل واقفا طوال الطريق الى «بيتي» للتأكد ان كان أحد يتبعه». وهذا مثال ذكر لا حصر من المؤامرات ومحاولات الإغتيال ضده. ويذكر جواسيس الشرطة ايضا أن ضابطاً في الجيش

هاجمه في محطة القطار وفي مرة اخرى حاول جواسيس الشرطة تهدئة اثنين من الأزواج الهائجين وقفا امام باب داره بينما هربت زوجتيهما من السلم الخلفي للمنزل. لقد استحالت حياته الى كوميديا بطيئة لم تخلو قط من احتمالات الخطر. وهنا نتساءل: لم مكث راسبوتين في قلب الريح العاتية وهو بمستطيع أن يسابق الريح صوب فلسطين لعام أو أقل حتى تهدأ العاصفة؟ أيكون حسه العام قد أنبأه دون نفاذ بصيرته أن أملاً له في الحياة بات بعيضاً؟.

ثمة جواب معقول واحد لهذا التساؤل هو أنه أدرك موقناً أن اختفاءه يعني تداعي العرش وهذا احتمال لا يبدو بعيداً كما قد يظنه القاريء أول وهلة. لقد حاصرت المنية القياصرة كما تشير لذلك مذكرات تلك الحقبة التي تنبأ فيها الرومانوفيون بكارثة أكتوبر عام ١٩١٧. فيما تناقلت روسيا بأكملها نبوءة راسبوتين للقيصر عام ١٩١٢: «سيظل العرش آمناً ما دمت حياً وان وافتني المنية فانك لفاقده وحياتك». لقد ظل راسبوتين في بطرسبورغ لأنه استشعر الكارثة القادمة وآمن أنه من يستطيع تفادي وقوعها وهو ايمان له ما يبرره، فقد أشاح حرباً في عام ١٩٠٩ وتوقى أخرى عندما احتد توتر بين بلغاريا وصربيا وتركيا والنمسا وكاد أن ينفجر الى حرب لولا نفوذ راسبوتين (كما اعترف بذلك بيرس أيضاً). وقد وجدت وجهة نظر راسبوتين ما زكاها عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ وأفضت مباشرة الى حدوث ثورة. وربما تحمل فكرة أن راسبوتين أكثر من يلام على ثورة١٩١٧ بعضاً من الصحة بيد أن ما هو مؤكد أن تدخله قد حال دون اندلاعها مبكراً.

الا أن مدى ايجابية او سلبية النظرة حيال هذا الأمر انما يعتمد على نظرة الفرد الذاتية لا سواها. اذ يرى بعض المعنيين بدراسة الشؤون السوفياتية أن

معظم ما حدث من تغييرات في روسيا سيما في حقل الصناعة كانت ستحدث على أية حال. فمن الناحية السياسية، كان الأمر مجرد قضية وقت فحسب حتى تصوغ روسيا لنفسها نظاماً دستورياً. ومن جهة اخرى ستجد من الصعب قراءة تاريخ الرومانوفيين دون الإحساس أن روسيا كان لها الحق في نظام جديد يغسل جروحها ويعيد لها الحياة وان «الدوما» لم تكن هي الأخرى إلا اصلاحاً جزئياً. وان صح هذا الأمر سيجد التاريخ الأمر صعباً عليه أن يصفح عن راسبوتين. فقد كان نفوذه السياسي موبقاً برمته طالما أنه شجع قيصراً حائراً لا لشيء الا لأنه كان يحلم بالعظمة. ان أحسن ما يقال لصالح ملكية راسبوتين هو أنها كانت ملكية مخلصة نأت بنفسها عن نفاق متزلفي القيصر. وهو لم يكن رجعياً بل فلاحاً عاضد الفلاح وساند الأقليات وهو كاليهود والفنلنديين لم يدخر وسعاً كي يبلغ ما ينشده من اصلاحات. وعرف عن المتطرفين الثوريين من الجناح اليساري لا لأنهم أرادوا التغيير بل لأنهم آثروا الصيغة المادية ضيقة الأفق. وعليه فان الصورة التي رسمها دويستوفسكي في روايته «الشياطين» ليست خاطئة او مبالغ فيها بأي شكل من الأشكال. فقد كانت المادية لمعظم الثوار عقيدة صوفية لا تمتلك أية أرضية مشتركة مع الحس العام أو مع وجهة النظر الأخلاقية العميقة للفرق العقلانية مثل دوخوبورتسي «والمولوكان»[(1)] اللتان تدعوان للإتحاد وتشتيت لمام العائلة وتعتبران «الروح» و «الإرادة الحرة» شيئين تافهين وهما وليدتان للعمليات الاحيائية والكيميائية. لذلك فان رجلا مثل راسبوتين -المؤمن بقواه الإعجازية ونفاذ بصيرته- لن يجد في ذاته اي تقارب مع هذه الأفكار.

(1) تقول (المولوكان) أن الشيء الضروري الوحيد للعبودية هو حب الرجل التابع.

وعليه وقف راسبوتين، شاء ذلك أم ابى، ضد كل حزب متقد في روسيا وهكذا مقته البلاشفة لأنهم وجدوه دجالاً متصوفاً، ونفره الأحرار لظنهم أنه شجع نزعة التزار للهيمنة المطلقة، وعاداه المحافظون لانه شجع التزارينا على الإعتدال في السياسة. وقد وصفها شقيقها في حديث له مع وزير الخارجية سنة ١٩١٢ بأنها «خطر» وقال: «ان التزار ملاك وقديس لكنه لا يعرف كيف يتعامل معها».

وفي خضم هذه الظروف، أمسى جلياً تفهم أسباب انحدار راسبوتين. اذ يرى الرجال جميعهم وحتى أشدهم أنفسهم كباراً في عيون أتباعهم وسيكون من المستحيل الا يصيب مثل الانحراف قسطاً وأنت تستنشق نتانة الحقد والضغينة من حولك. ففي عام ١٩٠٥ لم يجن راسبوتين لنفسه أي عدو في كل أرجاء المعمورة، بل ان العالم تطلع اليه فوجده رجلا مبروكا. انهم رجال أمثال جون من الكرونستادت والقديس هيرموجين وآلاف الناس العاديين الذين اتصل بهم والذين وجدوه دون عناء قديساً. وبحلول عام ١٩١٢ بات أبغض من أنجبته روسيا، وحتى أترابه من الفلاحين ما راق لهم أن يقرض حديث نعمة من صنفهم رأيه على التزار والتزارينا. شرع بعدها يلوح براية حاجته للمغفرة فلما اسودت قلوب القوم عليه تفجر عليهم غضباً وازدراء. وهنا كتب بيرس قائلا: «تخرج في محادثات راسبوتين مع الآخرين طرفة من الإحتقار لأعظم ذوي شأن على وجه البسيطة». وهؤلاء (ذوو الشأن العظيم على وجه البسيطة) قد ضمروا له نوايا سوداء لا مجرد الاحتقار

انتقل راسبوتين سراً في عام ١٩١٢ الى مسكن جديد وسكن في «٦٤ كوروخوفي» في شقة من خمس غرف تقع في الطابق الثالث ذات سلم خلفي

يمكن الوصول اليه عبر فناء. وأما المنطقة التي حلّ فيها فكانت أشبه بحي للفقراء وغالباً ما كان الفناء مليئا بالغسيل المنشور وتفوح من البيت رائحة الطبخ.

تضاربت بعض الأراء حول عناوين سكن راسبوتين قبل انتقاله لـ«كوروخوفي». ويذكر فولوب ميلر ثلاث عناوين اولها: شقة تقع في ضاحية (نيفسكي) استأجرها من ارملة غنية تدعى (باشاكوفا)، وثانيها في (كيروشنيا) وثالثها في الضاحية الانجليزية. وحيث أن أول اقامة له في بطرسبورغ- وكما تعلم- كانت مع الصحفي سازونوف لذا يكون قد سكن على الاقل في اربعة اماكن في العاصمة. وبرغم ذلك يذكر رودزيانكو أن راسبوتين ظل مقيما مع سازونوف حتى أواخر عام١٩١١، وما شقة نيفسكي والأرملة التي استأجر منها الا بدعة من بنات بدع الصحفي جارلس اومبا. ولأن الفتاتين قد مكثتا مع ابيهما في « ٦٤ كوروخوفي » فان القصص المريعة التي رواها فولوب ميلر عن مغامراته الجنسية وممارساته لطقوس العربدة ليست إلا مبالغة من جانب الكاتب.

أخضعت الشرطة بمعاونها جواسيسها الشقة الجديدة لرقابة مستمرة. بيد ان معظم ما جاء في سجلات الشرطة لتلك الفترة لم يكن سوى تلمظ كلام لا يملك من القيمة غير شيء من بعض. لقد تلقى راسبوتين الهدايا كل يوم وكانت عبارة عن صناديق من الماديرا(1) ورزم من الكافيار والجبن وسلال سمك وحتى قطع اثاث وسجاد. وقد اسهم التزار في فتح مكتب له استقبل فيه زواره الذين

(1) الماديرا: نبيذ أبيض شديد الاسكار يصنع في غرب المغرب شمال الاطلنطي.

قدموه أفواجاً طالبين شفاعته فيا رد لهم طلباً وتدخل مباشرة مع القيصر او التزارينا لادراكه أنها لا يعرضان عن التماس. وذات مرة أخبره القيصر: «نحن سعداء لرؤيتك يومياً. أما وقد أنجزنا لك ما أنجزناه، فاننا لا نرقب منك بعد اليوم مزيداً من الملتمسين». وغالباً ما خرجت منه جيلات النساء راضيات سيما اولئك اللواتي أبدين له سطوته عليهن. وأما قصص محاولاته اغتصاب كل المتوسلات الجميلات فأغلبها مسوّج بقصد الاساءة اليه ولنا في تقارير الشرطة خير شاهد، فهي أوردت أن أغلبهن بقين معه لعشر دقائق لا أكثر وكل ما في الأمر أنه أحب أن يستشعر نفوذه دائماً. ويروي رودزيانكو قصة غريبة تبرهن ان معظم اللوم يقع الى النساء انفسهن في ترويج القول والقيل وهي :- ارادت امرأة تسكن الضواحي ان تحصل لزوجها على ترقية فذهبت للقاء راسبوتين الذي تحدث معها بأدب واخبرها أنه سيضع الأمر نصب عينيه وطلب منها زيارته في اليوم التالي في ثوب قصير بلا أكمام -ربما لانه وجد فستانها غير مناسب للموقف. فنقلت المرأة ادراجها خائبة الظن وقررت الا تعود اليه. لكن توقا شديدا اعتراها وهي في طريق عودتها لمنزلها ومستذكرة عيني راسبوتين تخترقها حتى العمق. وفي اليوم التالي حصلت على ثوب قصير وعرضت نفسها على راسبوتين. غير أن اغتصاباً لم يحدث برغم ان زوجها حصل على الترقية.

أراد رودزيانكو من القصة الاشارة الى قدرة راسبوتين على التنويم المغناطيسي بيد أن القصة لا تشير لغير هستيرية المرأة المعنية. لقد كان نديماً مع النساء في سلوكه، مداعباً- كما يتجلى هكذا- الى امتصاص (جفجفتهن) وكثير من تقارير الشرطة تؤكد ذلك مثل :«طلب راسبوتين منها تقبيله لكنها أبت ذلك وغادرت المكان. . .»، «زارت زوجة العقيد (تاربنوف) راسبوتين واخبرت

المخبرين بعدها أن «الستاريتز» قد عانق صبية امامها وقد وجدت في الحادثة خزياً فقررت عدم زيارة راسبوتين للأبد.» وأخبرت امرأة، جاءت في طلب لراسبوتين، بواب العمارة: «طلب مني راسبوتين أن أخلع معطفي دون اكتراث منه لتوسلاتي وظل يتحسس وجهي وصدري وطلب مني تقبيله ثم كتب ملاحظة لم أطلع عليها وأخبرني بكدره مني وطلب مني الحضور في اليوم التالي». ويتضح من ذلك كله ان معظم زائرات راسبوتين كن قليلات الاحتشام وربما أشارت الحوادث الى تناول راسبوتين قدحا من الخمر في غدائه لكنها لم تشر اليه بـ «شيطان يحاول تعرية كل امرأة متوسلة».

ليست لملاحظات راسبوتين قيمة كبرى فهي موجزة في أغلبها لسبب منطقي هو أن صعوبة راسبوتين في الكتابة ما زالت كبيرة. وقد سخر أحد القسسة أمام الجواسيس من كتابة راسبوتين الخرقاء. وتحمل تلك الملاحظات عبارات مثل: «صديقي العزيز، افعل ما بوسعك لحامل الرسالة. كريكوري» وكان يرسلها لقليل من اصدقائه أو معجبيه أمثال ستورمر او الأسقف بارنابي اللذين له عندهما مكانة.

وغالباً ما أرسلت التزارينا آنا فيروبوف حاملة عباراتها لراسبوتين. وقد أوردت آنا في مذكراتها أن كثرة الارساليات قد أزعجتها كثيراً والتي تضطر فيها لصعود السلالم وشق طريقها بين الحشود المزدحمة من المتوسلين. وتتذكر أن طالبا فقيرا ترجاها أن يحصل على معطف فأرسلت له واحدا. وهذا قول يحمل في طياته حقيقة ان معظم المتوسلين على باب راسبوتين من الفقراء العاديين اما الرجال الأكثر نفوذا -اللذين طلبوا موعدا مع التزار او مساعدة في الأمور المادية- فقد بلغوه عبر (ميلوكوف) او (سيمانوفيش) اللذين تعاملا مع من يبعث

بهم اليهما.

لم يعترض راسبوتين على الوجود المستمر لجواسيس الشرطة فهم يمنحونه بعضاً من الأمان، بل انه عقد صداقات مع بعضهم ودعاهم لمرافقته للكنيسة او الحمامات (ظل راسبوتين مواظبا على الذهاب للكنيسة وحضور صلاة القداس). وهو يعلم جيدا أن هؤلاء الجواسيس يمنحون بواب العمارة راتباً اسبوعياً زهيداً للتجسس عليه. وكان يضاجع احيانا الخياطة التي تسكن تحته بطابقين او مع المدلكة التي تقطن الشقة التي فوق شقته وهو يفقه أنهن من عيون الشرطة عليه. وهو لم يشعر بامتعاض من التجسس عليه فهو جزء من النظام البيروقراطي وجزء من التعنت في الرتابة الروسية. فالشرطة لم تتجسس على نشاطات راسبوتين فحسب بل تجاوزته للتجسس على التزارينا، فهي اذا ما خرجت في نزهة راقبت الشرطة خطواتها شبراً بشبر وإذا ما توقفت للتحدث مع احد معارفها أوقفت الشرطة من تحدثت اليه حال مغادرتها وسألته: «هلا أخبرتنا الذي دار بينك وبين التزارينا بالحرف والكلمة؟» فلا غرابة أن تبغض العائلة الامبراطورية الشرطة.

ظل راسبوتين يزور القيصر يومياً دون الحاجة لدعوته رسمياً. وعادة ما أضافه القيصر وزوجته فما من شيء يعكر صفو حياتهما العائلية. وقد تعود راسبوتين دخول القصر من بوابته الخلفية- فيما استعد الزوجان لاستقباله في جناحهما الخاص- ثم يشرع بالحديث اليهما بلطف وكياسة فيلفح القيصر على كتفه مازحاً ويضع في أحايين أخرى يده حول التزارينا مقبلاً اياها بحرارة. وغالبا ما يروي قصصا عن سيبيريا إذا ما حضر اليكسي واستمتعت الفتيات بلقاءات منفردة معه يمزح فيها معهن عن اهتمامهن ببعض الضباط في بطانة

التزار. وما زال يلعب دورا ولو قليلا في تعيين الوزراء لادراكه أن أغلب من يحتل المناصب الرسمية يضمر له العداء.

أقلقت مضاجع القيصر في أواخر عام ١٩١٢ وبواكير عام ١٩١٣ كثير من الأمور. فقد انتهت فترة حكم الدوما الثالثة في نهاية عام ١٩١٢ وتشكلت «الدوما» الرابعة برئاسة رودزيانكو. بيد أن القيصر- برغم رضاه ظاهرياً بوجود الدوما- ما زال يطمح أن يقوض سلطانها، ماشياً بتشجيع راسبوتين اليه في نزعته هذه، وقد تفاقمت النقمة الشعبية في أواخر عام ١٩١٢ بعد حادثة ساحة (لينا كولد) عندما فتحت الشرطة النيران على المتظاهرين العزل. فأرسل أحد قادة الحركة العمالية البارزين ويدعى (اليكسندر كيرينسكي) للتحقيق في الحادثة واكتشف ان الذي امر الشرطة باطلاق النار كان سكرانا ومعتوها. ومرة أخرى وجدت الحكومة نفسها أمام هجوم الدوما عليها وربما تمنى نيقولا عودة خوالي الأيام حين لم تكن هذه المذابح الصغيرة شيئاً يعتد به. وتوزعت المظاهرات واعمال الشغب في عموم روسيا وبلغ عدد المتظاهرين من العمال في عام ١٩١٣ حوالي ثلاثة أرباع المليون وتضاعف العدد في السنة التالية واستفاد اليساريون من هذا الوضع. وبرغم ان الإغتيالات لم تصل العدد الذي بلغته في الفترة ما بين ١٩٠٥! و ١٩٠٧ عندما اغتيل ما يربو على أربعة الاف شخص، فإن الثوار قد أصبحوا مهرة في السطو على المصارف وسرقة قطارات البريد لتمويل قضيتهم. وفي تلكم الأثناء عمت الاضطرابات دول البلقان وداعبت فكرة اغتيال الارشيدوق (فيردناند) وريث عرش النمسا مختلف الجماعات الصربية السرية أمثال جماعة (نارادنوا وبرانا) وجماعة (الكف الأسود). وعليه كانت روسيا جالسة على فوهة بركان دون أن تعلم ذلك.

لم يحرك القيصر ساكناً لتحسين الوضع الروسي. وقد احتفل بالذكرى المئوية لإندحار نابليون في ايلول من عام ١٩١٢ وجرت مراسيم احتفال بهيجة رافقتها تظاهرات وطنية. وشهد عام ١٩١٣ أعظم احتفال بمناسبة الذكرى الثلاثمائة لحكم آل رومانوف. وسافر التزار والتزاريتسا لرؤية اول منزل للرومانوفيين على نهر الفولغا واصطحبا راسبوتين معهما بيد ان هذا السلوك كان لاعقلانياً فسرعان ما تلاه تصادم علني بين راسبوتين ورودزيانكو فضح شعور الغيض والإزدراء لدى رودزيانكو لراسبوتين. كان رودزيانكو موظفا روسيا نموذجيا فخورا بموقعه وغيورا على سلطته. وقد سمع أن «الدوما» اعطيت مقاعد خلفية في احتفاليات كاتدرائية كازان بمناسبة الذكرى المئوية فطالب لمجلسه بمقاعد افضل فنال ما طلب، ووضع من أتباعه من يراقب تلك المقاعد. وبينما كان رودزيانكو ينتظر خارج الكاتدرائية جاءه رقيب وأخبره أن فلاحاً جلس على أحد المقاعد ورفض أن يتحرك عنه. وأضاف أن هذا الفلاح هو راسبوتين الذي ارتدى عباءة روسية رائعة من الحرير القرمزي وجزمة جلدية متميزة وبنطلونا اسودا ومعطفا فرويا وارتدى صليبا متدليا من سلسلة ذهبية. انتفض رودزيانكو وذهب حيث جلس راسبوتين وجأر فيه: «اذا ما خاطبتني (كما أنت) لأمسكت بلحيتك وقذفت بك خارج الكاتدرائية. ثم امره بالخروج من الكاتدرائية برغم ان راسبوتين قد أراه بطاقة دعوة من التزار شخصيا. ركع راسبوتين على ركبتيه وبدأ بالصلاة فضربه رودزيانكو بقدمه صارخا فيه: «كفّ عن هذه الرقاعات». فتأوه راسبوتين وتمتم «الهي اغفر له خطاياه» ثم غادر المكان.

لا يلوح هذا الحديث جديراً بالتصديق لشخص كرودزيانكو. فهو ملك

من الحق في دخول الكاتدرائية مثل ما ملك راسبوتين. ومن الواضح- كما جاء في كتاب رودزيانكو- أنه أراد التبجح من هذه المواجهة باعتبارها نصراً عظيماً ضد راسبوتين. وذكر عضو في «الدوما» لاحقا انه أخبر رودزيانكو أن راسبوتين قد حدثه بقصة تصادمهما واضاف: « اقول لك الحق، لقد كنت دائم الاعتقاد أن ما أخبرتني به عن قصة طردك اياه من الكنيسة كان مجرد تباهي». وتلك دلالة أن رودزيانكو كان من أهل الكذب والتبجح.

بيد أن التزار ظن في عام ١٩١٣ عاماً آخراً من الصراع والثورات. ويبدو أن نيقولا كان أعجز من أن يتعلم برغم حالة الاضطراب العالمية. وعاد يداعب أحلام اليقظة فيه ويشد السلطة المطلقة. وقد نصحه وزير الداخلية الجديد المسمى (ماكلاكوف) بالذهاب الى الدوما والقاء خطبة حماسية ثم يأمر بحلها أو بتقويض نفوذها في أقل تقدير. بيد أن مجلس وزرائه- ولحسن حظه- عارضوا الفكرة برغم كرههم للدوما بعد أن وجد فيها الأعضاء فتيلاً لثورة عارمة.

في تلك الفترة تحديداً طفق الاسم المنحوس ستورمر الى الوجود. وهو قد زكى نفسه لدى نيقولا قبل عدة سنين عندما كان الأخير في مشكلة مع الـ(زيمستفوس) اي جمعيات الأراضي. فقد فقدت جمعية منها في منطقة «تفير» ثقة التزار اثر بنائها لمستشفيات واعطائها ارشادات في الزراعة للفلاحين. حينئذ استأسد ستورمر الذي كان مجرد موظف حقير وهاجم الجمعية واقال اعضاءها واستبدلهم برجعيين عاهدوا الا يحركوا ساكناً. بعدها نجح ستورمر، الذي وصفه بيرس بـ: «رجل سطحي تجردت منه النزاهة ونزع من نفسه الشجاعة»، في التعرف على راسبوتين بواسطة (مانيلوف) واغرقه بالمديح والإطراء. اقترح نيقولا تعيين ستورمر محافظا لموسكو وأيد اقتراحه مجلس الوزراء. بيد ان

(كوكوفتسيف) الذي خبر- برغم جة عيوبه- بواطن الأذلاء من المتزلفين بمجرد لمحة بصره، عارض الإقتراح فقبل التزار موقفه على مضض ووضع نصب عينيه فكرة التخلص من كوكوفتسيف في اول فرصة مناسبة. الا نمط قيادة نيقولا للحكومة ليبرع الإنطباع أنه يتوق في لاوعيه للإنتحار.

تكمن المشكلة ان راسبوتين قد فشل في الحكم على شخصية المرء لا لأنه فقد ملكة البصيرة وانما لأنه افتقر الى الرغبة في ذلك. فاذا ما تجشم شخص مثل ستورمر عناء حتى يغدو اليه أنيساً، صدقه راسبوتين وخال في صداقته أمراً مقتضباً. وهو قد جرد ذاته من الغاية الدنيوية فآمن بالمال ثروة زائلة وأيقن في نفسه القوة التي يريد فأخذ لذلك الناس على سيمائهم. وفيه مسحة سذاجة غدت لشلتها رعباً. فبينما تدهورت الشؤون الروسية اليوم أسوأ من البارحة، ظل راسبوتين ينصح التزار باستخدام نفوذه مستغلاً تأثيره لصالح رجال مثل ستورمر، فيما وقف - لأنه مقت رجلاً شريفاً مثل رودزيانكو- معارضاً للدوما فأزاد الطين بلة. ومع اطلالة عام ١٩١٣ تلبدت السماء بغمامات الشتاء حتى حل عام ١٩١٤ فنزل الغيث.

فرجيء كوكوفتسيف بفصله من منصبه فجأة في شباط ذلك العام. اذ دخل في نقاش مع القيصر انتهى أن أعلن القيصر كعادته: «انت الصائب وانا المخطيء» ثم ضم كوكوفتسيف لصدره. لقد تخبط الجميع في أمر هذا الرجل الهائج فما استقر في يومه على رأي وما عرفوا له منفذاً لارضائه.

خلف كوكوفتسيف في منصبه الساذج (كوريمكن) الذي سبق أن تولى لفترة قليلة منصب رئيس الوزراء بعد طرد (وت) الذي ارتبط وراسبوتين

بصداقة لم تعيد له منصبه وظل هكذا حتى وارى التراب بعد عام من فصله.

ما فتأ القيصر يسعى لحل «الدوما» وظل معه مجلس وزرائه مناهضاً لهذا المسعى فيما أتجب من كره راسبوتين فكرة اغتياله لا محالة. وكان (يوسبوف) يكمل آنذاك دراسته في المانيا. وأما القس ايليودور فما برح يغلي حقدا وسلواه الإنتقام من راسبوتين.

وفي يوم من الأيام، اجابت ماريا راسبوتين على الهاتف الذي رن في منزل أبيها في كوروخوفوي. كان المتكلم رجلاً غريباً أخبرها أنه رآها في الشارع فسلبت منه في لمحة بصر لبه. لم تكن ماريا بنت الست عشرة ربيعاً آية في الجمال، غير أنها ملكت قدًّا كبيراً وعينين نابضتين بالحياة وقوام جميل، وورثت موهبة ابيها في الرقص. وكانت من السذاجة أن آمنت معها بفكرة حب رجل غريب لها وقررت عدم ابلاغ والدها بالأمر. ظل الغريب يطرق في مسامعها فكرة الحب أن وصف لها جولاتها تفصيلياً عاها تصدق أنها كانت مراقبة عن كثب ودون أن يفصح عن اسمه او شخصيته.

قرر راسبوتين في بداية حزيران من عام ١٩١٤ الذهاب لبوكروفسكو وقضاء فصل الصيف فيها فيما ذهب التزار وعائلته كعادتهم لمنطقة ليفاديا فكان هذه المرة صائباً في قراره. وحقيقة الأمر أنه قرر السفر لأن فكرة اغتياله ظلت تقلق مضجعه فما أغمض له جفن، فبدأ رحلة العودة الى الديار والتي استغرقت خمسة ايام في القطار ثم يومين آخرين في المركب من توبولسك. وفي الطريق تحدثت ماريا الى شاب يهودي من بطرسبورغ أخبرها أنه هو الغريب الذي حادثها هاتفيا. ثم تعرفا جيدا على ظهر المركب وقد وجدته لطيفا حاضر الطرفة

وصديقاً يضن به لكن عيبه شكله، فقد كان قصير القامة أسود الشعر يهودي الطلل. لقد أعيا الشاب ماريا في أمره. اذ أخبرها حين وصلوا بوكروفسكو أنه ماكث في القرية. يا لدهاء هذا الشاب، كيف يلغ دواخل صبية في السادس عشرة من عمرها.

وصل الجميع بوكروفسكو يوم السبت الموافق السابع والعشرين من حزيران عام ١٩١٤. وفي الساعة الثانية والربع من ظهيرة يوم الأحد قدم ساعي البريد ومعه برقية لراسبوتين الذي قرأها بسرعة وخرج منادياً ساعي البريد أن ينتظر ريثما يكتب ردا لها. وبينما كان يجيب على الرسالة اقتربت منه فلاحة كان قد رآها في نفس اليوم عندما ارادت مخاطبته بعد انتهائه من القداس فتوقف راسبوتين ليعطيها قطعة نقود لكنها سرعان ما تقدمت نحوه لتطعنه بالسكين في معدته(١) فهرول راسبوتين ولحقته المرأة ثم فكر ان الهجوم افضل وسيلة للدفاع فامسك بقطعة خشب كانت ملقاة على قارعة الطريق وضربها على رأسها ثم عاد لمنزله مثقل الخطى نازفاً دماً ونادى على الخدم بصوته الجهوري. وفي تلكم الأثناء شاهد الجيران محاولة الإغتيال وأمسكوا بالمرأة التي بدأت تستعيد وعيها وسحبوها لمنزل راسبوتين وهي تصرخ: «قد قتلت عدو المسيح». خرجت ماريا ورأت الفلاحين وعلائم الغضب على وجوههم يسحبون مخلوقة ضعيفة ذات انف كبير مشوه وهي تجاهد في التخلص من قبضتهم. كان اسمها (كبيا كوسيفا) وقد وصفها ليمان انها كانت «امرأة جميلة». حينئذ رأت ماريا المراسل الصحفي اليهودي المسمى (ديفيدسون) وصرخت في وجهه فانطلق بسرعة ليبرق

(١) يذكر بيرس تاريخاً للطعن وهو التاسع والعشرين من حزيران بيد أن ماريا تذكر أن التاريخ كان يوم الأحد الموافق ٢٨ حزيران.

الأخبار لجريدته في بطرسبورغ وتلك هي المرة الأخيرة التي شاهدته فيها ماريا.

استوقفت كوسيفا ولاقى راسبوتين عناء في الابقاء عليها من الموت قبلما دخل هو مستشفى (تيومين). لقد كان جرحه بليغاً فقد فتحت الطعنة احشائه لكنه أبى الموت وعلم في المستشفى ان كوسيفا أحدى عملاء ايليودور وانها التقت توا قبيل طعنها اياه بالقس المخلوع في الترويج. ووصف يرمي كوسيفا بـ: «ضحية هستيرية لشبق راسبوتين». وهو وصف لا يبدو عادلاً فراسبوتين لم يرها من قبل. ومع ذلك تراه توسط حتى لا تحاكم المرأة سيما وقد علم أنها مجنونة وسجنت في ملجأ. اما دور ديفيدسون فقد ظل مجهولاً.

واذ أصاب الخنجر راسبوتين في بوكروفسكو، ثمة ضحية أخرى كانت تنتظر رصاصة قاتلها. كان القاتل (كافريلو برنسيب) وهو شاب بوسني رفض الإحتلال النمساوي لبوسنيا اما ضحيته فهي الأرشيدوق (فرديناند) ووريث العرش النمساوي الذي اساء اختيار اليوم الذي يزور فيه سارايفو لانه كان يوم (فيدوفدان) ذكرى الإندحار الصربي العظيم والذي كان عطلة رسمية. ادرك فرديناند ساعة موته وقال لمعلم اطفاله: «اني أرى الرصاصة التي ستقتلني في طريقها الي». وبعد العاشرة من صباح ذلك اليوم القيت قنبلة من صنع محلي على العربة الدوقية الكبيرة فجرحت العديد من المتفرجين وتركت فرديناند وزوجته دون أذى. وقد حاول مخطط المحاولة المدعو (شابرينوفيتش) الانتحار بالسيانيد لكنهم القوا القبض عليه. ثم حضر الغراندوق وزوجته مهرجانا في قاعة المدينة وغادرا المكان بعد نصف ساعة وبينما أوشكا أن يستقلا سيارتهما فاجأهما مصور فقال فيرديناند لدوقته: «يخامرني شعور أن مزيداً من القنابل موجودة بجواري». وقد صدق في احساسه. فقد كان (كافريلو برنسيب) الطالب الشاب

المسلول يحمل قنبلة ومسدس من ماركة براونتج بست رصاصات بيد انه اوشك على فقدان فرصة الإغتيال فحينما اقتربت السيارة منه استعد للإطلاق لكنها استدارت لتدخل شارع فرانز جوزيف.

ان التاريخ الحديث على كف عفريت حيث صرخ شخص ما وامر السيارات بالوقوف فالطريق في حيز التعديل. وعندما تراجعت سيارة الدوق تقدم برنسيب واطلق رصاصتين أحسن فيهما رماية. اذ أصابت احداهما الدوقة واستقرت الأخرى في جسد الدوق. القي بعدها القبض على برنسيب.

تقع سارايفو على بعد خمسين درجة في خطوط الطول من بوكروفسكو، وهذا يعني أن الساعة الحادية عشر في سارايفو هي حوالي الساعة الثانية والربع في بوكروفسكو. وانها لمصادفة عجيبة أن يشهد التاريخ محاولتين للإغتيال في اللحظة ذاتها تقريبا وهي مصادفة تجعل المرء ميالا للشك «بمعنى التاريخ»، فموت فيردناند قد جعل الحرب وشيكة الوقوع وجرح راسبوتين جعل وقوعها حتميا فهو الرجل الوحيد في روسيا القادر على تفادي وقوعها.[1]

توالت الأحداث سريعاً وراسبوتين راقد في المستشفى. فثار الحقد الصربية- النمساوية ظلت تعتمل منذ ١٩٠٨، واليوم قد ساور الشك النمسا- وكانت محقة- ان صربيا وراء الاغتيال ووريث عرشها وارسلت اليها تطلب فيه تنازل كبيرا يتضمن وجوب سماح صربيا لموظفي النمسا باستجواب موظفي صربيا حول عملية الإغتيال. غير أن صربيا أعرضت عن التنازل فأعلنت

(١) لا أعتقد أن أحداً أمرأ غير مؤلف هذا الكتاب قد أشار لتلك المصادفة.

النمسا الحرب. تخبط القيصر ماذا عساه أن يفعل. فصريح الأمر أنه سيهب لنجدة صربيا وهنا لن تقف ألمانيا مكتوفة الأيدي وستنهض لمساعدة النمسا. ثم توصل لتسوية وامر بالنفير الجزئي. وتلك هي اللحظة التي كان سينقذ فيها وجود راسبوتين الموقف فقد أكثر القول أن دول البلقان لا تستحق القتال عنها. لكن الحرب تمثل اهانة لروسيا برغم كل شيء فدول البلقان تقع بينها وبين النمسا ومن الواجب ان تبقى دول مستقلة. أما النمسا فأرادت أن تجرب حظها ثانية مستذكرة يوم خدع رجل دولتها (اهرينثال)- وهو سياسي انتهازي من نوع بسمارك- روسيا عام ١٩٠٨. ومذ حينها ما برحت روسيا تداوي جرحها وتترقب ساعة الانتقام. وما غزو صربيا اليوم بأقل اهانة عن سابقه وهو كصفعة على الخد. لكن الأسوأ منه أن ألمانيا أخذت تعد العدة لمساعدة النمسا وأمرت روسيا أن تستوقف تحركها فوراً. وبرغم كل هذا الضجيج لم يتوقع أحد اندلاع حرب لأن أحداً ما كان راغباً فيها. حينئذ حاولت صربيا تفادي الحرب أن قدمت رداً ودياً للنمسا تقترح فيه (تسوية) فيما قدمت روسيا في محاولتها تفادي نشوب الحرب اقتراحاً بعرض المشكلة برمتها الى (المحكمة المقدسة) للبت فيها. ذهب المقترح أدراج الرياح وقصفت النمسا مدينة (بلغراد) عاصمة صربيا وسمع الروس شائعة أن النمسا أعلنت حالة النفير وأمرت بالتعبئة العامة فأمر القيصر في الحال اتخاذ نفس الاجراء.

كان راسبوتين راقدا في المستشفى حين بلغته أنباء النفير فارسل في حالها برقية للقيصر يترجاه فيها تجنب حالة الحرب. استشاط القيصر غضباً وهو يقرأ التماس راسبوتين. فروسيا برمتها متعطشة للدماء وتعالت صيحات الغضب التي عبرت عن الوطنية المحمومة وهتفت الدوما هي الأخرى داعية للحرب. ولو

حدث أن عارض راسبوتين والقيصر الحرب لبات كلاهما أقل رجالات روسيا شعبية، ولكنهما كانا سيتفاديان ثورة ١٩١٧ من جهة أخرى.

اعلنت المانيا الحرب على روسيا أولاً واصبح نيقولا لأول مرة طيلة فترة حكمه الرجل المعبود في عموم روسيا وقد استمتع بهذه الشعبية المفاجئة حتى وصفه المعلم (كيليارد) بانه كان اشبه برجل غير التزار.

ارسلت المانيا انذارا هي الأخرى لفرنسا وبلجيكا وقد كان الإنذار الموجه لفرنسا مهينا كالانذار لروسيا أصر معه (ويلهلم) على الحرب. وعندما دخلت القوات الألمانية اراضي بلجيكا دخلت بريطانيا الحرب دفاعاً عن حيادية بلجيكا. ثم اعلنت اليابان الحرب على المانيا وبعدها انضمت ايطاليا لجانب «الحلفاء». ومع اطلالة شهر آب- وراسبوتين لما يزل يداوي جرحه- كان نصف العالم قد دخل أوار الحرب.

الفصل التاسع

«امطار من نار»

كانت روسيا أقل استعداداً لخوض غمار حرب ١٩١٤ من حال انكلترا عام ١٩٣٩. أما رئيس وزرائها غير الكفء والمبهم الشخصية (كوريمكن) البالغ من العمر اربع وسبعين عاماً فقد ظن في الوزراء (خدم) القيصر، فيما ظن وزير الداخلية (ماكلاكوف) أن أي مسعىً لحرب قومية سيضاعف من امكانية حدوث ثورة. لقد عجت روسيا بالرجال لكنها افتقرت لكثرة السلاح، وخلافاً للاعتقاد العام فان كثرة الرجال ونقص السلاح يمثل عائقاً ايجابياً ضد المسعى الداعي للحرب. وقد توجب على المجند الروسي أن يقطع أصقاع بعيدة حتى يصل وحدته. وهي لم تملك الا قلة من الطائرات الحربية وعانت نقصاً من المدفعية الثقيلة والذخيرة، والاتصالات بين الوحدات والقيادة كانت غاية في السوء وتمت عبر هواتف ولاسلكيات قليلة وتحتم على جمعية الصليب الأحمر المساعدة في النقل. فبات لديها بحلول تشرين الاول من عام ١٩١٤ ما يربو على المليون مقاتل بلا بنادق.

ومع هذا تجلى الآن ان بعض مشاكل السنوات العشر الماضية كانت نعماً لواقع اليوم. فقد ولدت كوارث الحرب اليابانية اصلاحات في الجيش سيما سلاح البحرية. وأمسكت روسيا في الشهور الأولى من الحرب جبهتها على نحو

مشير. ثم توالت بعض من الاندحارات الرهيبة في آب وايلول مثل معركة (زاموسك -كوماروف) ومعركة (تاننبيرج) التي انتحر بعدها الجنرال الروسي (سامسونوف) وتم اسر مئات الآلاف من الروسيين. من جهة اخرى هزم الروس القوات النمساوية في معركة (لامبيرج) واجبروها على التنازل عن (كاليسيا) الشرقية.

لما يزل الحال في حيص بيص. فقد غير الروس- في محاولتهم بلوغ الوطنية- اسم مدينة القديس بطرسبورغ الى (بيتروجراد) وقد كان لاسمها القديم الكثير من الصفات المشتركة مع بطرس الكبير- المناصر لألمانيا. لكن هذه الايماءة كانت الى حد ما نموذجية للمثالية المشوشة التي تقف وراء الجهد الحربي الروسي. وهكذا قرر القيصر الذهاب للجبهة وتولي زمام القيادة هناك بنفسه. هنا جاهد وزراؤه لثنيه عن عزمه وارسال بدلاً عنه الغراندوق نيقولا- أول من ناصر راسبوتين ثم ندم لفعله بجلب راسبوتين للبلاط القيصري وبات عدواً له-. واتخذ الثوار قراراً يقضي بتحريم بيع الفودكا لانها تحدث السكر وتجهض على المجهود الحربي وكم كان عظيماً الحماس الوطني فما اعترض أحد على القرار واستمر «التحريم» عاماً تقريباً.

وبرغم ذلك فشلت الروح الوطنية في ولوج دواخل ذوي السطوة في البلاد. فذاك وزير الحرب الجنرال التقليدي (سوخو ميلنوف) الذي وصفه الن مورهيد بـ«العسكري المتحجر» يتفاخر أنه لم يقرأ أصغر كتاب عسكري منذ خمس وعشرين عاما وأن ما يعتمد عليه هو الطعن بالحراب. وتلك هي زوجته اليهودية الحسناء -التي تصغره باعوام عديدة- لا تكترث لأمر غير البذخ وما كان من زوجها الجنرال الا أن يجد طرائق للايفاء لها حتى قبل أن أحدها بيع بلاده للألمان

والأخرى اختلاس الأموال المخصصة لشراء الأسلحة.

بيد أن التعصب الرجعي هيكل عقول النخبة الممتازة وغير الخائنة من الوزراء فتراءى لهم الفلاح الروسي وبسبب حماسهم الوطني مصدر قلق لا موطن حماية وتطلعوا صوب الجندي الروسي فخالوه متهماً فحرموه من الأكل في المطاعم العامة ومنعوه من الركوب في الحافلات وسلبوه حقه في قراءة الصحف دون إذن من آمره. وما كان يستطيع أن يجيب على سؤال ما بـ: «لا اعرف» بل عليه القول: «لا استطيع ان اعرف» فطالما هو فلاح فهو «لا يستطيع ان يعرف».

سار الرجال زرافات زرافات صوب منيتهم وخاضوا غمارات معارك ما كان النصر نصيبها فلاقى المنية منهم اربعة ملايين في خمسة شهور فحسب. وذاك لم يكن خطأ القائد نيقولا، فقد كبّل يديه الفرنسيون الذين سرعان ما اجتاحهم الألمان. بل هو لم يكن مستعدا ليقاتل وهجوماته الخاطئة في بروسيا الشرقية وبولندا وكاليسيا قد كان نصيبها الفشل مسبقاً. وما ان حل عام ١٩١٥ حتى عاشت روسيا اندحاراً كاملاً.

تلكم هي الأوضاع التي واجهها راسبوتين لدى عودته الى بيتروجراد(١) في ايلول من عام ١٩١٤. فالقيصر غاضب عليه من برقيته التي ترجاه فيها اطفاء جمرة الحرب. وقد لاحظ الجميع ان نيقولا قد اضحى رجلا جديدا مذ نشبت الحرب. بيد ان التزارينا لم تلمس حاجتها الشديدة لـ«صديقها وناصحها». فهي للمانية المولد وغلب على الساحة الرأي أنها في صف الألمان، وهو افتراض لم يكن سليماً برمته. وقد سرت طرفة عن التزارفيتش تقول على لسانه: «الست ادري

(١) غيرّ الاسم في الحادي والثلاثين من آب ١٩١٤.

من يجب ان اساند فاذا ما خسر الروس الحرب فجهم وجه أي ولو خسرها الألمان مستكي ماماه. لقد اضحت التزارينا شديدة العصبية ووجدت أن من المستحيل عليها الظهور للعامة وهنا أشار السفير الفرنسي الى سلوكها في مأدبة عامة كان جد متزمت وانها اشرفت على نوبة من نوباتها الهستيرية قبيل نهاية المأدبة.

وقف راسبوتين- كصديقه وت- مناهضاً عنيداً للحرب وحامت حولهما الشكوك أنهما جاسوسان للألمان . ثم مات وت في آذار من عام ١٩١٥ تاركا وراءه راسبوتين يحمل على عاتقه وحيداً لقب اقل الرجال شعبية في روسيا، ومكابداً الرأي السائد عنه أنه جاسوس للألمان. لم يكن الهوس الروسي من التجسس محض أوهام فقد اكتشف أن أحد العقداء واسمه (مياسويدوف) وهو صديق لوزير الحرب (سوخوميلنوف) يعمل عميلاً للألمان واعدموه لذلك. وشاع القيل والقال أنه كان عشيقاً لزوجة سوخوميلنوف. كما اتضح أيضاً أن بعض اليهود يناصرون الألمان الأمر الذي أفضى الى الشروع بحملات ابادة واسعة النطاق شملت جميع اليهود في روسيا وبولندا وهرب الالاف منهم خارج بولندا وهاموا في الأراضي الروسية ومات أغلبهم بسبب الجوع والطبيعة.

وفي خضم هذه الأحداث عاد التزار ثانية ليكون الحاكم المطلق في روسيا، فقد منع «الدوما» من الاجتماع وسجن ستة من النواب البلشفيين وكان سادسهم (مالينوفسكي) جاسوسا شرطيا برغم أن الغالبية قد وثقت به واحبته ومن بينهم لينين نفسه. ولأول مرة منذ عشر سنين لم يعترض احد على تسلط التزار وبطانته فالجميع قد عاش قلق الحرب ونسي تذمره من سلطان القيصر، وظل الحال هكذا حتى انقلب عاليه سافله بعد تسرب أنباء الجبهة المشؤومة فتبخر الحماس الوطني وعاد التمرد القديم ليشق الى جموع الشعب.

آنذاك استقطب راسبوتين مشاعر التزارينا التي شعرت بنفسها تائهة الطريق ومسادة الفهم تبحث عن صديق فاستسلمت لعبق نفوذه الأخاذ. وسرت اشاعات أن راسبوتين قد نومها مغناطيسياً (دارت قصة تحكي أن راسبوتين بدأ عام ١٩١٣ يتلقى دروساً في التنويم المغناطيسي من خبير في هذا الاختصاص لكن (بيليتسكي) طرد الخبير من بطرسبورغ). وربما تكمن الحقيقة أن التزارينا بدأت تفتقد قرب زوجها منها والذي كان يستدفيء بشعبيته مع رعيته ولا يكترث لأمر غير الحرب، لذلك أضحى راسبوتين لفترة من الزمن وعاء ضم كل مشاعرها العميقة. وفي مستهل عام١٩١٥ بدأ اسم راسبوتين عند التزار يأفل نجمه بعد أن بزغ مع نهاية عام ١٩١٤ . وكنّ له رئيس الشرطة الجديد الجنرال (دزهانوفسكي) شديد الحقد وسعى (للنيل منه)، وشرع يهمس في اذني القيصر بعض نشاطات راسبوتين سيما حفلاته الصاخبة في (فيلا رود) عندما يغلبه فيها السكر فيتحدث عن القيصر بلا توقير وكأنه يتحدث عن روسي من أبناء العامة، ويصل به الأمر أحياناً خلع ملابسه. وهكذا فقد مرطيء قدمه في القصر مع حلول عام ١٩١٥ واضطرت معه التزارينا للقاءه سراً في منزل آنا فيروبوف الصغير بالقرب من القصر في تزاريسكو سيلو.

في الخامس عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩١٥ توجهت آنا الى بيتروجراد لزيارة والديها. وفي الطريق تعرضت لحادثة اصطدم فيها القطار الذي كانت تستقله بآخر نجم عنه تحطم عدد من العربات واصابة آنا بجروح خطيرة. فقد انحشر ساقاها في جهاز التدفئة البخاري واصطدم رأسها بعارضة حديدية. ثم اخرجوها وحملوها على باب مخلوع. وادخلتها التزارينا لمستشفى تملكه طبية تدعى الاميرة(كيوادرتيز) التي قطعت حتى بصيص أمل في انقاذ حياتها (اعتقدت

آنا أن الاميرة كانت تنوي قتلها وقد أصابت في ظنها فالاميرة تعيش خلف الكواليس). لم يسمع راسبوتين بالحادث الا بعد مرور يوم كامل فاستعار سيارة وانطلق مسرعا للقصر حيث ترقد آنا فيروبوف فاقدة الوعي برغم أنها رددت بين الحين والآخر وهي تهذي عبارة «الأب كريكوري». دخل راسبوتين الغرفة متجاهلا التزار والتزارينا اللذين كانا بجوار سرير المريضة وأمسك بيدها قائلا: «انوشكا انظري الي» ففتحت عينيها وقالت: «كريكوري حمدا لله» ظل راسبوتين ماسكاً يديها بعض الوقت ونظر اليها ثم قال للتزار: «سوف تعيش لكنها ستكون مشلولة». ثم خرج من الغرفة لكن المجهود أعياه والتعب اضناه فتعثر وخر مغمياً عليه خارج الغرفة، فيا أخلت آنا تستعيد عافيتها بعد زيارة راسبوتين.

ان أشد عناصر القصة تشويقاً هو- دون ريب- سقوط راسبوتين مغمياً عليه. وقد شهدت صحة الواقعة آنا بنفسها وموسولوف رئيس البلاط بقولها: «نودل في مشيه داخل الغرفة وترنح خارجها وسقط مغشياً عليه ثم استفاق متعرقاً وشعر أن ما اوتي من قوة قد أخذت منه». ومن ذلك يتضح أن ما حدث ليس إلا مثالا اخرا على قدرة راسبوتين على العلاج ومثالنا هذا يجسد أنه تخلى من حيويته لإعادة شحن فعاليتها. وحقيقة الأمر أن آنا كانت تصارع الموت حين رآها راسبوتين وقالت فيها الطبيبة الامبراطورية للتزار وزوجته أنها في عداد الموتى وطلبت منهما القاء نظرة الوداع عليها وكل هذا كان قائماً قبل وصول راسبوتين وعليه فان جهد اعادة (احيائها) قد كلف راسبوتين طاقة لم يستنزفها من قبل. من جهة اخرى لا يبدو ممكناً أن راسبوتين قد قلل من قواه الروحية في العربدات التي وصفها عنه دزهانكوفسكي.

وحتى لو صح القول، فان في الحادثة لمحة لأهم جانب من حياة راسبوتين. اننا ونحن نقرأ سير الأحداث الجموح صوب الكارثة- سيما غرابة المصادفة بين اغتيال راسبوتين واغتيال الارشيدوق فيردناند- نكتشف صعوبة الا نتلمس ابطال الرواية بغير دمى كارتونية ومن أن وجهة النظر الماركسية للتاريخ على أنه القوة الحقيقية وراء قضايا الإنسان هي وجهة النظر الصحيحة. لكن راسبوتين عاش في بعض زمنه- في بعد آخر من التاريخ- وفيه يقبع سر نفوذه وسطوته على التزار والتزارينا. كما يبدو أن (الماهية) الخداعة التي تكبل اغلب بني البسيطة قد انتقلت عند راسبوتين.

هذه النقطة تستحق منا الاسهاب في الشرح قبل الحديث في غيرها. يحتفظ أبناء المعمورة لنفسهم بنوع من التوازن بين العالم أي الطبيعة الخارجية وبين الإرادة. وان الهدف المادي خاضع بالتمام لقوانين الطبيعة: فليس بوسع ورقة الشجر ان تقرر بارادتها السقوط او البقاء معلقة على الشجرة، وكثير من الحيوانات سلبية الإرادة في الإختيار فهي تتكيف للطبيعة فحسب، ويبقى الإنسان المخلوق الوحيد المادي بفعاليته للطبيعة والساعي دوماً الى التفوق عليها بدلاً من الخضوع اليها.

بيد أن عادة السلبية تظل مغروسة في الانسان برغم ادراكه انه قادر أن يهزم الظلام بمجرد الضغط على زر الانارة. فهو لا يكف عن الشعور باحترامه للطبيعة وخوفه منها ومن الواقع الخارجي فجزء من وجوده لما يزل يرى الطبيعة الحاكم المطلق والسيد المطاع. ويذهب الشعراء والفنانون ابعد من ذلك فيحلمون بهزيمة نكراء للطبيعة وفوز ساحق لروح الانسان. وبرغم ذلك يستوقف معظم الشعراء هذا الاحساس المعادي للطبيعة- وخصوصاً في منتصف العمر- ويبدأون

التكيف معها. بيد أن روح الذين يرمتها- روح القديسين والانبياء الملهمة- هي اعتقاد بقوى الروح المطلقة والانسان العادي يستخدم ارادته (دستوريا) آخذاً في الاعتبار قوانين الطبيعة. وهذا يعني انه لو واجه مصاعباً ولو رافقه سوء الطالع الذي يبدو (قضاء وقدراً) أو من عمل الصدفة لاكتنفه القنوط وشعر أنه ضعيف الحيلة وسلبياً وأنه لم يأل جهداً حتى يركب الصعاب. ها هنا قد عجزت الروح لأي فعل وشلت الارادة.

وأما رجل مثل راسبوتين فسيخطو أبعد من ذلك. وعظماء القديسين وحدهم الأقدر على تحدي القدر. فذاك يشتهرون بضرب بقبضته على دوي الصمم، حتى تلوح الروح كأنها الفائزة بشجاعتها ومثابرتها وان كانت الطبيعة أقوى منها. ويفقه راسبوتين غريزياً ان لا مكانة للهزيمة والارادة فاعلة حتى وان كانت المواجهة للأمر الواقع من جانب الطبيعة. ولسبب ما، لم يكن راسبوتين سلبياً كبني البشر فهو وبدلاً من أن ينهار في حالة هزيمة، انتفضت حيويته لتواجه الطوارئ».

لقد وصف العديد من الشعراء هذه الحالة من اليقظة في الفاعلية على انها نقيض السلبية تجاه الحياة. وهي على الدوام ضرب من الاستيقاظ من النوم، ويرمز وليام بليك لسلبية الإنسان وخصله الحيوانية بـ (الهولة) فيقول:-

كلنا يقبع في طاقة هولة

حتى تدنو الساعة

ساعة تستفيق انسانيته

ويلقي بالهولة في البحيرة

ويصف «ييتس» الشعور ذاته على مستوى آخر: «عندما يصارع الإنسان الجنون»:-

من عينين مكفوفتين

ينهمر شيء

يكمل بعض عقله

ويستوقف لوهلة

على هنيه

يضحك عالياً

وقلبه في وئام

وهذا هو ما يعنيه غارجيف في «الصراع ضد النوم»

وتتبنى السيدة ابدي -التي وصفناها سابقا- النظرية القائلة أن الإنسان لم يبلغ بعد هيمنته المطلقة على الطبيعة طالما هو يمتلك موقفاً غريزياً من اللاثقة دوماً ما يشل قواه. وهو في ذلك اشبه بصاحب كلب هلوع لا يستطيع السيطرة عليه لأنه دائم الخوف منه.

ان راسبوتين وبرغم كل ما قيل ضده ليمتلك هذا التفاؤل الغريزي والثقة الفطرية والادراك لقوة الروح. فبات قادراً أن يرى روسيا تنحدر قدريا نحو الكارثة بيد انه لم يستطع قط ان يصبح قدريا لان في هذا شيء من اللاوعي

للذاتية الانسان الغريبة. لقد وصفت التزارينا علاجه لأنا بالمعجزة. لكنه ليس بمعجزة إذا ما تقبلنا كلمات (فيليس كوبيمي) بل هي مجرد استثمار لقانون الطبيعة. غير أن العائلة الملكية التي ولدت قدرية قد وجدت العلاج ولا ريب معجزة.

لقد تعددت طرائق وصف الحادثة الفعلية التي نجم عنها اللااكتراث المؤقت من جانب التزار حيال راسبوتين اواخر عام ١٩١٥ ويقول بيرس أن: «اقل توضيح هجومي نستطيع اختياره... ما هو الأذى الذي الحقه بسعادة التزار؟». لقد أضيفت الحادثة في الواقع خصلة حسنة على شهرة راسبوتين فيما وصف تقرير الشرطة الحادثة[١] بما يلي:-

في التاسع من آب من عام ١٩١٥ غادر راسبوتين بعد زيارته لدير في (تيومين) على متن سفينة بخارية تدعى (توفاريار) التي بدأت رحلتها في الساعة الحادية عشر صوب بوكروفسكو.

وقرابة الساعة الواحدة ترك راسبوتين مقصورته مخمورا وعقد صداقات مع بعض العساكر الموجودين على ظهر السفينة. واعطاهم خمس وعشرين روبية وامرهم بالغناء. ثم قفل عائدا لمقصورته وبعدها عاد للقاء العساكر واعطاهم مائة روبية أخرى، فغنوا جميعا. ودعاهم لتناول العشاء في صالة الطعام من الدرجة الثانية لكن القبطان امرهم بالخروج. كما تشاجر مع بعض المسافرين واغلق على سيدة طريق العودة لمقصورتها. ثم ظهر على ظهر السفينة وتشاجر مع رجل من تيومين ومع التاجر (ميشالوف) من تيومين. وتفوه بالبذيء من

(١) عرض (كارل جيبان) الوثائق الأصلية القانونية المتعلقة بمقتل راسبوتين للبيع (لايزيك ١٩٢٩).

الكلمات عن (بارنابي) اسقف توبولسك. تنازع بعدها مع احد المضيفين مخاطباً اياه بالسارق البذيء، ومتهما اياه بسرقة ثلاثة آلاف روبية. ثم عاد لمقصورته ونظر من نافذته الى سطح السفينة. وهنا صرخ بعض المسافرين الناقمين: «قصوا لحيته... احلقوا ذقنه». وطلب منه احد المخبرين أن يقفل نافذته لتجنب اية حوادث اخرى. وعندما وصلت السفينة ميناء بوكروفسكو[١] سحبه وهو في غمرة سكره اربعة نجارين واستقبلته بناته واخذنه في كلية الى البيت.

هذه هي «الحادثة المريعة» التي لم يوافق على صحتها العديد من الكتاب. ولا نستطيع فهم السبب فراسبوتين مقت الطريقة التي عومل فيها الجنود كحيوانات ذليلة ويبدو مصدر الحادثة بأكملها استهجانه للطريقة التي عامل فيها قبطان السفينة ومسافرو الدرجة الأولى وتعاليهم على الرجال الذائدين عن حياض روسيا.

لقد أحسن راسبوتين دفاعاً عن نفسه. اذ قال أنه ما كان مخموراً وأن المسافرين قد أهاجوا شيطانه بنظرتهم الاستعلائية لمن يذود عنهم وقال محتجاً أن القبطان قد خبر هويته وأنه اتخذ منه موقف المضاد لآرائه (راسبوتين) المناهضة للحرب، وهي آراء علمتها روسيا من قاصيها الى دانيها (وقد اشرنا سابقا ان غالبية روسيا ظنت براسبوتين والتزارينا جاسوسين للألمان).

طرقت الحادثة العبثية مسامع القيصر ودار القول حول اعدام راسبوتين بغير اية تهمة جلية. وثمة حادثة مشابهة أخرى وقعت داخل قارب نهري لا

(١) عربة تجرها الكلاب.

نعرف عنها شيئاً سوى أن راسبوتين كان سكراناً. وقد حاولت الشرطة ابتزاز بهائين الحادثين أن يقوم بجولة طويلة الايام بين الأديره لكن «التساريتزه غلبهم بمكر» واتهمهم بتقديم الأدلة ضده لأنا فيروبوف ثم رفض أن يتزحزح عن موقفه قيد أنملة.

ترك (احياء) راسبوتين لآنا فيروبوف أثراً لدى القيصر لا يقل بمثقال ذرة عن ذلك الذي زرعه في شفاء ابنه على يد راسبوتين عام ١٩١٢. فهو قد تجاهل رعيته وشاطر زوجته رأيها أن راسبوتين يمتلك قوىً غير طبيعية. وهكذا عاد في غضون أشهر قلائل للحظوة الملكية برغم أنه عارض الحرب جهاراً.

بعد اربعة ايام على حادثة آنا فيروبوف، مضى راسبوتين ماشيا على الثلوج القاسية لكامينّز -اوستروفسكي حينها سمع صوت حوافر حصان يقترب منه فاستدار حذرا وقفز بعيداً. فقد اندفعت مزلجة وضربته فتعثر، ثم سقطت المزلجة وهرع رجال الشرطة الذين كانوا قريبين منه - كعادتهم- وسحبوا عدة رجال كانوا على المزلجة. (ولم يحدد (باليولوج) الذي روى الحادثة عدد الرجال الذين كانوا فيها). واعترف الرجال في التحقيق أنهم قدموا من الـ (تزاريتسين) وهي قلعة ايليودور. بيد أن أحداً لم يكشف ان كان عملهم تنفيذا لأوامر ايليودور أم أنهم أرادوا بمحض ارادتهم الإيقاع بالرجل الذي سبب طرد وابعاد ايليودور.

وهذه قضية نتوقع أن يأخذها المعنيون آنذاك على محمل الجد. انها محاولة اغتيال جلية ذات دليل ظرفي دامغ له اعتباره واهميته. لكن أحداً لم يسمع اكثر مما قلنا وقد نفترض ان الرجال قد أطلق سراحهم «لعدم كفاية الأدلة». وربما

تمتم دزهانكوفسكي: «المنى حظاً احسن في المرة القادمة» واستأنف كتابة تقريره عن (سلوك راسبوتين المشين) على متن القارب النهري. فالمحاولة- في رأيه- مجرد عمل عشوائي حدث في بيتروجراد طالما أن راسبوتين مقرب التزارينا.

كانت التزارينا نفسها تستمتع بتجربة جديدة ألا وهي شعبيتها مع القوات المسلحة. لذلك قررت الشروع ببناء مستشفيات للجرحى- ربما استجابة لنصيحة راسبوتين-.

واندفعت طوع هذا العمل الإنساني بكل ما اوتيت من طاقة عصبية فافتتحت مستشفيات في عموم روسيا بما فيها تزارسكو سيلو وساعدت على تجهيز الكثير من المستشفيات في القطارات التي تحمل اسمها. ثم تدربت على العمل كممرضة تحت اشراف الاميرة (كوادريتز) واصرت على تعليم آنا فيروبوف وابنتيها مهنة التمريض ايضا. كانت آنا تلميذة جيدة وهذا قد يفسر العداء الذي تكنه لها الدكتورة كوادريتز. بيد ان حادثتها انهت مبكراً مشوارها القصير في مهنة التمريض، فيما ملأت التزارينا وابنتيها التزارسكو سيلو بالجنود الجرحى واعتنين بهم بنوع من الاخلاص الماسوشيني. وأما الأميرات فقد وجدن العمل بمشقته أفضل لهن حالاً من القنوط الذي اكتنفهن من خياطة مفارش الشاي في القصر. كان مجتمع بيتروجراد ميالا لنقد فعاليات ونشاطات التزارينا، وكتب مؤلف رواية «سقوط الرومانوفيين» (وهو امرأة على الأغلب) قائلا: «حتى وهي ملاكا للرحمة فشلت في تقمص شعور الجندي بصفتها امبراطورة روسيا. لقد صفعه رؤيتها راكعة امامه تغسل قدميه او تضمد جراحه...» وربما ارادت أن تتجاوز الدور الذي تلعبه، بيد أن بعض مذكرات معاصريها ذكرت أن الجنود لم يكونوا بهذا القدر من الاستياء كما زعمت السيدة المجهولة

الاسم. ويقال ان ضابطا محتضرا تماسك بارادته الإعجازية حتى تأتيه التزارينا وتبارك موته. لقد وهبها هذا السلوك هالة رومانطيقيه في عيون الجند اللذين لم يروا قبل هذا إلا صورا لها وهي صبية جميلة وحزينة في سن العشرين وما ظنوا يوماً أنها ستغدو عقيلة عطوفة تعاني من عذاب اعصابها ومن مس الإضطهاد.

توفي وت في آذار وذهب القيصر لتفتيش الجبهة بعد ان باركه راسبوتين الذي فكر أن يرافقه حيث ذهب لكن الغراندوق نيقولا قتل الفكرة في مهدها وصرح أنه لقاتل راسبوتين على مرأى الجميع لو ذهب هناك. وقد ذكر راسبوتين في دفتر يومياته أن رجلين ما زالا يقفان حجر عثرة في طريقه عليه الاطاحة بهما، وهما الغراندوق ورئيس الشرطة دزهانكوفسكي.

وسرعان ما واتته فرصة التخلص من الرجل الثاني. فبينما كان التزار في الجبهة، وقعت بضع حوادث صغيرة اخرى سارع في تهويلها اعداء راسبوتين لفضائح كبيرة. وفي الثامن من نيسان سافر راسبوتين لموسكو لزيارة قبور البطارقة. وكتب بيرس: «يبدو ان الصلاة لديه كانت عظيمة الشأن وربما أحس في صلواته حسنة. وعلى اية حال فقد زار احد اشهر اماكن التسلية سيئة الصيت ويدعى، يار..». وما حدث هناك لم يتأكد لأحد. اذ تزعم الشرطة في تقريرها أنه فتح ازرار ملابسه الداخليه وعرض اعضاءه التناسلية على العامة. بيد ان بروس اوخارت يقول في «مذكرات عميل انكليزي» أن راسبوتين دخل مهجعاً خاصاً ارتفعت منه بعض الأصوات المزعجة وأصوات نسوة يتصايحن. فان كان راسبوتين خالعاً نصف ملابسه، فان قصده لم يكن الإستعراض غير المحتشم بل هو صيغة طبيعية للممارسة الجنسية. استدعى المدير الشرطة التي لم تشأ أن تقحم نفسها فيما لا طاقة لها عليه فاتصلت هاتفيا بمديرها الذي اتصل هو الآخر

بدزهانكوفسكي في بتروجراد والذي امرهم باعتقال راسبوتين. وقد اقتيد لاعناً ومتذمرا بينما حاولت الشرطة تهدئته في مركز الشرطة المحلي حتى بفرج الصباح. وورد في تقرير الشرطة أن راسبوتين لم يكن جالسا وملابسه الداخلية مفتوحة فحسب،بل انه اعلن أن هذا هو سلوكه في حضرة العائلة الإمبراطورية ايضاً.

وفي شهر حزيران- ابان عودة نيقولا- تم استدعاء راسبوتين للمثول أمام القيصر الذي كان جد غاضب منه. حاول راسبوتين نهج سلوكه (المرائي) وقال صراحة انه رجل آثم وهو قول لأشد وطأة -على حد اعتقاد بيرس- على الروسي من اي رجل انكليزي. لم تعلم التزارينا بالحادثة. بيد ان دزرهانكوفسكي تساءل في امكانية استغلال الحادثة لإسقاط راسبوتين. ولكن سبق السيف العذل فقد طرح راسبوتين شكواه امام التزارينا ويبدو انها كانت شكوى حقيقية: لقد تباهى دزهانكوفسكي بالحكم في جنح صغيرة وفي الوقت عينه تغافل متعمدا مقاضاة الرجال اللذين حاولوا اغتيال راسبوتين. عندئذ ابلغت التزارينا زوجها بوجوب طرد دزهانكوفسكي من منصبه وتم لها ما تريد. وتولى منصب رئيس الشرطة المشبوه (بيليتسكي)، الذي طرده دزهانكوفسكي، والذي لعب دورا مهما في حياة راسبوتين خلال العام التالي. ولم يعلم راسبوتين بذلك، بيد أنه كان آخر ما تبقى من حياته ...

الفصل العاشر

راسبوتين.... يغدو تزارا

ان تأملا في مجرى التاريخ لتلك الحقبة من الزمن سيحث فينا الاعتقاد أن الحرب جعلت من اندلاع ثورة امراً مقضياً، بيد ان دراسة متعمقة للدليل القائم سيطعن في ذاك الاعتقاد. ففي انكلترا كتب (روبرت بروك)[1] سونيتة هلل للحرب فيها ومطلعها: « ثناء لله اليوم الذي فاقنا في ساعة قيامته ». ويمضي واصفاً الصراع بحمام يطهر امرء من خطاياه. وفي روسيا كان الشعور ذاته يخترق صفوف الشعب. وبادىء ذي بدء نقول لو نجح القيصر في بلوغ السلام خلال الأسابيع الأولى من الحرب سيما وقد حقق الروس تقدماً ساحقاً حض المساومين على التفاوض لماتت بذور الثورة قبل نضجها. لقد دخل القيصر قلوب الشعب حتى الثوريون بينهم. فقد أسدى الإرهابي (فلاديمير بيرتسيف)، وهو خبير ثوري امضى معظم وقته في تعرية عملاء الشرطة الروسية في الخارج، نصحاً للثوار بمساعدة القيصر لو احتاج لعونهم، بل قد حداه اندفاعه بالعودة الى روسيا حيث اعتقلوه معتقلاً (ثم صدر عفو عنه). وظل (لينين) الوحيد الذي لم يكل له مساعد وطلب من الثوار انتهاز فرصة الحرب وقلب النظام. ولم يتبع خطاه سوى منظمات الحزب اليساري المتطرفة التي ساند معظمها بعدئذ المجهود

---

(١) السونيتة: قصيدة تتألف من ١٤ بيتاً.

الحربي بحماسها الوطني.

أما وقد مر عام واحد، انقلب واقع الحال عاليه سافله. ترى كيف حصل ذلك؟ يقع وزر معظم المسؤولية على كاهل وزير الحرب (سوخومالينوف)، الذي اتهم لاحقاً بالعمالة للألمان. لكن الحقيقة تكمن في غير هذا المكان. فقد اعتقد أن الحرب ستضع أوزارها عشية اعياد الميلاد عام ١٩١٤ وعليه لم يضع للسلاح والذخيرة حساباً. بل هو رفض عرضاً فرنسياً بشراء الأسلحة، زاعماً أنهم ليسوا في فاقة للسلاح. فكانت عاقبة ذلك أن أمسك الروس بتلابيب النصر بالحراب فحسب مضحين بمجرى للدماء متدفقة. ثم التقى رودزيانكو القيصر ونجح بطرد سوخومالينوف والرجعي الواجم ماكلاكوف (وزير الداخلية) من منصبيهما وكان ذلك في شهري أيار وحزيران من عام ١٩١٥. وشغل منصب وزير الحرب الجنرال (بوليفانوف) - المقاتل المقتدر وحر الأخلاق.

ورودزيانكو، ربما أضله غروره وتهويله للأشياء، لكنه خبر من أين تؤكل الكتف. وبصفته زعيماً لحزب الأحرار، مضى حثيث الخطى ليبقي على روسيا من عواقب الغموض البيروقراطي والغباء الرجعي ومشكلاً لمجلس دفاع انطوت مهمته على تحويل المتاح من الصناعة الروسية الى صناعة السلاح. وعليه كان واضحاً في اجتماع الدوما في الأول من آب عام ١٩١٥ وجود جبهة موحدة وصفق الجميع لوزير الحرب عندما اعلن تعاونه الصميمي مع الدوما. فبدا كما لو ان روسيا وجدت من ينقذها برغم وجود التزار. غير أن نيقولا أفسد المسعى ثانية بعد مجرد ستة أسابيع بقراره اغلاق الدوما حتى شهر تشرين الثاني. فأثار عليه غضب الأحرار وأضرب عمال بيتروجراد ليومين. ويؤرخ بيرس تلك

الساعة تأريخاً لاندحار الروحية الروسية. ترى ما الذي حدا بالقيصر أن يتبنى هذه الخطوة التعسة؟ لقد سكنه الخوف من انزلاق روسيا (للدستورية) برغم أن الدوما لم تنشد أكثر من «وزارة ثقة» اي رئيس وزراء ومجلس وزراء يحظى بثقة الجميع. ولم يكن (كوريميكن) الا أسوأ رجل لمنصب رئيس الوزراء لا لأنه دمية لم يتشدق بغير (نعم)، بل لأنه كان عجوزاً ماكراً دائماً ما تحدث عن موته وتناسى مصير وطنه.

وخلف هذه المشاكل تقبع التزارينا المهووسة بغيرتها على سلطان زوجها، فظلت تهمس في أذنه: « أثبت لغيرك أنك الحاكم المطلق». لقد هزل جسدها من نشاطها في التمريض وازداد ضعف قلبها الذي فقد قوته منذ ولادة التزارفيتش حتى اضطرت لاستخدام كرسي متحرك. وتشير الرسائل التي كتبتها في عام ١٩١٥ الى عمق حبها لزوجها وعائلتها يرافقه شدة مقتها للدوما وكثيرا ما تحدثت عن رغبتها في شنق «رودزيانكو البشع» وجشكوف او بتدبير حادثة قطار لهما.

وعليه، تتحمل التزارينا بشكل غير مباشر وعبر نصيحتها للقيصر مسؤولية اغلاق الدوما في ايلول. كما تأخذ على كاهلها وزر قرار آخر أوقع بالدوما ومجلس الوزراء في حالة من الصخب: انه قرار القيصر ان يصبح القائد العام للقوات المسلحة.

ثمة أسباب وراء هذه الخطوة الهوجاء. اولها كانت غيرة التزارينا من الشعبية التي فاز بها الغراندوق نيقولا. فقد كثر القول والقيل أن الغراندوق قد أعلن نفسه (نيقولا الثالث). ومهما يكن من أمر، فقد غلبت شعبية نيقولا

شعبية القيصر في الأشهر الاولى من الحرب.

وثاني الأسباب هو نفور راسبوتين من الغراندوق الذي كان له أول الأمر نصيراً ثم جعلته الأيام- شأن الكثيرين غيره- ألد أعدائه. وحين اقترح راسبوتين زيارة الجبهة وتخصيص ايقونة للجيش بعث له الغراندوق برقية جاء فيها: «تعال ولسوف اشنقك فور وصولك». بيد ان ثالث الأسباب يحتل من الأهمية مكاناً. فهو ينطوي على نزعة نيقولا الانهزامية. لقد تميزت بيتروجراد بحاجتها الدائمة للعين الباصرة حتى لأتفه مشاكلها. أما في الجبهة فقد تجلى الأمر بالبساطة وفيها فاح الجنود بعلو معنوياتهم غير آبهين بهزائمهم شديدة الوطأة. وبزغت من خصالهم شجاعتهم وسجلوا ندرة الأعمال في وقعها شهد لهم بها بيرس وغيره. لقد كان نيقولا رجلاً عسكريا عاشقا للهواء الطلق. بيد ان وجوده في الجبهة لم يكن حتمياً فالغراندوق نيقولا قد أحسن قيادة. من جهة اخرى كانت بيتروجراد في امس الحاجة لوجود التزار لمعالجة مشاكل توزيع الغذاء ومشاكل النقل. غير أنه غادرها، مهتدياً بعبقريته في افساد الأمور، صوب الجبهة بعد ان طرد الغراندوق وتاركاً زوجته وراسبوتين لتولي مسؤولية حكم روسيا باكملها. احتج مجلس الوزراء على هذه الخطوة فاقال اعضاءه تنفيذا لأوامر زوجته. وقد عبرت الدوما عن ارتيابها من هذا القرار فأغلقها ليغدو راسبوتين- في واقع الحال- تزارا الآن....

لم يكن نفوذ راسبوتين سيئاً برغم حدة العنف الموجه اليه. فقد ادرك -شأنه في ذلك شأن رودزيانكو- اهمية السكك الحديدية ونجح في اقناع التزار بتأجيل رحلات نقل المسافرين لثلاثة ايام ليتسنى لتجهيزات الطعام والذخيرة الحربية الوصول لاماكنها المقررة. وتم له ما أراد لا لثلاثة أيام بل لأسبوع. بيد

أن الفوضى واللاكفاءة كانتا عميقتي الجذور ولم تصل معظم التجهيزات وجهتها.

في تلكم الأثناء- وتحديداً في الشهور الأخيرة من عام١٩١٥- عاود نحس الطالع (اليكسي هفوستوف) الظهور على مسرح الأحداث. وحري بنا الاستذكار هنا ان راسبوتين كان قد التقى هفوستوف قبل اربع سنوات ووجده (يفتقر الى شيء ما). فغدا مذ حينها عضواً في الدوما ونجح ان يكون المتملق الذليل لراسبوتين بينا تظاهر بمساندة رودزيانكو.

ولد هفوستوف متآمراً ماكراً وقرر اليوم أن الساعة قد حانت حتى يكشر عن أنيابه ويمسك بتلابيب الأمور في روسيا. وقد حلت غايته خطة جسور تقضي أن يتسلق سلم السلطة على أكتاف راسبوتين ثم يجهز على من أوصله غايته بسلطته

لقد آثر ان يتم له الجزء الأخير من الخطة بمساعدة الشرطة. فاختار لهذا الهدف (بيليتسكي) عوناً له، والذي سبق ان طرده دزهانكوفسكي لكنه عاد ثانية بعد سقوط دزهانكوفسكي. شرع الإثنان ينسجان مخططهما الذي انطوى أولاً على اقناع راسبوتين استعمال نفوذه وتعيين هفوستوف وزيرا للداخلية على أن يتظاهر كلاهما أمام الملأ أن لا حبل وصل بينه وبينهما. ولانهما بحاجة لمن يوصلهما الى البلاط القيصري فقد ارتأيا استغلال خدمات المتآمر اللواطي الأمير (اندرونيكوف). وإذا ما طرقت انباء المؤامرة مسامع الدوما سيقول هفوستوف أنه انما يسعى لاسقاط راسبوتين -وهي النية المبيتة - وأنه يحاول الدخول لمعسكر الأعداء. فإن بلغوا عتبة السلطة أذلوا الصعاب ولن تمنعهما عن تنفيذ مآربهما

عقبة. فالكثير الكثير من الأموال مرمية في البلاط تنتظر من يجمعها. وقد نجح قبلها وزير الحرب السابق (سوخومالينو) في تحويل بعضها لجيبه الخاص لكنه كان اخرقا فالدوما كانت تقترح في نفس ذلك الوقت تقديمه للمحاكمة والقضاء. (بيد ان تدخل راسبوتين الذي ضمنته زوجة سوخوماليتوف الجذابة بسحر يمكن ان نحدده- انقذه من المحاكمة). وسرت ارجوفة أن شخصاً أهوماً حصل على ما يعادل ثلاثة ملايين جنيهاً من الحكومة لتجارب أجراها على قاذفة لهب والتي تخلت عنها الحكومة بعد أن أحرقت عندة رجال حتى الموت. تأمل هفوستوف الوضع بعد ان اضحت الحكومة في يدي التزارينا فلم يتمالك نفسه فحط من شأن راسبوتين كما فعل مثله الكثيرون.

غير أن الأمور سارت- بادىء الأمر- أحسن مما كان يتوقع. فقد أدخل اندرينوكوف هفوستوف للبلاط دون ادنى صعوبة واعلنت التزارينا أنها «تتوق لرؤيته». وترك كلاهما اثرا كبيرا في نفس الآخر. وقالت لزوجها في احدى رسائلها: «انه يشبه صديقنا غريغوري» وكلمة (هفستر) تعني في الروسية (ذيل) وبدأت التزارينا تنادي ميكافيلي هفوستوف بـ «ذيلي النزيه». وسرعان ما أشغل هفوستوف منصب وزير الداخلية -والذي يعني ايضا منصب رئيس الشرطة- وتولى بيليتسكي منصب المساعد، وبات كلاهما وعلى مدى الاشهر الخمسة التالية الحاكم الفعلي لروسيا. لقد برهن هفوستوف ملاءمته للمنصب ان تلاعب بالانتخابات لصالح الدوما حين اشترى سراً عدداً من الصحف «لتوجيه الرأي العام». ويستحق هفوستوف في مستقبل تاريخ الديكتاتورية ان يكون سلفا لهتلر وموسوليني في مجال الدعاية. (انه السلف الحق فقد أعدمه البلاشفة ومعه بيليتسكي بعد قيام الثورة). ومفروض أنه اختلس الكثير من اموال الدولة كما

أظهر ذلك التحقيق المتأخر عن مصير الملايين التي منحتها اياه الحكومة لأجل التلاعب بانتخابات الدوما.

بيد أن غاية كلا المتآمرين لم تكن السطو على خزانة الدولة فحسب. فقد كان بيليتسكي نافذ البصيرة أدرك ان الميل المتزايد للبلشفية او الشيوعية أكثر ما يعزى سببه الى نقص الغذاء وارتفاع الأسعار لا الايمان بالأفكار الإشتراكية. لذلك نظم اسواقا لبيع المواد الغذائية بأسعار دعمتها الدولة الأمر الذي أجل اندلاع الثورة عاماً تقريباً. ونجح في عمل رائع أسكن فيه الاف المهاجرين الذين قدموا روسيا من المناطق المتضررة بالحرب. من جهة اخرى، خصص فرعا من مكاتب البريد لاستلام الرسائل التي تحمل ملاحظات ضد الحكومة وأمر الصحف وأرشاها لكتابة مقالات عن شجاعة التزار في الجبهة وعن قدامة التزارينا كممرضة.

عكر راسبوتين صفو بيليتسكي بميله للتفاخر وهو مخمور: فقد زود أعداءه بالذخيرة فضاعف بيليتسكي حراسه من الشرطة وأبقى عيناً مهددة على الصحف التحررية. وقد اضطر مرة الى تقديم مبلغ كبير من المال مقابل شراء رسالة تفتقر لفن الرسالة سرقت من شقة راسبوتين ووضعت بين يدي صحيفة يسارية.

سد المناصب الرسمية آنذاك رجال لم يكونوا بأهلها وقد بلغوها لا بجدارتهم وانما بصداقتهم لهفوستوف أو بشرائهم رضاه. ومن كان آنذاك صديقاً لهفوستوف كان صديقا لراسبوتين الذي لم يتستر على غايته أن يزرع «رجلا تابعا له» في كل منصب مهم في الحكومة.

ان من الصعب استيعاب الذي حدث لراسبوتين اواخر عام ١٩١٥. فهو لم يكترث لمال أو سلطة لأجل المال أو السلطة. ومع هذا، سيتجل عسيراً الآن الا نعتقد أن شخصية راسبوتين، وهو في أوج نشاطاته، قد عانت من تراجع ملحوظ آخر. فهل لين الخز ومعاقرة الخمر عقله؟ أم أنها هالة الحرب قد جعلته عاجزاً أن يكظم غيظه؟ لقد أخطأ أعداؤه في ظنهم به شيطاناً في جسد انسان وكل الأمر أنه من نمط غير نمطهم. والآن قد وجد حتى أصدقاؤه صعوبة أن يتجاهلوا أن راسبوتين قد تخطى حدوده. وتحول رجال السياسة الروس الى شيء أشبه بقصر مدينة شيكاغو في عشرينات هذ القرن حيث الزحف الفاسد صوب السلطة وسيتحمل راسبوتين كامل اللوم لمساندة هفوستوف. وطبقا لقول سيمانوفيتش، استقبل راسبوتين كل يوم الكثيرمن ثريات النساء اللاتي رغبن باعفاء ابناءهن من الخدمة العسكرية، او اصحاب بنوك لاحت لهم فرصة خداع الحكومة بخصوص الذخائر الحربية. من جانب آخر، عين اندرونيكوف نفسه عميلا سياسيا وضابطا للعلاقات العامة لراسبوتين، بيد ان السمة الغريبة في هذا الاتفاق هو ان العميل يتقاضى نسبة ٩٠٪ مما يجنيه راسبوتين. اما بيليتسكي فقد كان مشغولا في مسعاه الإيقاع باندرونيكوف بافادته معلومات تتعلق بانحرافاته الجنسية مع آنا فيروبوف. غير أن لعبة كهذه تتوخى الحذر في لعبها، فاندرونيكوف قد خبر من الأسرار ما لن يجعله لقمة سائغة. ورويداً رويداً، خرجت «مواطي» فقدم اندرونيكوف بعيداً عن اسوار البلاط وتولى حماية راسبوتين «حام» آخر هو شرطي فاجر يدعى العقيد (كوميساروف) الذي انطوت مهمته على مراقبة راسبوتين أنى ذهب وأن يبقي عيناً باصرة على كل من سولته نفسه اغتياله. في تلكم الأثناء، رسخ هفوستوف وبيليتسكي فكرة أن راسبوتين الغول الذي يقف وراء الساسة الروس، وصور رسم كاريكاتوري راسبوتين- الفاحش

المخيف- ومعه القيصر وزوجته راكعاً على ركبتيه وهما دميتين بهيئة أشخاص[1] وربما ذهل بعض (الليبراليين) (اللذين كرهوا راسبوتين) ليبدأ أن هفوستوف وبيليتسكي قد ظنا براسبوتين ناقص العقل وأنهما اختارا له (كوميساروف) كممرضة تبقيه في صحو من التعب.

قرر هفوستوف أن الوقت قد حان ليذهب راسبوتين في «رحلة طويلة» قبل أن تتفاقم لاشعبيته، فزوده بعربة وبعض القفاص المادير ا وحفنة من المال لمصاريفه الشخصية. بيد ان راسبوتين شعر بالدعة والراحة في بيتروجراد فرفض بكياسة أن يتزحزح عنها ومقيداً نفسه بتهديدات الاجراءات القانونية لحادثة الزورق النهري. بينما بدأ هفوستوف يخمر في نفسه الضغينة ضد من أوصله عتبة السلطان.

طفقت علاقة غريبة بين راسبوتين و (كوميساروف) الذي تلمس شأن الآخرين غيره أن «للشيطان المقدس» شيئا عزيزاً في براءته. لقد كان راسبوتين طفلا في تركيبته وهو طفل محرج صعب المراس. وفي احدى المرات أمسك به كوميساروف وابلغه لقاتل اياه اذا ما ظل يحط من قدره. وهو اذا ما استهل خطبه لمن يطرق بابه من المتوسلين بابداء المشاعر الدينية قاطعه كوميساروف بحدة قائلاً: «هيا يا كريكوري، دع الدين جانبا».

كان الجزء الأصعب في مهمة كوميساروف هو أن يجنب راسبوتين الانفلات في الشرب وأن يمنعه من اغتصاب المتوسلات اللاتي رضين راغبات (أغلبهن)

(١) يمكن أن يعني هذا التعبير أن راسبوتين (محرك دمى).

أن يمنحنه أجسادهن. غير أن سواهن اللاتي أتينه لشهرته في الشفاء ولأنه رجل مبروك رفضن راسبوتين في فكرته «اختبار ارواحهن» وهؤلاء النسوة قد ألحقن أشد الاذى بسمعة راسبوتين بنشرهن فضائحه فيما بذل كومياروف ما وسع ليحول دون وصول هذه الأمور لهذه المرحلة الخطيرة. وفي مرة أخرى حاول راسبوتين دخول غرفة احدى النساء عنوة فهربت المرأة بمعونة كومياروف حينها قال راسبوتين حانقا : «لقد خدعتني».

لكن غرابة الأمر هنا أن أغلب معجبيه ظلوا برغم ما سمعوا مؤمنين أن الذي سمعوه ليس الا هراء وافتراء وكأن ما فعله الأعداء نفخاً في رماد وصياحاً في واد. ودليلنا لذلك السيدة (كولوفن وابنتها)، (اللتان جئن بيوسبوف لراسبوتين)، ما برحن يعتقدنه رجلا مقدسا. وربما أصابتا في ذلك الاعتقاد، وحادثة منتصف شهر كانون الأول ستبرهن ان قواه العجيبة لم تتغير طرفة عين: ففي الخامس عشر من ذلك الشهر بدأ القيصر زيارة للجبهة الجنوبية يصحبه (اليكسي) البالغ من العمر آنذاك اثني عشر عاماً. كان الصبي واقفا وانفه لاصقاً بالنافذة عندما توقفت العجلة على حين غرة وانضرب انفه بالنافذة التي سببت له رعافا شديدا وكالعادة ظل نازفاً فقفلا عائدين من فورهم للتزاريسكو سيلو وأرسلا برقية عجل لراسبوتين الذي لم يشعر حينها بميل للتزار وقررعدم الذهاب قبل اربع وعشرين ساعة، تأزمت فيها حالة الطفل كثيرا وسكنت جسده الغض الحمى. وحالما ظهر راسبوتين توقف النزف وقد علل لهفوستوف سبب تأخره برغبته أن يترع القيصر في طمته ليوم كامل. وهذا دليل أنه يدرك أنه بمستطيع معالجة الصبي حال رؤيته والا فثمن محاولة كهذه دون الوثوق بنتائجها لجد باهض. وهنا عاودت التزارينا تأكيدها أن راسبوتين (تابع الله)

طالما أن قوته الشافية هبة الله اليه. وربما ذاك اليوم تنبأ راسبوتين أن الصبي سيستعيد أحسن عافيته بعد عيد ميلاده الثالث عشر وقد ثبتت صحة نبوءته.

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٦- يوم اسم راسبوتين- امتلأت غرفته بالثمين والنفيس من الهدايا... أثاث، سجاد، تحف فضية للزينة ارسلت جميعها لبوكروفسكو على الفور. وحضرت الغداء آنا فيروبوف حاملة معها تحيات وتمنيات العائلة الملكية. وبحضورها أحسن راسبوتين التصرف، وربما استذكر اهانته لها قبل اسابيع قليلة باحتسائه الكثير من الخمر وهرجه ومرجه على طاولتها. وحالما غادرت منزله ظهر الموسيقيون الغجر وشرع الجميع بالرقص والشرب. وذكر بيليتسكي أن راسبوتين وبضع نساء افرطوا شرباً ووقعوا أرضاً. لكن القول يحمل مبالغة بين ثناياه الهمها اسلوب سرد الحكايات عن الخليستية. وعلى اية حال امضت اثنتان من النسوة الليلة مع راسبوتين وتلك هي المرة التي وقف فيها الزوجان الهائجان على باب راسبوتين الأمامي بينما هربت زوجتاهما من الباب الخلفي.

من جهة اخرى، استمرت المكائد تحاك وازدادت تعقيدا وبات العجوز (كورميكن) الهدف القادم لهفوستوف الذي ظل يغذي احلامه ان يصبح رئيسا للوزراء. وقد أعانه رودزيانكو غير واع بهجومه على اللاكفاءة التي ميزت العجوز كورميكن. بيد أن تعيين هفوستوف رئيساً للوزراء لم يكن ليروق راسبوتين بتاتاً، فهو شديد المكر لم ينال منه اعجاباً وعليه أشار راسبوتين على التزارينا أن هفوستوف وان اتسم بالذكاء واستحق من الآخرين ثقتهم يبقى أحد أعضاء الدوما السابقين واذاً فهو لا يستحق الثقة. ولكن من ذا الذي سيملأ هذا المنصب الأهم بين المناصب؟ وقعت العيون على (بوفيلانوف)- وزير الحرب

الجديد- لكن دفة الحرب تحتاج مرساها. ثم يقع اللوم على القيصر. فلو تحلى ببعض الشجاعة لما توانى في اختيار رودزيانكو لسد هذا المنصب ولنجح عندئذ بتوحيد البلاد باختلاف ارجائها وفصائلها خلف العرش ما خلا الرجعيين منهم. لكن التزارينا ما كانت لترضى بهذا الإختيار لسبب بسيط هو ان رودزيانكو كان أشد من هجاه لسان راسبوتين. وعليه مضى القيصر متأرجحاً في سياسة انتحاره البطيء بانتخابه أقل رجالات روسيا من يليق بهم منصب رئيس الوزراء. انه ستورمر... القاصر في ادائه... المنافق في سلوكه... الجبان في خطاه... المتزلف لراسبوتين. لقد حام ستورمر حول راسبوتين مذ بزغ نجمه في روسيا متوقعاً أن بعض فتاتات السلطة ستسقط من المائدة الكبيرة. وحدث ما تأمل. ففي الثاني من شباط من عام ١٩١٦ تم فصل كوريمكن دون سابق انذار وعين بدلاً عنه ستورمر وسط ذهول وريبة الدوما ومجلس الوزراء. وبينما استشاط هفوستوف غضبا ولعن حظه العاثر تظاهر راسبوتين أن القرار من صنع القيصر وحده. واما الشعب فقد وجد في القرار خيانة جديدة فاغلبهم قد خال ستورمر المانياً- كما يوحي عليه اسمه-.

ومؤكد أن راسبوتين ادرك أن غمامات العاصفة أخذت تتراكم. فالحرب تسير من السيء الى الأسوأ. وها هي بلغاريا دخلت الصراع الى جانب المانيا وأخرجت الروس من صربيا، وتلك بولندا قد ضاعت بين اياديهم وطغى على العامة شعور الهزيمة. وفي بتروجراد سأم المجتمع الراقي الحرب واصطنع لنفسه حالة اللاحرب فاستمرت حفلات الشمبانيا وألف الشعراء الأيبغرامات[1] الساخرة من الحكومة ومعها راسبوتين.

(1) الايبغرام: قصيدة قصيرة مختتمة بفكرة ساخرة.

أفزع المشهد الروسي الجديد الأمير (يوسبوف) الذي فر من المانيا مع بداية الحرب. وافترض -خاطئا- أن راسبوتين لا سواه المسؤول عن قرار القيصر أن يولي نفسه القائد العام للقوات المسلحة حتى يتاح له ومعه التزارينا الامساك بتلابيب السلطة في الدولة. واعتقد كذلك أن الإندحارات الروسية المتتالية تعزى في بعضها لتجسس راسبوتين لصالح الألمان وبدأ يداعب فكرة اغتيال راسبوتين.

بيد ان يوسبوف لم يكن بالوحيد الذي جال في رأسه هذا الأمر. فعلى الجانب الآخر يقف هفوستوف الذي أنبت في نفسه ذات القرار لأسباب- يقول عنها بيرس- لم تحتل في الصداقية مكان اسباب يوسبوف. لقد لطخ راسبوتين سيء صيته حتى تخشى أقرب من حاباه أن يقروا بعونهم له ولعب أغلبهم دوراً أحسنوا نسجه، وتظاهروا بعدم معرفتهم اياه. وخير مثال لنا في (بيتريم) مطران بتروجراد، الذي بلغ المنصب بقوة راسبوتين. فهو قد أطلق على راسبوتين «الرجل البغيض». لقد راق لهفوستوف هذا الرياء وعندما أخبره أحد أعوانه أن بيتريم التقى راسبوتين في اجتماع، أغار عليهما في حاله وسط دهشة راسبوتين وحرج بيتريم.

أدرك هفوستوف حاجته أن يختفي راسبوتين عن المسرح السياسي مرة والى الأبد. وأخذت محاولة الاغتيال شكل المهزلة. فقد حاول هفوستوف استخدام السم وطلب من (كوميساروف) شراءه الذي ادعى أنه يعرف الشخص المنشود في ساراتوف وذهب لشراء السم منه. مرت بضعة اسابيع وصل بعدها

كوميساروف بيتروجراد وذهب لمقابلة هفوستوف حاملا معه كمية كبيرة من المساحيق البيضاء مصنفة على أنها جماجم وصلباناً من العظام. أمضى الاثنان قرابة نصف ساعة تحدث فيها كوميساروف عن مفعول هذا السم زاعما أنه أجراه على قطة تائهة وماتت في حالها. ان ما لم يذكره أن هذه «السموم» كانت عبارة عن ادوية منزلية لا ضير فيها ثم اضيفت اليها بعض المساحيق المشار اليها في كتاب رخيص عن السموم. وما هو مؤكد ان احدى القناني احتوت سما حقيقيا سكب كوميساروف بعضا منه في حليب قطة راسبوتين أثناء احدى زياراته له فتلوت القطة ثم ماتت. ولسبب ما، ادعى راسبوتين أن اندرونيكوف سمم قطته واضعاً بذلك نهاية لعلاقتهما المتأزمة.

وجد بيليتسكي الأمر مهزلة برمته. يضاف لذلك أنه ضاق ذرعاً بهفستوف وأدرك في خطة الاغتيال فرصة للتخلص منه. فشرع يعد العدة لمؤامرة مضادة. فيما جالت في رأس هفوستوف فكرة تالية يستعين فيها بالراهب ايليدور- الموجود حينها في النرويج- في قتل راسبوتين. وفيها سيدفع هفوستوف المال وعلى ايليدور الرجال. تبادل الاثنان الرسائل ثم بعث هفوستوف بأحد رجاله لالتقاء ايليدور واعطائه المال الذي أراد. لكن الرسول واسمه (رزمينسكي) كان أحمقاً متبجحاً لا يحفظ سراً وقد افترض مخطئاً أنه يحظى بدعم (رسمي) من الشرطة ما دامه مبعوث هفوستوف. لذا تحدث لسلطات الحدود الفنلندية في تفاصيل غامضة عن مهمته. أرسلت السلطات الفنلندية برقية الى بيليتسكي وابلغته شكوكها فامرهم باعتقاله واعادته لروسيا. وعلى اية حال، ارادت الشرطة الروسية اعتقاله لاسباب أخرى. وقد أخبر بيليتسكي هفوستوف أن عميله كان احمقاً وسيفسد عليهم أمرهم اذا ما اسكتوه حالاً.

لم يعد هفوستوف يثق بيليتسكي منذ أن اقترح عليه التخلي عن محاولة اغتيال راسبوتين وكتابة تقرير بدلا عنها يتعلق بجنح راسبوتين المختلفة مدعومة بشهادة كوميساروف التي ستتضمن سرداً مفصلاً لكل عربدات راسبوتين وموثقة ببعض الصور (حسب قول يوسبوف) لراسبوتين ممارساً العملية الجنسية. لقد ظن هفوستوف في التقرير سبيلاً لسحق حظوة راسبوتين لدى التزار سيما وأنه اختلف عن سابقاته التي استندت على الهراء والترهات. بيد أن أكثر اهتمام هفوستوف قد انصب اليوم على التخلص من بيليتسكي أكثر من راسبوتين لدرجة أنه نسي أمر التقرير في لقاء له مع القيصر وكل ما أراد خلاله طرد بيليتسكي: وفيما بعد أخبر هفوستوف بيليتسكي أن القيصر قد وافق على التقرير لكن بيليتسكي تطلع الى حقيبة هفوستوف ووجد ان التقرير ما يزال فيها.

أفضى خداع أحد الطرفين للآخر الى أن ذهب كلاهما لـ(آنا فيروبوف) وعرضا أمامها القضية. وقد هالها ما سمعت فحثت خطاها صوب التزارينا لتخبرها بمحاولات تدمير «صديقهما» الحبيب. فتم استجواب هفوستوف وبيليتسكي ولم يألوَ كلاهما جهداً لتبرئة ساحته بالطعن في الآخر فتداعيا معاً. وربما حظي بيليتسكي ببعض النصر حيث نصبه القيصر محافظا لسيبيريا. لكن صحيفة بيتروجرادية نشرت مقابلة مع بيليتسكي فضح فيها محاولات الاغتيال وأخرجها الى الملأ وقد كان مالك الصحيفة ساذجا لدرجة قوله أن مقابلة مع معاون رئيس الشرطة (لن تشوبها شائبة). لكن التزار احتدم غضباً لهذا التحدي العام لقراره منع نشر مقالات عن راسبوتين. فالغى تعيين بيليتسكي وطرد هفوستوف من منصبه والذي انيط به رئيس الوزراء ستورمر، حامي راسبوتين.

ان من الصعب علينا ونحن نتمعن في خيوط نسيج هذه المكائد أن

تتجاهل حقيقة كيف أغشى راسبوتين بصره عن رؤية ما كتب على لوح القدر. ومع هذا، لم تكن الأحداث- كما رآها- جد سيئة كما نراها. فلما يزل يحصد الأتباع او أنه أبقى على أتباعه الذين آمنوا به حد العظم. وأشدهم في هذا الأمر التزارينا التي بلغ بها ايمانها به أن تصورته (المسيح) متجسداً وكتبت لزوجها قائلة أنه عادها ساعة الكارثة.

لقد تضاعفت قوة ونفوذ راسبوتين. وسواء أكان مصيبا أم مخطئا فقد اعتمد على احلامه في اصدار الأوامر للقيصر بخصوص العمليات العسكرية. وفي مرة ما منع هجوماً على الجبهة الشمالية متنبئا بالكارثة. ونصح التزار بتمشيط شعره بمشط راسبوتين قبل أن يتخذ أي قرار حاسم. وهو قد أصدر أوامره الى ستورمر وعامله بازدراء مفضوح وهدده ذات مرة قائلاً: «كان ثالثة الاثافي... ستورمر.. .يا ستورمر... ان لم تفعل ما تشاء منك (ماما)». وظل راسبوتين مشجعاً التزارينا في محاولتها العقيمة الابقاء على روسيا ملكية مطلقة والتي تعني في الفعل أن أياً من لا تكل له ساعد أو تكحل بالنزاهة سيرمى به بعيداً عن دائرة الضوء. فكان بوليفانوف- الذي أحسن اشغالاً لمنصب وزير الحرب- هدفها التالي. وما زالت التزارينا بزوجها حتى أطاعها برغبتها وعزل بوليفانوف من منصبه. وكتبت له قائلة: «علينا بالقوة لأجل مستقبل الصبي»، ظانة أن هذا التدخل سيحفظ للابن عرش روسيا. ان الجريمة التي اقترفها بوليفانوف هي أنه سخّر لأغراض عسكرية ثلاث سيارات رسمية قدمها ستورمر هدية لراسبوتين. ونحن اذا تأملنا الأحداث في مجراها لتبين أن جميع محاولات الاغتيال قد أخطأت الوجهة، فلربما انقذ يوسيوف العرش لو أطلق الرصاص على التزارينا بدلا من راسبوتين.

في حزيران، بدأ اللورد (كيشنر) رحلة سرية الى روسيا كان الغرض منها دراسة الحاجة الروسية الى السلاح. وقد تعرضت السفينة (اج.ام.اس. هامبشاير) الى طوربيد مجهول المصدر أغرقها قبالة جزر (اوركاني) ولا يزال سر هذا الإغراق مجهولا حتى الآن. بيد أن مصدراً آخراً كان سيقدم العون لروسيا قد توقف. فالتزارينا- كعادتها- لم تدرك دنو الكارثة وشاطرت راسبوتين رأيه أن كيشنر «ربما ألحق أذىً بروسيا». ويبدو أن راسبوتين قد بلغ هذه النتيجة عبر أحلامه التنبؤية، اولا يبدو الأمر عسير التصديق أن بريطانيا ستصيب روسيا بأذى لو زودتها بالسلاح!!!

كانت قضية وزير الحرب المشين (سوخوماليوف) الشغل الشاغل لراسبوتين والذي وجد نفسه أعجز من أن تقاوم توسلات زوجته الفاتنة. وقد كان وزير العدل، هفوستوف الأكبر (الذي لا يجب خلطه مع ابن اخيه الحقير) في صدارة من أرادوا اعدام سوخوماليوف، غير أن راسبوتين أجاد اللعبة ونقل هفوستوف من منصبه الى منصب وزير الداخلية.

كان رودزيانكو الرجل الوحيد الذي رقب عن كثب وفقه أين ستفضي بهم هذه الدسائس والمكائد. وفي دعوة وجهت له لحضور حفل عشاء لمجلس الوزراء، انتهز الفرصة وأمطرهم بكلمات كانت أشد في حدتها من خناجر مخاطباً اياهم أنهم قد أهدروا الوقت منغمسين في مصايحات تافهة فنسوا حاجيات الشعب وأغمضوا بصراً عن البلاد وهي تتهاوى ركناً بعد آخر. لقد جبن الجميع من الحديث خوفاً وكان له في نفوسهم وقعاً بيد أن أحداً لم يحرك ساكناً.

ارتكب راسبوتين خطأ صغيرا في الجزء الأخير من مسرحية التآمر. فهو

قد أراد من تعيين العم هفوستوف وزيرا للداخلية ان يكون به بعيدا عن قضية سوخوماليتوف. لكن العم كان رجلا نزيها لذا بادر باستغلال نفوذه الحالي ضد راسبوتين. فاناط مهمة حماية راسبوتين بالمبتز (مانيلوف) الذي كان صديق راسبوتين لسنين عديدة (وما فكرة تعيين ستورمر رئيسا للوزراء الا من بنات افكار مانيلوف، الذي استغل موقعه الخطير في جمع المال بأتى وسيلة والتي افتقرت في جنتها الى الصبغة الشرعية). لذا قرر العم هفوستوف الايقاع به في شباكه وحاك مؤامرة فيها ارقاماً بمبالغ ستعطى له كرشوة. اكل مانيلوف الطعم واخذ الرشوة فالقي القبض عليه في الحال. لكن هذا الخليع الفاسق لم يهتز له جفن واشار بلطف ان محاكمته لن تتعدى فضح كل اسرار راسبوتين. وصلت الأنباء التزارينا فورا وتسارعت البرقيات وانتهى الأمر بخلع العم هفوستوف ثانية من منصبه. واعيد مانيلوف بهدوء تام لراسبوتين واستمر في نذالاته وتجاوزاته. (كان عليه أن يمضي بعض الوقت في السجن بطلب من خليفة العم هفوستوف في منصبه.

عاد منصب وزير الداخلية شاغراً مرة اخرى. وأطال راسبوتين التفكير بمن سيختار اليه، حتى استقر آخر المطاف على امعة أخرى هو (بروتوبوبوف)- الرجل الغريب الطباع القصير القامة- الذي لا يملك من المؤهلات أقلها وكل ما فيه أنه سيكون أداة طيعة لتنفيذ اوامر راسبوتين. وكتبت التزارينا لزوجها رسالة تقترح فيها تعيين بروتوبوبوف للمنصب وقالت له «لقد احب صديقنا لاربع سنوات على الأقل». وعين الامعة وزيراً للداخلية في العاشر من أيلول عام ١٩١٦ بعد طول تردد من القيصر وظل في منصبه حتى قيام الثورة. ان في هذا الاختيار شيئاً من السخرية للتزارينا ولروسيا. فمن اللامعقول أن يغطس

المرء أعمق من القاع أو أن يختار ممن حوله الأشد فيهم سخافة. فبعد بروتوبوبوف، لن يبقى في الأمر غير التدلي . . . اي شيء ما عدا الثورة.

الفصل الحادي عشر

النهاية

عمت مشاعر السخط روسيا وفي الجبهة تحدث الجنود جهاراً عن الثورة، بالرغم من تحسن حالة الاعتدة الحربية بفضل الجهد الكبير الذي بذلته (لجنة الدفاع) التي ساهمت (الدوما) بانشائها مساهمة فعالة، بيد أن الشعور العام بلاكفاءة الرجال الممسكين بزمام السلطة كان ينخر في جسد الجيش. ويورد رودزيانكو في رسالة له مثالاً نموذجياً يصف الوضع العام:

«شرع ابننا في سرد تجاربه. لقد تمخضت اللاكفاءة وانعدام التعاون بين صفوف القيادة العليا عن مجزرة لتنظيماتنا المتهشمة. وتأكد لرجالنا ضباطاً ومراتب أن النصر غدا مستحيلاً برغم بطولة حماة الأرض. لقد عصى الغراندوق (بول) أمراً بمحاصرة نقطة محددة له بمناورة من الجناح وارسل قطعاته للقيام بهجوم متقدم على مرتفعات (راي-ميستو)، فوجد الجنود حالهم في مستنقع أهلك أغلبهم وبينا هم يتخبطون في أوحاله قصفتهم الطائرات الالمانية... وغطس ابني حتى ابطيه وكانت معجزة أنهم أنقذوه... لم يكن ثمة سبيل لاخراج الجرحى من المستنقع فغرقوا فيه. لقد كانت نيران مدفعيتنا جد ضعيفة فشلت في تحطيم الأسيجة الشائكة، وتهاوت القذائف على جنودنا انفسهم. وسحب الجنرال (روش) كتائبه بدلاً من اطاعة الاوامر وتجنح الحياة

في مهمتهم برغم واقع الحال هذا وبلغوا المرتفعات وشبح الخوف عليهم (ثم صدرت اليهم الأوامر بالتخلي عنها فيما بعد). وليس غريباً أن يختتم ابن رودزيانكو قوله: «لقد نخر الفساد اجساد القيادة العليا وعقولها. . . اننا لن ندخر حالاً حتى نموت من أجل روسيا لا من أجل نزعات الجنرالات واهوائهم». ولو تحلت الحكومة الروسية بنصف فعالية جيشها لانتصرت روسيا في الحرب ولما قامت الثورة أصلاً، اذ حقق الجنرال (بروسيلوف) أبهر النجاحات بين شهري حزيران وأيلول وبدا أن القيصر لناج من المنية برغم فواجع سياساته الداخلية.

لكن السيل قد بلغ الزبى في بتروجراد ولم يعد أحد يستطيع أن يوقف الانهيار. فقد عجت محطات القطار بفتيان المقاتلين الذين ينقصهم السلاح، وهم اذا ما وصلوا الجبهة حملوا معهم دون ريب روح الهزيمة وأنباء الفوضى التي تعم الديار. فقد اختفى اللحم من بتروجراد وموسكو ومع هذا تم نقل الزلاجات المحملة بجثث الماشية المتعفنة على أعين الناس الى مصانع حساء اللحم وتصل فاسدة لمحطات القطار. ودارت شائعات عن قطارات ملأى باللحوم محجوزة في سيبيريا ستفسد حالما يتم تفريغها. بيد أن أحداً لا يعرف ما ينبغي عليه فعله حيال مشكلة النقل.

ان الوزير الجديد لمنصب الداخلية ربما كان أغرب من اختاره راسبوتين حتى الآن، وأعلن رودزيانكو أن الترقية المفاجئة ستصيب بروتوبوبوف بمس من الجنون لوسمعها وربما أصاب في ذلك. لقد كان بروتوبوبوف صديقاً مقرباً لراسبوتين بل هو أقرب اليه من ستورمر أو هفوستوف في أيامهما الخوالي. وهو قد خلق فضيحة حين التقى في صيف عام ١٩١٦ في ستوكهولم عميلاً المانياً شديد

الصلة بالحكومة الالمانية. ولما نشرت وسائل الاعلام نبأ هذا اللقاء أعلن بروتوبوبوف أنه ما أخبر العميل شيئاً سوى أن روسيا ستقاتل حتى الموت. لكن الأرجح من الاحتمالات أنه كان مبعوثاً من راسبوتين للتفاوض في امكانية توقيع اتفاقية سلام روسية- المانية بعد جهود بذلها راسبوتين لنصح التزار بضرورة ايقاف لهيب الحرب وان كان ثمنه النكاية بانجلترا وفرنسا. أما وقد بات وزيراً للداخلية، انقلب حال بروتوبوبوف رأساً على عقب، وبدا كأن نشوة صوفية سكنته وصرح تكراراً أنه اختير لينقذ روسيا. من جهة أخرى كان هذا ساذجاً سذاجة الأطفال. فعندما أخبره أحدهم أن عليه الاستقالة، قال: «أنى لي أن أستقيل؟ وقد حلمت طوال حياتي أن أكون نائب محافظ وها انذا وزيراً مرة واحدة!». بيد أن أفكاره لانقاذ روسيا انما هي محض خيال فهو أعجز من أن يعالج الأزمات الداخلية الخطيرة. ولعل أفضل بنات افكاره كانت تعيين رودزيانكو رئيساً للوزراء والذي كان يتسنى له ذلك لو قبل التعاون مع راسبوتين والتزارينا. لقد اخبره رودزيانكو ان شرطه الوحيد في تولي منصب رئاسة الوزراء هو وجوب حجز التزارينا في قصر ليفاديا لما تبقى من الحرب. لم يصدق بروتوبوبوف ما سمع وذهب مسرعا صوب راسبوتين خشية ان تحل الواقعة على رودزيانكو بعد ادعائه الأفضلية على راسبوتين والتزارينا.

لم تنل التزارينا كل ما ترنو اليه. ففي شباط من عام ١٩١٦، زار القيصر الدوما دون سابق انذار والقى فيها خطبة رحب فيها بالتعاون بين الحكومة والدوما وقد لقت خطبته ارتياحا واثرا طيبا لدى اعضائها. (من الاهمية القول أن كلا من راسبوتين ورودزيانكو قد نصحاه القيام بهذه الخطوة. فكلاهما قاسم الثاني أغلب طموحاته ومن دواعي الأسى ان رودزيانكو لم يدرك ذلك). فيما

احست التزارينا أن في الزيارة استسلاماً للأعداء فمارست ما ملكت من نفوذ وتأثير على زوجها كي يحلّ الدوما ويزجر رودزيانكو قدر ما استطاع. ونجحت في مسعاها لضعف زوجها أمامها وتم اختيار ولاء رودزيانكو للعرش على نحو قاسٍ.

اثبت وزير العدل الجديد (ماكاروف) أنه أصعب من سهولة تطويعه، شأنه شأن العم هفوستوف، اذ رفض غلق ملف قضية (سوخومالينوف) فجاءه دور التآمر عليه وابعد عن منصبه ببديل جاء به راسبوتين والذي لم يهدر وقتاً في غلق قضية حليفي راسبوتين سوخومالينوف ومانيلوف. لكن راسبوتين كان قد مات في حينها.

ثم في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ووسط دهشة الجميع وغبطة روسيا ابعاد ستورمر عن منصبه. ويبدو ان سبب هذا القرار هو زيارة غير متوقعة قام بها وزيري الحرب والشؤون البحرية للدوما أعلنا فيها رغبتهما في التعاون مع الدوما وهي اشارة ارتداد من جانب مجلس الوزراء. وهنا استشاطت التزارينا غضباً لعجز ستورمر السيطرة على وزرائه وأمرت التزار بطرده. وقد تولى المنصب بديلاً عنه (تريبوف) الذي هو أحد أعداء راسبوتين. آنذاك ظهر على مسرح الأحداث احد المع واحب اعضاء الدوما يدعى (ف.ام بوريكيفش)، وهو نصير متحمس للملكية واحد اللذين مقتوا راسبوتين. لقد عرفوه وقحاً ومتى ما اعتلى المنبر في الدوما متحدثا ارتسمت على شفاه الأعضاء ضحكة والف كثيرا من الأشعار هجا فيها راسبوتين والتي رددتها عموم بتروجراد. وهو الذي صاغ عبارة «الوثبات الوزارية» واصفاً سمة تغير الوزراء بين الفينة والأخرى.

وفي مطلع شهر كانون الأول القى بوريشكيفش خطبة أمام الدوما، كانت هي الأجرأ والأكثر صراحة ما سمع لها الأعضاء مثيلاً من قبل صب فيها جام غضبه على راسبوتين وهاجم فيها بروتوبوبوف والفروتيكوف. كان للخطبة ومعها صدق ايمان ملقيها عميق الأثر في نفوس مستمعيها لدرجة أنها حدت بأحد أعضاء الدوما الحضور أن يتخذ قراراً مفاجئاً هو أن الخطيب عينه الأمير يوسبوف الذي طالما راودته فكرة اغتيال راسبوتين والذي أدرك اليوم أن الساعة قد حانت لذلك.

والآن قد بلغنا أغرب ما انطوت عليه القصة. لقد أدرك راسبوتين منذ سنوات عديدة خلت أن أحداً سيغتاله أغلب الأمر وما اهتز له جفن لذلك. لكنه أضحى، بعد خطبة بوريشكفيش، كئيباً صامتاً وأحس أن النهاية قد دنت حثيثة وساع الموت قد أزفت.

وفي يوم ما تمشى بمحاذاة نهر (النيفا) وعند عودته قال الى أراه مليء بدماء الدوقيين وهي نبوءة لما سيحدث بعد عام. ثم كتب لعائلته قال فيها أنه يرى الموت قد اقترب أعقبها بوثيقة هي الأغرب ونبوءة تفوق حدود العقل منحها عنواناً: «روح كريكوري ايفموفيش راسبوتين- نوفيخ من قرية بوكروفسكوي» وفيما يلي نصها:-

اكتب رسالتي هذه لأتركها برهاناً لي في مدينة القديس بطرسبورغ والي لأشعر أني مفارق هذه الحياة قبل اليوم الأول من شهر كانون الثاني. وأتمنى ان يدرك كل الشعب الروسي والبابا و «الام» الروسية وجميع الأطفال الروس والتراب الروسي العطر ما يجب ان يدركوه: «اذا ما قتلني الخونة فلاخوف روسيا

فلا خوف عليك ايها التزار وسيبقى عرشك حاكماً ويا أيها القيصر لا تخشى على اطفالك شيئاً فان لهم حكم روسيا لمئات السنين. ولكن إذا ما اغتالني البوياريون والنبلاء واذا ما اهدروا دمي لسوف تظل ايديهم ملطخة بدمي ولن تغسلها لهم السنوات الخمس وعشرين القادمة وسوف يهجرون روسيا، تاركين الأخ يقتل اخيه ولن يكون للنبلاء مكاناً في البلاد لخمس وعشرين سنة. يا قيصر الأرض الروسية: اذا ما سمعت نادٍ ينبئك مقتلي فعليك أن تعرف التالي: ان كان قاتلي من أهليك فلن يبق منك ولك أحد حياً لأكثر من سنتين بعد موتي وقاتلهم شعبك الروسي. انني أرحل وفي داخلي أمر الهي أن أخبر التزار الروسي بالذي عليه فعله بعد رحيلي. توخى الحكمة ما انت فاعل وترقب صداها في نفوس رعاياك. عليك بسلامتك، وأخبر من لك من الأقرباء اني أشاطرهم بقاءهم بدمي. انني مغادر الدنيا ولم أعد من أحيائها فصلي لأجلي، صلي وكن قويا واعتن بعائلتك المباركة. كريكوري.

اخذ سيمانوفيش الرسالة، على حد قوله، للتزارينا طالبا منها ألا تعرضها على نيقولا. وقد اعيدت اليه، حسب ادعائه، بعد وفاتها مع ملاحظات اخرى خاصة به.

ويضيف بيرس، الذي قرأ نسخة طبق الأصل من الرسالة، أن سيمانوفيش ملك بحوزته ايضا كتاب صلاة التزارينا مع رمزها المفضل وهو السواستيكا[1]، وهو اختيار يستحق التهكم والاستهزاء في ضوء دلالته الأخيرة للنازية الألمانية والذي كان بحوزتها حين مقتلها. وبذلك يكون الدليل على

(١) السواستيكاصليب معكوف يرمز الى الشمس او الحظ السعيد

صحة الرسالة راسخاً قبله حتى الشكوكي بيرس.

وكما هو شأن كثير من أحداث حكم نيقولا، يزرع مقتل راسبوتين شعوراً أنه محفور في لوح القدر منذ دهر طويل. فهو لم يكن بأي شكل حسن التخطيط وكانت ستفشل المحاولة لو صادفها أصغر عارض. تقرب يوسيوف من بوريشكفيش وعرض الخطة عليه فوافقه اياها في لحظتها وقرر الاستفادة من عون اثنين من اصدقائه وهما الغراندوق (ديمتري بافلوفيش)، الذي كان يخاطبه التزار «ياعم»، وضابط شاب يدعى (سوخوتين). وقد اضاف لهما بوريشكفيش طبيبا اسمه (لازافيرت).

وبرغم قسم المتآمرين الا يبوحوا بسرهم لغيرهم، أذاع الثرثار بوريشكفيش الخطة على الملأ. فلبّيه ماكلاكوف في صالة الدوما بين حشد من الناس وأخبره القصة كما أخبر صحفية تدعى (بيكر) مزودا اياها بكل التفاصيل وذاكراً اسماء المتآمرين. وعندما نجح يوسيوف اخيرا في دعوة راسبوتين لمنزله ليلة التاسع والعشرين من كانون الأول، ترجاه سيمانوفيش وبروتوبوبوف وآنا فيروبوف الا يذهب فيتعرض لخطر ما وانتزع منه بروتوبوبوف وعداً بعدم الذهاب والذي نقضه راسبوتين بعدئذ ما دام قد وعد يوسيوف بالحضور اليه. وخلال يومين قبيل مقتله، بلغت نبوءة راسبوتين بدنو حتفه ذروتها فاكتنفه لذلك خوف عميق. ولأنه قد تنبأ بيوم موته قبل الأول من شهر كانون الثاني (اي بعد مقتله باسبوعين والذي يوافق الثالث عشر من شهر كانون الثاني حسب التقويم الجديد[1])، فستجلى لا معقولية مجازفته الذهاب وحيداً لمنزل يوسيوف في

(١) التقويم الجديد: حساب السنين والتواريخ على حساب التقويم الغريغوري.

منتصف الليل. وقد نجد تعليلاً لذلك في تفسير بيرس القائل أن راسبوتين شعر بمزيج من العطف والازدراء للشاب الوسيم اللعوب يوسبوف والذي سماه «الصغير» وعليه لم يتخيله البتة مصدراً للخوف والخطر. من جهة اخرى كان يوسبوف الصديق المقرب لاخلص تليمذات راسبوتين الا وهي (مونيا كولوفن) التي أرادت من تقارب يوسبوف وراسبوتين خلق نوع من الإعجاب بينهما.

وفوق هذا تطلع راسبوتين للتعرف على زوجة يوسبوف الفاتنة الغراندوقة (ايرينا اليكسندروف) وربما وجد فيها فريسة محتملة. وبذلك وجد فيها يوسبوف الطعم المثالي لاغواء راسبوتين قدوم منزله وكان له الحجة ايضاً في مجيء راسبوتين ليلاً وسراً لقصره فوالده الذي كان أحد أعضاء السلطة المدنية المسؤولة عن موسكو قد مقت راسبوتين أشد المقت.

كانت آخر مرة رأى فيها راسبوتين القيصر حين طلب منه الأخير ان يباركه فرد عليه راسبوتين قائلا: «حان الوقت الآن لتباركني انت». وفي امسية يوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني طلبت التزارينا من آنا فيروبوف أن توصل لها رسالتها لراسبوتين في محل اقامته. وقد أخبرها راسبوتين أنه وافق على لقاء يوسبوف فابدت آنا تخاوفها من هذا الموعد الغريب فطمأنها راسبوتين بقوله أن دافعه وراء الابقاء على الزيارة سراً هو خشيته من والديه. لكنها لم تتمالك نفسها خشية عليه وترددت قبل مغادرتها اياه سيما وقد خاطبها بصوت لم تألفه قبل هذه الساعة: «أتبغين مني المزيد؟ لقد أعطيتك كل ما تبغين».

قصت آنا بعودتها للقصر الذي حدث بينها وبين راسبوتين للتزارينا التي قالت: «لا بد من وجود خطأ ما... فأيرينا (زوجة يوسبوف) في الكريميا)

الآن. ومع ذلك لم تخبر راسبوتين هاتفياً بمخاوفها وظلت تصارع خوفها ومرددة عبارة: «لا بد من وجود خطأ ما...».

يقول يوسبوف أنه جهّز الغرفة التحتية بقناني خمر وكعكة شيكولاته تحوي سيانيد البوتاسيوم كما وضع مسحوقا من السيانيد في بعض اقداح الخمر.

بحلول منتصف الليل ذهب يوسبوف يرتجف خوفا وهلعا الى منزل راسبوتين الذي كان وحيدا بانتظاره وأخبره أن بروتوبوبوف قد اتصل به في ذلك المساء وترجاه أن يتخلى عن فكرة الذهاب لئلا يغتال وهي ايماءة صريحة أن يوسبوف ليس بموضع ثقة.

عندما وصل راسبوتين قصر يوسبوف سمع صوت الكرامفون يغني «يانكي دوودل» فأخبره يوسبوف ان لدى زوجته زوارا وستنضم اليهما فور مغادرتهم. ومضى الاثنان لغرفة الجلوس التحتية وقد ابهرت راسبوتين الخزانة المزخرفة فيها وربما ساوره الشك حينها فهو قد رفض شرب الشاي او الخمر بادئ الأمر برغم تناوله بعض البسكويت. ويقول يوسبوف أن راسبوتين قد أكل آخر الأمر بعض الكعك المسموم. وهنا يشوب الشك هذا القول. اذ تقول (ماريا راسبوتين) ان ابيها لم يأكل الكعك في حياته تحت اي ظرف من الظروف يضاف لذلك أن أي أثر للسم لم يوجد في الجثة[1]. وربما اصابت ماريا الحقيقة في قولها. أي أن يوسبوف قد زوق جريمته الشائنة: جريمة قتل فيها رجل أعزل السلاح على يد أربعة من القتلة سكنهم الرعب منه. ويزعم يوسبوف أن

(١) وفقاً لوثائق لازيتيج.

راسبوتين لم يتناول الكعك المسموم فحسب بل شرب كأسين من الخمر المسموم، ثم انتظر يوسبوف ولم يحدث شيء وهذا بحد ذاته قول ينطوي على كثير من الشكوك فيما تعلق الأمر بمفعول السيانيد السريع. فتناول بضع ميليغرامات منه سيجلب الموت على صاحبه في بضع ثوانٍ نتيجة لشل الجهاز التنفسي. واستناداً لوصف يوسبوف فان راسبوتين قد ابتلع اونصة كاملة تقريبا.[1] لم يشعر راسبوتين بشيء وطلب من يوسبوف ان يغني ويعزف على كيتاره ولا بد ان الموقف قد تطلب رباطة جأش يوسبوف حتى يحسن علاجه. وفجأة رمقه راسبوتين بنظرة تطاير بغضاً، لكن الأصوات العالية الآتية من الطابق العلوي هدّأت الموقف وتمتم يوسبوف وقال انه ذاهب ليرى ان كانت زوجته قد استعدت للقاء راسبوتين. فذهب الى الطابق العلوي حيث ينتظر باقي المتآمرين على احر من الجمر وأخبرهم أن السم لم يعط مفعولاً. فتشاوروا على قتله خنقاً بيد أن يوسبوف رفض الفكرة خشية أن يحدث صدام بين راسبوتين وبوريشكفيش. وأخذ من الغراندوق مسدسه ونزل الى الأسفل فوجد راسبوتين جالسا ورأسه محنيا على صدره، وقال ليوسبوف أنه يشعر بغير ما يرام وان بلعومه يشتعل نارا ثم اقترح ليوسبوف الذي اندهش لاقتراحه، وجوب الذهاب لمشاهدة الفجر. وبعد هنيهة قال: «فلنذهب ونحن نحمل الله في نفوسنا والإنسان في اجسادنا».

(١) أخبرني السيد ليجل مورلاند، الكاتب المشهور في عالم الجريمة، أن راسبوتين كان يعاني من التهاب حاد في المعدة جراء تناوله الكحول مما يزيد من سمك غشاء المعدة، لذلك يستغرق السيانيد وقتاً طويلاً حتى يظهر مفعوله. وقد علم السيد مورلاند، الذي كان في روسيا ابان الثورة، بهذه الحقيقة من صديق مقرب لراسبوتين كان قد ساعده الأخير في الهرب من اوربيا. وكان راسبوتين يردد كثيراً أمام أصدقائه بأن تصلب غشاء معدته يؤهله لشرب كميات كبيرة من الكحول دون أن يبدو عليه اي سكر. وقد استخدم السيد مورلاند هذه الفكرة في رواية شيقة اسمها (السيانيد المنشط). المؤلف

سارع يوسبوف لجذب انتباهه لصليب من الكريستال وقال له: «كريكوري اينموفيش... من الأفضل ان تؤدي صلاتك امام هذا الصليب». ورمقه ثانية بنظرة يكتنفها الخوف والشك الشديدين استدار بعدها نحو الصليب واطلق يوسبوف رصاصتين استقرتا في ظهره وتداعى على السجادة. انطلق المتآمرون صوب الغرفة واطفأ احدهم النور فغرقت الغرفة في بحر من الظلام. وعندما اضاءوا الغرفة مرة اخرى رأوا راسبوتين ساقطا على الأرض وعينيه مغلقتين. فحصوا الجثة واعلن الطبيب لازافيرت عن موت الضحية. بيد ان اعصاب الطبيب كانت شبه منهارة وأصابته نوبة هستيريا وهو ينتظر يوسبوف يفيق من غيبوبته وخرج من المنزل وسقط مغشيا عليه فوق الجليد. ثم نزع اثنان من الشركاء معطف راسبوتين وارتداه (سوخوتين) حتى يضلل من يرقب القصر أن راسبوتين غادره في الثالثة صباحا تقريبا. وتارة أخرى صعد يوسبوف وبوريشكيفش للطابق العلوي وقرر يوسبوف أن يلقي نظرة اخرى على الجثة لظنه أن لدى راسبوتين قوى شيطانية تؤهله للنهوض من الموت، (وقد اعترف يوسبوف لماكلاكوف بعد الحادثة أنه اراد لراسبوتين ان يتطلع الى الصليب قبل هلاكه كي يقلل منه قواه الشيطانية). هزّ يوسبوف الجثة فظلت هامدة. ثم تحركت اجفان راسبوتين واهتزت أجفان يوسبوف رعباً فقد انتصبت «الجثة» ومزقت كتيفية من كتفه. هرع يوسبوف مذعورا للطابق العلوي وراسبوتين يطارده زاحفاً على اربع فوجد نفسه امام باب مغلق يؤدي الى فناء الدار وبقوة هائلة نجح في فتحه والخروج منه. انطلق بوريشكفيش وراءه واطلق عليه نيران مسدسه. وأخطأته اولى الرصاصتين وأصابته التاليتان فتهاوى أرضاً. ثم ركل بوريشكفيش، ذلك الرجل الأصلع القصير ذو الأنف المنحرف، رأس راسبوتين بقدمه وخرج من المنزل صائحاً: «قتلت راسبوتين... عدو روسيا

والقيصرة ثم ساعده الثان من الجنود على سحب الجثة داخل المنزل. انقض يوسيوف بعدها على الجسد الهامد بمقبض حديدي يعود للالاكوف ومزقها ارباً اربا. تعكس هذه الجريمة هشاشة معنى النزاهة لدى يوسيوف وبوريشكفيش وما تقطيع الجسد الا دلالة أنهم انما قتلوه لعدائهم له لا تجسيداً لعمل بطولي وطني كما وصفوه لاحقاً.

قيدت جثة راسبوتين ووضعت في سيارة الغراندوق وأخذت الى ساحل نهر اسمه «النيفكا الصغير» ورميت الى حفرة في الجليد ورموا معها معطفه الفرائي وجزمتيه اللتين بقيتا على سطح الجليد ووجدهما لاحقا ابن سيالوفيش الذي نصح الشرطة بالبحث عن جثة راسبوتين هناك.

لما يزل راسبوتين حياً عندما دفعوا به الى النهر، وربما ساور الشك المتآمرين اذ اوثقوه جيدا قبل وضعه في السيارة. وقد ايقظ الماء البارد راسبوتين فانتفض ونجح في تحرير احدى يديه، بيد ان الثلج كان يغطيه فلم يستطع الا رسم اشارة الصليب قبل ان يغرق وحين وجدت جثته كانت يده اليمنى ما تزال على صدره وقد رفعوا عنوالثلاثة اصابع.

ظن المتآمرون أنهم بقتلهم راسبوتين سيغيروا مجرى القدر الروسي. وقد أخطأوا في ظنهم وما لعبوابذلك الا أصغر دور في سفر التاريخ الروسي. فراسبوتين لم يكن بصاحب ذلك النفوذ الذي خاله فيه أعداؤه وما زمام السلطة والنفوذ الحقيقيين الا بيد التزارينا. وبعد موت راسبوتين ظل الحال يراوح في مكانه ولم يتغير منه شيء سوى ان التزار والتزارينا اصبحا اعمق ايمانا من ذي قبل انهما لغارقان في وحل كارثة لا ملاذ لهما عنها.

شاع نبأ مقتل راسبوتين في صبيحة اليوم التالي. وقد اتصلت ليلتها ماريا راسبوتين بالتزارينا لتسألها عن مكان تواجد ابيها. وانكر يوسيوف وجود راسبوتين في منزله تلك الليلة لكن التحريات أكدت وجود بقع دم على ارضية السيارة وفي القبو وفي فناء الدار. فأمرت التزارينا يوسيوف والغراندوق بالتزام منزليهما. ثم ارسل يوسيوف لاحقا الى مقاطعته الريفية وارسل الغراندوق الى الجبهة على الحدود الإيرانية -مما انقذ حياته اذ انه كان خارج حدود روسيا ابان قيام الثورة. وسمح لبوريشكفيش بالذهاب للجبهة.

تم العثور على جثة راسبوتين بعد يومين من اغتياله واستدعيت ماريا راسبوتين واختها للتعرف على جثة ابيهما. وجاء في تقرير الطبيب الشرعي: «كان الشعر الأجعد مغطى بكتل من الدم، والوجه متورما والعينان طافحتان. وعند نزع المعطف بدت ملابسه كجلد خشن ملتصق في بعض المناطق ومنزوع في مناطق اخرى. لكن اغرب شيء على الجثة هو ان اليد اليمنى كانت ترسم إشارة الصليب...» ولم تشر الفحوصات الى وجود اثر للسم في جسده. وفي يوم ضبابي لف العاصمة، وتحديداً في الثالث من شهر كانون الثاني تم دفن جثة راسبوتين في الساحة الإمبراطورية وحضر مراسم الدفن العائلة الملكية. وقد سأل التزارفيتش الصغير الذي عرف عنه مقته لراسبوتين غاضباً ان كان القتلة طلقاء.

لم يتبدل شيء، وبات القيصر أشد لامبالاة ولم يعد يكترث للذهاب للجبهة برغم خفة حدة القتال في الجبهة ايام الشتاء. وكان الوقت لما يزل سانحاً لانقاذ الموقف الروسي لو اغتنم القيصر الفرصة ونجح في عقد معاهدة سلام مع المانيا. لكنه آثر البقاء في قصره ينتظر القادم اليه. واما التزارينا فقد انطوت على

نفسها واشتد انشغالها بعائلتها. لقد خلق موت راسبوتين موجة اهتياج واسعة النطاق بيد أنه عمق شعور الفلاحين بالامتعاض وقال احدهم لماكلاكوف: «اجل .... لم ينجح إلا موجيكاً واحداً في بلوغ بلاط التزار.. وقد قتله الأسياد...».

لاح التفكك واضحاً لكل امرىء في روسيا.... حتى لم يعد أحد يقبل منصباً عالياً في الدولة. اذ استقال رئيس الوزراء (تريبوف) من منصبه وعين بدلا عنه العجوز الهرم الأمير (كوليتسين) برغم انفه. وطرد وزير العدل من منصبه ليعين بدله مرشح راسبوتين (بوبروفولسكي) الذي لم يخالف للتزارينا أمراً. وأُبعد ايضا وزير الحرب وسُمح لوزير التربية والتعليم بالإستقالة. وأمضى بروتوبوبوف جل وقته في التزاريسكو سيلو اذ قيل انه كان مصمما (على السير على نهج راسبوتين) وخلافته في الحظوة لدى التزار والتزارينا وأشاع رودزيانكو قولاً ان بروتوبوبوف كان يعقد جلسات تحضير ارواح ويتلقى التعليمات من روح راسبوتين.

في الأشهر الاولى من عام ١٩١٧، استمع رودزيانكو لخطتين انقلابيتين كانت اولها عندما عقد الجنرال (كريموف) اجتماعا غير رسمي للدوما في منزل رودزيانكو وأخبر الأعضاء أن الجيش يرى نفسه مهزوما طالما بقيت التزارينا تمسك بزمام السلطة في روسيا وأضاف: «باتت الحاجة للإنقلاب ملحة جداً»، فأجابه رودزيانكو انه لن يشجع قيام ثورة اطلاقا. وبعد فترة ليست بالطويلة تلقى دعوة من الغراندوقة (ماري بافلوفنا)- ارملة الغراندوق (فلاديمير) الذي كان مسؤولا عن اطلاق الرصاص في «يوم الأحد الدامي»- وأخبرته علانية أن التزارينا (قد حان يوم حسابها) وهنا عبرّ رودزيانكو عن تخاوفه من فكرتها

وغادر منزلها.

غدا اندلاع الثورة أمراً مقضياً وباتت كأنها رياح ثلج عاصفة. فقبل هذا اليوم وتحديداً في شهر تشرين الاول فتحت الشرطة نيران اسلحتها على متظاهرين فقتلت أغلبهم. وبحلول كانون الثاني غدت التظاهرات ومسيرات الإحتجاج أمراً معتاداً وبذل بروتوبوبوف جهده الجهيد في قمعها واعتقال انصارها «واستورده» روحانيا اجنبيا بعد أن لم يعتمد على نصائح روح راسبوتين. وعانى الشعب الروسي من نقص الغذاء والوقود ومنحت طوابير الناس المنتظرين لقمة خبز المحرضين السياسيين ما يريدون من أعوان. وبيتروجراد قد اكتظت بالفرق الناقمة المنتظرة دورها صوب جبهات القتال بيد انها كانت على اتم الإستعداد لمعاونة العمال إذا ما أمروا بقمع الثورة. وفي شباط من عام ١٩١٧ جاهد رودزيانكو في آخر مسعى له لإقناع التزار بضرورة التحرك من اجل الشعب والملكية لكن القيصر بدا متعبا ولا مباليا بل قد أدار أذناً صماء لقول رودزيانكو أن فترة حكمه كانت برمتها سلوكية خاطئة طال أمدها. وهنا استذكر رودزيانكو، وهو يسرد تفاصيل اللقاء، مقابلة اخرى له مع التزار سلمه فيها تقارير مهمة فنظر نيقولا الى الفضاء الذي امامه وقال: «كنت اليوم في الغابات... يا لسكرتها.... ان المرء لينسى فيها تفاهة المؤامرات وتفاهة الإنسان القلقة. لقد استشعرتُ روحي السلام... فالمرء هناك اقرب للطبيعة... اقرب الى الرب». وهذا القول يدل أن نيقولا كان راغباً عن أن يكون حاكماً سيما في عصر مضطرب كعصره. وكان سيكون اسعد لو كان رجلاً ريفياً يزرع أرضه ومتأبطا سلاحه.

كتب نيقولا في الصفحات الأولى من يومياته، والبلاد تتهاوى أمام

ناظريه: «سألعب الدومينا في اوقات فراغي».

اندلعت الثورة في العاصمة بيتروجراد في يوم الثلاثاء الموافق الثامن من آذار. فقد سادت الفوضى بسبب نقص الخبز وعلم لاحقاً أن الخبز كان يكفي بيتروجراد لعدة ايام لكن العيب كان في سوء التوزيع. وبعد مضي يومين على ذلك فتحت الشرطة النار على تجمعات كانت تصرخ: «فلتسقط المرأة الألمانية» اي التزارينا. وتزايد عدد القتلى في اليوم التالي. ثم تمردت كتيبة (فولونسكي) وقتلت احد ضباطها. وتتابع تمرد كتائب اخرى واقيمت المتاريس في الطرقات. وفي الرابع عشر من الشهر ذاته قررت الدوما استغلال هذه الثغرة السياسية لتقر تكوين حكومة مؤقتة. وقد كانت الثورة مشوشة وتفتقر للتنظيم. وكان فيها دور البلاشفة ضئيلا جدا.

نصح القيصر بعد عودته مسرعاً الى التزاريسكوسيلو بالتخلي عن العرش. وحين لحق بزوجته أجهش بالبكاء امامها فقد احس للمرة الأولى في حياته أنه وحيد تماما. ولما حاول بعد ذلك مغادرة القصر دفع به ستة جنود بمؤخرة اسلحتهم قائلين له: «ليس بمقدورك الذهاب من هذا الطريق ايها السيد الكولونيل»، وقد شاهدت التزارينا ذلك الموقف من النافذة... ولعل تلك اللحظة كانت اسوأ ما شهدته في حياتها.

ابتهج الألمان كثيرا لأنباء الثورة فهي تعني اجبار روسيا على عقد معاهدة سلام وفق شروطهم وهذا ما حدث فعلا في العام التالي. وتم ارسال (لينين) من سويسرا الى روسيا بمساعدة كادر ألماني وعابراً الأراضي الألمانية بقطار محكم الإغلاق حتى وصل المحطة الفنلندية في بيتروجراد في السادس عشر من نيسان

واستقبلته جموع حاشدة فقد امضى عشر سنوات في المنفى. والقى احد اعضاء «الطلبة السوفيت» كلمة رحب فيها بعودته ورد عليه لينين مرحبا «بالثورة المنتصرة».

بيد ان نصر لينين لا يزال بعيدا. فكيرينسكي كان مسؤولا عن الحكومة المؤقتة وتعرضت «الجبهة الثورية» للإنشقاق نتيجة الخلافات الدائرة بين صفوفها. لقد اراد لينين ان يطمئن أن لا عودة للنظام القديم البائد او أي نظام قريب له متذكرا درس فرنسا بعد الثورة الفرنسية ١٧٩٨. لكن البلاشفة أنفسهم لم يتأكدوا بعد أن روسيا ستغدو (ماركسية) بين عشية وضحاها. وانتهى الأمر أن أصدر كيرينسكي أمراً بالقبض على لينين الذي أجبر على السفر جوا الى فنلندا ثم عاد متنكرا في تشرين الأول. وفي الساعات الأولى من يوم السابع من تشرين الثاني ضرب البلاشفة ضربتهم واحتلوا المراكز المهمة في بيتروجراد ووقع الشيء ذاته في المدن الأخرى. ان الحرب الأهلية آتية بيد أن الثورة قد انتهت من ناحية أهدافها العملية.

في هذه الأثناء، ظلت العائلة الملكية حبيسة قصر تزاريسكو سيلو. وعرضت عليها الحكومة البريطانية اللجوء السياسي وشرع كيرينسكي في تدبير خطوات رحيلها من روسيا ثم تمرد (ليود جورج) في بريطانيا على العرض فسحبته الحكومة البريطانية.

لم يكن ثمة مبرر لخوف كبير لدى العائلة الملكية خلال الأشهر الأولى من الثورة. فقد سمحوا لها بمراسلة أصدقائها ومعارفها دون قيد، ودارت احاديث عن احتمالية ارسالها لليابان عبر سيبريا فيما تعاطف معها كثيراً الضابط المسؤول

عنها.

امر كيرينسكي في الثالث عشر من آب نقل التزار وعائلته لتوبولسك فاستقلوا قطاراً وعبروا تيومين ثم بقارب بخاري عبروا النهر مرورا بقرية راسبوتين (بوكروفسكو). وقبل ان يطئوا ارض توبولسك، كتبت التزارينا لصديقتها آنا فيروبوف، التي كانت سجينة في قلعة بيتر وبول، رسالة قالت فيها: «ان روح صديقنا المجيدة تنادينا...» فلما رأوا منزل راسبوتين شمخت في الجو بناية أعلى من مثيلاتها طلت على ساحل النهر.

ومن سخرية القدر ان يكون اسقف توبولسك الكاهن هيرموجن الذي نفاه القيصر. وعندما حلت ذكرى تتويج نيقولا في الثالث من تشرين الثاني امر هيرموجن بقرع الأجراس في توبولسك.

كان زوج ماريا راسبوتين شابا غريب الأطوار وثيوصوفياً يدعى (بوريس سولوفيف). قرر هذا الرجل وزوجته المجازفة في انقاذ حياة التزار فذهبا متخفيين لتوبولسك ووافق الأسقف هيروموجن على تقديم يد العون لهما. وتلخصت فكرتهم بايصال التزار وعائلته الى اقرب نقطة تمكنهم من الإلتحاق بالجيش الروسي الأبيض وهم الموالون الذين رفضوا القبول بالثورة. لكن التزار نفسه رفض الخطة وربما انه قد احتفظ حتى آخر ساعته بنزعته العمل ضد ذاته. بل انه طلب ايضا تعهدا بعدم اجباره على ترك الأراضي الروسية فهو لا يزال متأملا في العودة لعرشه. وهو بذلك لم يكن مدركا للخطر المحدق بحياته. ويوم موعد تنفيذ مؤامرة الهروب أخبر هيرموجن جمعه أن أحدهم غدرهم فغادرت ماريا راسبوتين توبولسك الى بوكروفسكو فيما القي القبض على زوجها ثم

افرجوا عنه. غادرت ماريا وزوجها ارض روسيا الى برلين حيث ساعدهما سيماتوفيش -الذي سبقهما بالفرار الى برلين وانتهى الأمر بماريا راسبوتين راقصة في باريس بعد وفاة زوجها الذي تركها لتعيل طفلين.

تم نقل التزار في اواخر شهر نيسان الى (ايكاتيرنبيرج) في جبال الأورال وقد قال عنها بيرس: «هي ربما اشد المناطق بلشفية في كل ارجاء روسيا» وفي الطريق تم استبدال خيوله -قنابعة الطريق- تحت نافذة منزل راسبوتين في بوكروفسكو ولحقت التزارينا وبقية افراد العائلة الملكية رب العائلة في أيار، وكان مرض التزارفيتش سبب تأخرها في توبولسك.

وفي السادس عشر من تموز ابلغت العائلة بامر نقلهم الى مكان اخر في تلك الليلة نظراً لوجود قطعات تشيكوسلوفاكية عسكرية في الجوار (وقد احتلت تلك القطعات ايكاتيرنبيرج في الخامس والعشرين من ذلك الشهر). وفي تلك الليلة طلب اليهم النزول الى القبو. ويبدو أن شكاً لم يراود التزار البتة برغم امارات الكره التي ابداها حيال سجانهم الجديد ويدعى (يوروفسكي) وهو يهودي من سيبيريا. وقد كتب القيصر في مذكراته: «هذا الشخص أقل من أحببنا في العالم». وساعتها كان التزارفيتش جد مريض عجز حتى عن المشي فحمله اباه الذي اعطي كرسياً للجلوس عليه. ثم تقدم السجان يوروفسكي صوب القيصر وقال: «نيقولا اليكساندروفيتش: لقد حاول أتباعك تحريرك من قيدك وفشلوا. والآن حان لك أن تموت رميا بالرصاص» صعق التزار وقال «ماذا تقول؟» فاجابه بيروفيسكي: «هذا» وأفرغ في صدر آخر القياصرة الرومانوفيين رصاص مسدسه وتهاوى أرضاً. ثم رسمت التزارينا الصليب على صدرها وهي شديدة اليقين بقرب حتفها وهذا ما حدث بعد ثوان من مقتل

زوجها حيث فتح الآخرون النار عليها ثم على بناتها اللاتي وقعن على الأرض فقد ثقب الجدار من الأسفل. وقتل طبيب القيصر وطاهيه وحاولت الخادمة أن تحمي نفسها من الحراب بالوسائد وظلت تصارع حتى لفظت آخر أنفاسها. ويبدو أن أناستازيا قد هوجمت بفندق بندقية ثم قتلت بطعنة حربة. بيد أن امرأة أطلقت على نفسها لاحقاً اسم (اناستازيا) قالت انها سقطت مغشياً عليها وتظاهرت بالموت. وبينما كانت هذه الأهوال دائرة، كانت شاحنة تنتظر في الخارج لنقل الجثث وانتهى الأمر كله بقتل كلب الاطفال، أن حطموا رأسه برصاص بندقية.

ويذكر (فرانز سفوبودا)، وهو اسير حرب سابق نمساوي الجنسية، سرد له في عام ١٩٣٨ أنه ورفيق له ساعدا في حمل الجثث للشاحنة وقد اهتزت احدى الجثث وكانت جثة اناستازيا، فغطياها بدثار ونجحا في حملها على عربة خارج السجن بدلا من الشاحنة المخصصة لحمل الجثث. حينها بدأت رحلتها الطويلة التي انتهت في برلين بعد سنتين في محاولة انتحار وقد تسبب الاعلان عن شخصيتها في عطف عالمي على قدر آخر الرومانوفيين.

لا نملك حيزاً هنا لسرد قصة أنا ستازيا، غير أن بيرس يقول صراحة أنها مجرد مدعية كاذبة ويبدو ان التاريخ قد حكم عليها بذات التهمة ايضاً. ومع هذا، تقف لصالحها براهين كثيرة جمع بعضها (رولاند كرج فون ندا) في سيرة حياتها اسماها «أنا... اناستازيا» ونموذج واحد من هذه المذكرات سيفي بالمطلوب. واعلن الكونت (كارل بوند)، الذي كان مرة رئيسا للبعثة السويدية للصليب الأحمر لسيبيريا، في ملاحظات له نشرت عام ١٩٥٢:-

«بصفتي رئيساً للبعثة السويدية للصليب الأحمر لسيبيريا، استقلبت في رحلاتي عام ١٩١٨ قطاراً خاصاً. وفي مكان ما- لم تعد ذاكرتي تسعفني لذكر اسمه- توقف القطار وبحثنا عن الغراندوقة اناستازيا ابنة التزار نيقولا الثاني، ... لكن أحداً لم يعرف مكان وجودها».

ومؤكد أن البلاشفة قد باشروا في تموز عام ١٩١٨ بحملات تفتيش واسعة أشارت جميع الدلائل أنها كانت بحثاً عن اناستازيا. وقد ايد (كيليارد) معلم التزارفيتش، أن المرأة التي ادعت نفسها انا ستازيا هي نفسها اناستازيا، بعدها أنكر ذلك. ولم تنجح أنا ستازيا قط في اثبات هويتها او في الحصول على ملايين الروبلات التي اودعها التزار في امريكا تحسبا لاي طارىء. واذا ما كانت المرأة التي ادعت هوية اناستازيا صادقة، على الأرجح، في زعمها فان حكايتها المأساوية ستكون نتيجة ملائمة جدا لتاريخ عائلة التزار التي وصفها اكثر من مؤرخ بانها كانت موسومة بسوء الحظ.

تم بعدها تدمير بقية الجثث بحامض الكبريت ورميت في حفرة عميقة. ان قدر التزار وعائلته لأقل مأساوية من بقية الرومانوفيين. فالغراندوقة (اليزابيث)، شقيقة التزارينا، نقلت الى الآبيفسك على مقربة من ايكاتيرينبرج مع الغراندوق (سيرجيوس ميخيلوفيش) وثلاثة من ابناء الغراندوق (قسطنطين) والإبن الأصغر للغراندوق (بول). وفي اليوم التالي لمقتل نيقولا وعائلته تم رمي هؤلاء جميعا في حفرة مهجورة احياءا باستثناء الغراندوق سيرجيوس الذي حاول المقاومة. ثم القي الديناميت المتفجر وراءهم. وعندما اخرجت الجثث لاحقا كانت جميع الرؤوس مهشمة واشار تقرير طبي أنهم لم يموتوا في الحال بل ماتو موتا بطيئا.

بعدها اعدم الكثير من الغراندقة بحجة «الإنتقام» لموت (اوريتسكي) رئيس الشرطة السرية للبلاشفة ومحاولة اغتيال لينين على يد (دورا كابلان) وهو ثوري اشتراكي. كما اعدم العديد من الوزراء السابقين في نفس الوقت بضمنهم ستورمر وماكلاكوف وبيليتسكي وبروتوبوبوف وهفوستوف (ابن الأخ). وقبلهم مات كورميكن العجوز خنقاً على يد سواد الناس. وانتهى حال هفوستوف وبيليتسكي –اللذان أصبحا لبعضهما ألد عدوين– في زنزانة مشتركة شاركهما فيها الثوري (بيرتسيف)، والذي ساعده على الهرب لاحقاً المبتز مانيلوف –اليد اليمنى لراسبوتين لسنين عديدة– ثم أعدمه البلاشفة مع الأمير اندرونيكوف. وغدا وزير الحرب السابق بوليفانوف والجنرال بروسيلوف– الذي اوشك على الإنتصار في الحرب عام ١٩١٦– بلشفيين. وهربت الكثير من الشخصيات القيادية في هذه القصة للعيش في كنف الدول الأخرى ومنهم رودزيانكو الذي توفي مدقعا في سيبيريا عام١٩٢٤ والإمبراطورة(دواجر)، والدة التزار، التي عاشت في بريطانيا لفترة ما، ومات بوريشكيش اثر اصابته بمرض التيفوئيد وهو يقاتل مع الجيش الأبيض في جنوب روسيا وكتب هو الآخر، شأنه في ذلك شأن يوسبوف، كتابا عن مقتل راسبوتين.

ربما كان يوسبوف هو الناجي الوحيد في هذه المأساة وظل على قيد الحياة دهراً. وقد ثبت حقه في لقب «قاتل راسبوتين» في محكمة امريكية عندما قاضى يوسبوف فريق عمل في فيلم عن حياة راسبوتين، حيث صور الفيلم راسبوتين يغتصب زوجة امير فقتله الأمير انتقاما لشرفه ولم يكن هذا «الأمير» يوسبوف اطلاقا، الا أن يوسبوف زعم في المحاكمة أن العالم عرفه قاتل راسبوتين وأن الفيلم لم يكن الا تشهيراً به فكسب القضية وجنى مالاً وفيراً.

لم يدع البلاشفة جثة راسبوتين راقدة في الساحة الملكية فنبشوا القبر وأحرقوا الكفن في محرقة كبيرة وقيل لذلك أن الجسد قد عانى من شديد عناصر الطبيعة من الماء والتراب والنار والهواء.